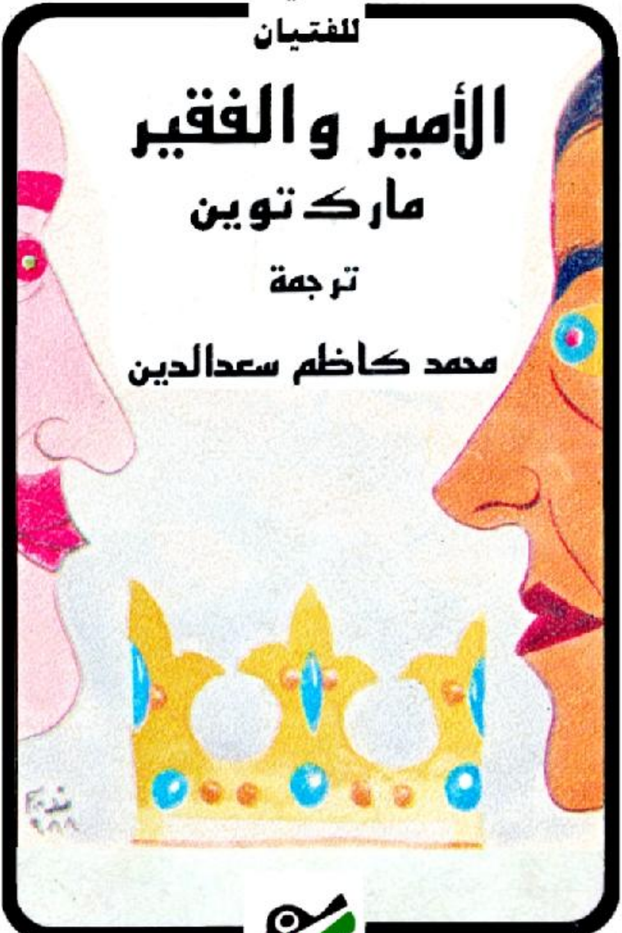
روايات
عالمية
للفتيان

الأمير والفقير

مارك توين

ترجمة

محمد كاظم سعدالدين



فريق التوثيق الألكتروني

مارك توين

الأمير والفقير

ترجمة

محمد كاظم سعدالدين

فريق التوثيق الألكتروني
محمد رضا مهدي
أسعد علوان حسين



الامير والفقير
تأليف : مارك توين
ترجمة : كاظم سعد الدين
الطبعة العربية الاولى ١٩٨٨

الناشر: وزارة الثقافة والاعلام . دار ثقافة الاطفال
العراق - بغداد ص . ب ٨٠٤١

سلسلة روايات عالمية للفتيان
تصدر عن قسم النشر في دار ثقافة الأطفال
المدير العام : فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة : فاروق يوسف

الأمير والفقير

مارك توين والامير والفقير

«مـــارك توين» الاسم الادبي المستعـــار لســامـويـل لانهـورت كليمنـز (١٨٣٥ ـ ١٩١٠). ولد في ميسوري في الـولايات المتحدة الامريكية. ترك المدرسة في سنة ١٨٤٧ لمـوت ابيـه واشتغـل عاملا في الطباعة عددا من السنين، ثم صار ملاحـاً في نهـر المـسـيبي. بعـد ذلـك اصبـح كاتبـا. افـاده القسم الاول من تجاربه في الحياة في تأليف افضـل كتبـه، ونعني بها «مغامرات توم سوير» ١٨٧٦ و«الحياة على نهر المسسبي» ١٨٨٣ و«مغامرات هيكلبري فن» ١٨٨٤.

وكتب ايضـاً كتـابـات فكهة في الصحف والجرائد. نال نجـاحاً عظيماً في روايته «الابرياء خارج الوطن» ١٨٦٩ وهي في الاصـل محـاضـرة في رحلة مصـورة في البحـر المتـوسـط. وفي ١٨٧٠ تزوج اوليفيا لاندن. والف كتباً كثيـرة، منهـا «الامير والفقير» روايتنا هذه في سنة ١٨٨٣ و«مـــذكـرات جان دارك الشخصيـة» ١٨٩٦، وكثيـر من القصص والتخطيطــات والمقـالات باسلوب فكـه جزل العبارة، قل في العالم من يضاهيه في ذلك.

تعـد «الاميـر والفقيـر» اعظم كتبه بعد «توم سوير». وهي قصـة مغامرات اخاذة عن صبيين عاشا في ظروف متباينة تماما. ما تزال تأسر الصغار من مختلف الاعمار. اهداها مؤلفهـا الى ابنتيـه الصغيـرتين سوزي وكـلارا. وهي من روائـع الادب الفكـاهي. فيهـا توم كانتي وادورد تيـودور توأمـان متطـابقـان، في يوم مولـدهما ووجهيهما، ولكن التشـابـه يتـوقف الى هذا الحـد، لأن ادورد امير ووارث الملك هنـري الثـامن على عرش انكلترة، بينما توم فقير بائس. غيـر أن القـدر يتـدخـل وتلتبس شخصيتهمـا وهويتاهما، وسرعان مايلقي بادورد خارج القصر الملكي بأسمـال بالية. تاركاً توم الجاهل يمثل دور الامير، فيرى كل واحـد منهمـا كيف يعيش صاحبـه. وقـد افاد مارك توين من كتب ومصـادر متعـددة تحقيقاً للامانة التاريخية اثبتها في ملاحظاته مدرجة في نهاية الرواية.

المترجم
١٩٨٧/٢/٢٥
بغداد

الى
الطفلتين المهذبتين المنسجمتين
سوزي وكلارا كليمنز
هدية حب وحنان
من ابيهما

صفة الرحمة . .
مباركة مرتين ،
تبـارك ذلـك الذي يهبها وذلك الذي يتلقاها عظيمة لدى العظماء ؛ وتجعل العاهل ذا العرش افضل من تاجه .

«تاجر البندقية»

تمهيد

سأدون حكاية كما رواها لي شخص تلقاها عن ابيه وهذا اخذها عن ابيه ، وهذا ايضاً نقلها بالاسلوب عينه عن ابيه ـ وهلم جرا ، عوداً ثم عوداً الى الماضي ، ثلاثمئة عام او تزيـد ، ينقلهـا الاباء الى ابنائهم وبهذا يحافظون عليها . قد تكون شيئاً من التاريخ ، وقد تكون مجرد اسطورة ، او تراث . لعلهـا حدثت اولعلهـا لم تحدث ، ولكنها يمكن ان تكـون قد حدثت . ولعـل الحكماء والمثقفين صدقوا بهـا في غابـر الايـام ؛ ولعـل الجهـلاء والبسطاء وحدهم أحبوها ووثقوا بها .

الفصل
(١)

مولد الامير والفقير

في مدينة لندن القديمة، وفي يوم من ايام الخريف، في الـربـع الثـاني من القرن السادس عشر ولد طفل في عائلة فقيرة تدعى «كانتي» ولم تكن ترغب فيه.

وفي اليـوم نفسـه ولـد طفـل انكليزي آخر في عائلة ـ غنيـة اسمهـا «آل تيودور» وكانت ترغب في الطفل فعلا. وكـانت انكلتـرة جميعـاً راغبـة فيـه أيضـاً. وتلهفت الى مجيئه، وتاقت اليه، وابتهلت الى الله من أجله، وعندما جاء فعــلاً كاد الشعب أن يجن فرحـاً وابتهـاجـا. كانت لندن في النهار تسر الناظرين براياتها البهيجة المرفرفة في كل شرفـة وعلى سطح كل بيت، وكانت المواكب البهية تستعرض في الشوارع.

امــا في الليـل فقـد كانت بهجـة للمتفـرجين، اذ تطلق الالـعــاب النــاريــة العظيمــة في كل ركن، وحشـــود

المبتهجين يمرحون ويهزجون حولها. ولم يكن يدور في انكلترة كلها حديث غير حديث الوليد الجديد، ادورد تيودور، امير ويلز، يرفل راقداً في الحرير والاطلس، لا يعي من كل هذا الهرج والمرج شيئاً، ولا يعلم ان عظماء السيدات والسادة يتولونه بعنايتهم ويسهرون على رعايته ـ ولم يكن يهمه ذلك ايضا. ولكن لم يدر أي حديث بشأن الطفل الآخر، توم كانتي، الملفوف باسمال بالية، إلا في تلك العائلة الفقيرة، التي جاء اليها ليضيف لها شيئاً من الضيق والعناء.

الفصل
(٢)

حياة توم الباكرة

دعنا نتخطَّ عدداً من السنين.

كان عمر لندن الفاً وخمسمئة عام، وكانت مدينة عظيمة ـ في ذلك اليوم، بلغت نفوسها مئة الف نسمة ـ ويظن بعض الناس انها كانت ضعف ذلك العدد. كانت شوارعها ضيقة جداً، وملتوية، وقذرة وخصوصاً في القسم الذي يعيش فيه توم كانتي، الذي لم يبعد كثيراً عن جسر لندن. بيوتها من خشب، يبرز الطابق الثاني عن الاول، وتنتأ مرافق الطابق الثالث خارج الثاني وكلما كبرت البيوت، اصبحت اوسع. كانت هياكل من دعائم خشبية قوية متشابكة، بينها مادة صلبة، مطلية بالجص، وقد صبغت الدعائم بلون احمر او ازرق او اسود، وفقاً لذوق المالك، مما اعطى البيوت منظراً فاتناً. كانت النوافذ صغيرة، ذات زجاج صغير معيني الشكل، وتفتح

الى الخارج، على مفاصل كالابواب .

يدعى البيت الذي يسكنه والد توم باسم كورت اوفال أي قصر النفايات، في بودنك لين أي زقاق الحلوى. كان البيت صغيراً، عفناً، متداعياً، يمور بالعائلات الفقيرة البائسة. وكانت عائلة كانتي تحتل غرفةً في الطابق الثالث. وكان للأم وللأب شيء يشبه السرير في الركن، ولكن «توم» وجدته واختيه، بيت ونان، كانت الأرض كلها لهم، ينامون حيثما يشاءون كان لديهم بقايا بطانية اوبطانيتين وحشايا من قش عتيق قذر ولكن لا يمكن ان تدعى هذه الاشياء افرشة في الحقيقة، وكانت تلقى في كومة عند الصباح، ويختارون منها في الليل مايفي بالغرض.

كانت بيت ونان في الخامسة عشرة من العمر ـ توأمان كانتا فتاتين طيبتي القلب، غير نظيفتين، متشحتين بالاسمال البالية، جاهلتين تمام الجهل. وكانت أمّهما مثلهما. اما الاب والجدة فقد كانا شيطانين خبيثين. يسكران كلما استطاعا الى ذلك سبيلا، ويتعاركان فيما بينهما ومع كل من يأتي في طريقهما، يسبان ويشتمان دوماً في حالتي الصحو والسكر. كان جون كانتي لصاً وكانت أمه شحاذة. وجعلا من الاطفال شحاذين

ولكنهما فشلا في جعلهم لصوصا. وكان بين ذلك الحشد الرهيب، ولم يكن منهم، يسكن قس عجوز طيب اخرجه الملك من بيته براتب تقاعدي ضئيل، اعتاد القس ان ينتحي بالاطفال ويعلمهم سراً سبل السلوك الصحيح. علّم الاب اندرو «توم» ايضاً قليلاً من اللاتينية وكيفية القراءة والكتابة، وكان من الممكن ان يفعل الشيء ذاته مع البنتين لولا خشيتهما من سخرية صديقاتهما.

كان «قصر النفايات» خلية تشبه بيت «كانتي»، يعم فيه السكر والعربدة والشجار، كل ليلة وطوال الليل تقريباً وكانت القلوب المسحوقة بالاسى امراً شائعاً كالجوع في ذلك المكان.

ومع ذلك لم يكن «توم» تعيسا. اصابه من ذلك زمن عسير غير انه لم يكن يدري به. انه الزمن الذي يلف اولاد البيت، لذلك كان يعتقد انه الشيء الصحيح والمريح. وكان عندما يعود ليلاً خالي اليدين، يعرف ان والده سيسبه ويضربه اولا، ثم تتناوله جدته المرعبة بعد ذلك وتعيد الامر وتضيف عليه كثيرا، وتتسلل امه، الهالكة من الجوع، ليلاً ومعها شيء من فتات طعام او كسرة خبز استطاعت ان توفرها له وتظل جائعة، على الرغم من انها كانت في كثير من الاحيان تتلقى ضرباً

مبرحاً من زوجها بسبب ذلك .

على ان حياة «توم» كانت تسير سيراً حسناً وبخاصة في الصيف، فيروح يستجدي لانقاذ نفسه لأن القوانين كانت صارمة والعقوبات شديدة، لذلك انفق وقتاً طيباً يستمع فيه الى الاب اندرو الصالح في حكاياته واساطيره عن العمالقة والحوريات والاقزام والجن والقلاع المسحورة والملوك والامراء الرائعين. وامتلأ راسه بهذه الاشياء الجميلة.. البديعة وكثيراً ما اطلق العنان، في اثناء استلقائه ليلاً في الظلام على خشبة القش، لخياله في تصوراته الجميلة لحياة الامير المدلل الساحرة في قصره الملكي. وظلت رغبة واحدة تراوده ليل نهار: في ان يرى بعينيه اميراً حقيقيا.

وكثيراً ماكان يقرأ في كتب القس العتيقة ويطلب اليه ان يفسرها له. وصارت احلامه وقراءاته تفعل فعلها في اجراء بعض التغييرات فيه، تدريجاً. كان اشخاص احلامه رائعين جداً يرثون لحاله في ثيابه الرثة ووسخه ويتمنون له ان يكون نظيفاً وفي ثياب افضل.

وظل يلعب في الاوحال كالسابق، ويستمتع بذلك، ايضا، ولكن بدلاً من اللعب في ماء نهر التيمز لمجرد المتعة، صار يجد نفعاً اضافياً في ذلك بسبب الاستحمام فيه.

واخذت قراءة «توم» واحلامه عن الحياة الاميرية تؤثر فيه تأثيراً تدريجياً فطفق يمثل دور الامير بصورة غير واعية. واضحى كلامه متسماً بالرسميات ولهجة اهل البلاط مما آثار دهشة اصدقائه الحميمين بصورة عميقة. بيد ان تأثير «توم» في اصدقائه الصغار بدأ يتزايد يوماً بعد يوم. وكان يبدو انه يعرف كثيرا، ويستطيع ان يقدم ويقول اشياء رائعة جدا. وكان فوق ذلك كله عميق التفكير حكيما! وكان الاولاد ينقلون اقوال توم وافعاله الى اهلهم الكبار، واخذ هؤلاء ايضاً يناقشون «توم كانتي» ويعدونه شخصاً موهوباً جداً وغير اعتيادي ابدا. وشرع الكبار يجلبون مشكلاتهم الى «توم» لحلها، وكثيرا ماكانوا يدهشون لفطنته وحكمة قراراته. اصبح في الحقيقة، بطلاً لدى كل من يعرفه ما عدا عائلته.

واسس توم، بصورة سرية، بلاطاً ملكياً. وصار هو الامير واصبح اصدقاؤه المقربون حرساً وحجاباً ومحققين، وسيدات وسادة في رسم خدمته وخدمة العائلة المالكة. وكان الامير الزائف يستقبل كل يوم بحسب المراسيم المتقنة التي يستمدها «توم» من قراءاته، وكانت شؤون المملكة الصورية تناقش يومياً في المجلس الملكي وكان جلالته يصدر اراداته الى جيوش واساطيل ونواب ملكيين خياليين.

ويخرج بعد ذلك في اسماله يستجدي قليلاً من المال، ويأكل فتات طعامه، ويتلقى الصفعات والشتائم المعتادة، ثم يستلقي على القش القذر، ويستأنف عظمته الفارغة في احلامه.

ومازالت رغبته في القاء نظرة واحدة على امير حقيقي، بلحمه تتزايد، يوماً بعد يوم واسبوعاً بعد اسبوع، حتى استحوذت على كل رغباته الاخرى، واضحت امنيته الوحيدة في الحياة..

وفي يوم من ايام كانون الثاني، في اثناء جولته التسولية، راح يتسكع كئيباً، جيئة وذهابا، في منطقة منسنك لين وليتل ايست جيب حافي القدمين يرتجف من البرد، ناظراً في واجهات المطاعم بلهفة الى فطائر اللحم الشهية وغيرها من الأكلات الطيبة المعروضة فيها - التي كانت بالنسبة اليه لذائذ تليق بالملائكة، لانه حسب رائحتها، لم يحالفه التوفيق يوماً ان يمتلك واحدة ويأكلها. وكانت السماء تمطر رذاذاً بارداً والجو ملبداً بالضباب في ذلك اليوم الكئيب. ورجع توم تلك الليلة مبللاً، مرهقاً، جائعاً بشكل لم يكن ممكناً لابيه وجدته ان يلاحظا حالته البائسة ولا يتأثران حسب العادة، فضرباه في الحال ودفعاه للنوم. وجعله المه وجوعه والسباب والشجار المستمر في المبنى كله لا يستطيع

النوم وظل مستيقظاً مدة طويلة، واخيراً انسابت افكاره الى بلدان خيالية بعيدة، ونام في صحبة امراء صغار يرفلون بثياب موشاة بالذهب والجوهر، ثم حلم كعادته، انه امير نفسه.

وظل طوال الليل يتنقل بين سيدات وسادة عظماء في اضواء متألقة. وعطور متضوعة ويشربون على انغام موسيقى لذيذة، وعندما استيقظ في الصباح وتطلع الى البؤس الذي حوله كان لحلمه تأثيره المعتاد - فقد كشف القذارة في مايحيط به الف مرة. وجاءت المرارة بعد ذلك والحسرة التي تسحق القلب والدموع.

الفصل
(٣)

توم يلتقي بالامير

نهض توم جائعاً وخرج يمشي الهوينى جائعاً، وكانت افكاره ماتزال مشغولة بالابهة الوهمية في احلام الليلة الماضية. تسكع هنا وهناك في المدينة ولم يكد ينتبه الى وجهة سيره. غير انه وجد نفسه في «تيمپل بار» وهي ابعد نقطة عن بيته يصل اليه في تلك الجهة. توقف وتأمل لحظة، ثم انغمر في تصوراته، وفي شاطىء النهر مرة اخرى وسار خارج اسوار لندن. ولم يعد «الستراند» طريقاً ريفياً بل صار يعد نفسه شارعاً بشيء من المنشآت المتمثلة بمجموعة من بيوت في شكل صف على جانب منه، وبعض المباني العظيمة المتناثرة على الجانب الآخر، وهي قصور النبلاء الاغنياء تحيطها مساحات من الارض الفسيحة الجميلة التي تمتد الى النهر.

اكتشف توم قرية جيرنك فوراً ووقف لدى نصب

الصليب الجميل الذي بناه ملك ثاكل في الايام الخوالي، ثم تهادى في طريق هادىء لطيف ماراً بقصر الكاردينال المنيف متجهاً نحو قصر أكثر فخامة واسمى جلالاً ـ ويستمنسر. وحدق «توم» بدهشة مفعمة بالفرح في مجموعة المباني الضخمة، باجنحتها الواسعة الانبساط، وحصونها وابراجها المتجهمة وقوس البوابة الحجرية الهائلة ذات القضبان المذهبة والصف الرائع من الاسود الضخمة من حجر الصوان، والعلامات والرموز الملكية الاخرى. هذا هو في حقيقة الامر قصر ملك من الملوك.. لعلّ الامل يسعفه الآن برؤية امير ـ امير من لحم ودم، ان شاء الله؟.

يقف على كل جانب من البوابة المذهبة تمثال حي، اي رجل مدجج بالسلاح منتصب بجلال من دون حراك، يكسوه درع من الحديد اللامع من رأسه حتى كعب قدمه. ويقف على مسافة محترمة كثير من ابناء الريف واناس من المدينة بانتظار لمحة مواتية من شخصية ملكية. وكانت عربات فارهة تحمل فيها شخصيات متألقة وخدماً رائعين خارجها، تدخل القصر او تغادره من ابواب عديدة اخرى في السياج الملكي.

وتقدم توم المسكين في اسماله وصار يسير وئيداً وجلاً ماراً بالحرس بقلب خائف وأمل مشرق عندما لمح فجأة



من بين القضبان الذهبية مشهداً كاد يجعله يهتف فرحاً. رأى في الداخل صبياً وسيماً اسمر لوحته الشمس ، ملابسه كلها من الحرير والسندس الجميل ، تتلألأ فيها المجوهرات . ويحمل الى جانبه سيفاً وحربة صغيرين مرصعين بالجواهر، وينتعل حذاء انيقاً يبلغ منتصف الساق احمر العقب، ويعتمر قبعة قرمزية بديعة ذات ريش منحنٍ مثبت في جوهرة عظيمة متلألئة . آه! انه امير

ـ أمير، امير حي ، امير حقيقي ـ من دون ادنى ريب ؛ لقد استجيب دعاء الصبي الفقير اخيرا .

وتسارع تنفس توم وتقاصر من شدة الانفعال ، واتسعت عيناه من الدهشة والبهجة . وفسحت الاشياء كلها في فكره نوراً لرغبة واحدة : ان يقترب من الامير ويلقى عليه نظرة ملتهمة . وقبل ان يعرف ماذا يدور حوله كان قد الصق وجهه بقضبان البوابة . وفي اللحظة التالية انتزعه جندي من الجنود من مكان بفظاظة وطوّح به بين حشد من بلهاء الريف ومتسكعي المدينة الذين يحدقون فاغري الافواه . وقال الجندي :

ـ تنبه الى اصول الادب ، ايها الشحاذ الصغير!

وضحك الجمهور ساخرين ، غير ان الامير الصغير قفز الى البوابة وقد تورد وجهه والتمعت عيناه بالسخط ، وصاح قائلا :

ـ كيف تجرؤ ان تعامل احد رعايا والدي الملك الضعفاء هكذا! كيف تجرؤ ان تعامل غلاماً مسكيناً هذه المعاملة! افتح الباب ودعه يدخل!

لو أنك رأيت ذلك الحشد المتقلب العواطف ينزعون قبعاتهم آنذاك لسمعتَهم يبتهجون ويهتفون : يعيش أمير ويلز!

وحيا جنود حاملين مطارد مؤلفة من رمح وفأس حرب» ، وفتحوا الباب ، ثم عادوا يحيون امير الفقراء بالسلاح وهو يدخل في اسماله المهفهفة ليتلتحق بامير الاغنياء .

وقال ادورد تيودور:

ـ تبدو متعباً جائعاً . لقد اسيئت معاملتك . تعال معي .

وهبّ ستة مرافقين لكي ـ لا ادري لماذا؟ لكي يتدخلوا بلا ريب ، ولكنهم كفوا جانباً باشارة ملكية فتوقفوا بلا حراك في اماكنهم كالتماثيل . وصحب ادورد توم الى شقة نفيسة في القصر كان يدعوها حجرته الخصوصية وجلبت وجبة طعام بأمر منه لم يرَ توم مثيلاً لها إلا في الكتب . وصرف الامير الخدم بكياسة وتهذيب لئلا يرتبك ضيفه الذليل بوجودهم المحرج ، ثم جلس قريباً اليه وسأل توم وهو يتناول الطعام .

ـ ما اسمك ايها الغلام؟

ـ توم كانتي يا سيدي

ـ انه اسم غريب. واين تسكن؟
ـ في المدينة يا سيدي. في قصر النفايات الواقع في زقاق الحلوى.
ـ قصر النفايات، أحقاً، انه اسم غريب آخر. ألديك والدان؟.
ـ نعم ياسيدي لدي والدان وجدة ايضا.. ليست عزيزة عليّ، وارجو مغفرة من الله ان كان في قول ذلك اساءة ـ واختان توأمان ايضاً، نان وبيت.
ـ اذن جدتك لا تعطف عليك، على ما افهم.
ـ ولا على أي انسان، ياصاحب السمو. قلبها مفعم بالشر ولا تفعل إلا شراً طوال ايامها.
ـ أهي تسيء معاملتك؟
ـ احياناً تكف يدها عني لكونها نائمة او لأن السكر قد غلبها ولكنها عندما تصحو توسعني ضرباً مبرحا.
وطافت في عيني الامير الصغير نظرة صارمة وصرخ قائلا:
ـ ماذا! تضربك؟
ـ آوه، نعم ياسيدي.
ـ تضربك! ـ وانت هذا الصغير الضعيف. اسمع ياهذا: سنعجل بها قبل حلول الظلام الى البرج. الملك والدي ·اتلطفك انك نسيت منزلتها الوضيعة، ياسيدي. البرج

للعظماء فقط.
ـ صحيح، حقاً. لم افكر بذلك. سوف افكر بعقابها. هل ابوك رحيم بك؟
ـ ليس اكثر رحمة من جدتي ياسيدي.
ـ لعل الاباء متشابهون. ليس لابي مزاج رقيق فهو يصفع بيد ثقيلة، ولكنه يصفح عني ولا يصفح عني دائماً بلسانه. وكيف تعاملك امّك؟
ـ انها طيبة ياسيدي ولا تسبب لي حزناً ولا الماً مهما كان. ونان وبيت مثلها في هذا الشأن.
ـ وما عمرهما؟
ـ خمسة عشر عاماً ياسيدي؟
ـ ليدي اليزابث، اختي، عمرها اربعة عشر، وليدي جين كري، ابنة عمي، في مثل عمري وهي جميلة ولبقة ايضاً، ولكن ليدي ميري بسيمائها العبوس و... اسمع ياهذا: هل تمنع اختاك خدمهما من الابتسام لئلا يدمر الاثم ارواحهم.؟
ـ وهل تظن ياسيدي ان لهما خدما؟
وتأمل الامير الصغير الفقير الصغير بوقار لحظة ثم قال:
ـ ارجوك قل لي. لماذا؟ ومن يساعدهما في خلع الملابس ليلا؟ ومن يلبسهما ويزينهما عندما تنهضان؟ـ

لا احـد، يا سيـدي . وهـل همـا تخلعان ثوبهما وتنامان
بدونه ـ كالبهائم؟

ـ ثوبهما؟ وهل لا تمتلكان إلا ثوباً واحداً؟

ـ نعم ياصاحب السمو، وماذا تفعلان باكثر من ذلك؟
انهما في الحقيقة لا تمتلكان اكثر من جسدين.

ـ انها فكرة طريفة ومدهشة. عفوك، لم اكن اقصد ان
اضحك اختك الطيبة نان واختك بيت ستحصلان على
«بزّات» وثياب الآن، وفوراً ايضا. وسوف يهتم بذلك
امين صندوق نفائسي. لا، لا تشكرني، انها لا شيء
يذكر. انت تتكلم جيداً وفي كلامك حسن ورشاقة. هل
انت متعلم.؟

ـ انا لا ادري فيما اذا كنت متعلماً ام لا، ياسيدي.
علمني القس الطيب الذي يدعى الاب اندرو من فضله
ومن كتبه:

ـ هل تعرف اللاتينية.

ـ نعم. ولكن مقدار ضئيل، ياسيدي، على ما اظن

ـ تعلمها يا غلام: انها صعبة في البداية فقط. الاغريقية
اصعب، ولكني لا اظن ان هذين اللسانين او اي لسان
آخر، كما اظن، يصعبان على ليدي اليزابث او
على ابنة عمي. ليتك سمعت تلكما الآنستين فيهما.
ولكن حدثني عن قصر النفايات أليست حياتكم جميلة

فيه؟

ـ نعم، في الحقيقة، ياسيدي، لولا الجوع. هناك
عروض پنج وجودي (قره قوز)، وقرود تلعب ـ اوه انها
مخلوقات غريبة! في ملابس انيقة! ـ وثمة تمثيليات
يصيح فيها الممثلون ويتحاربون حتى يقتل الجميع،
وهي جميلة مشاهدتها ولا تكلف إلا فلساً ـ وان يكن من
العسير الحصول على الفلس، يا صاحب السمو،

ـ حدثني اكثر.

ـ نحن صبيان قصر النفايات نتبارز فيما بيننا بالهراوات
على طريقة غلمان المهن، احيانا.

والتمعت عينا الامير وقال:

ـ لطيف وهذا هو ما يعجبني . حدثني اكثر.

ـ ونتنافس ياسيدي في سباقات لنرى من منا الأسرع.

ـ وهذا ما احبه ايضاً. تحدث.

في الصيف يا سيدي نخوض ونسبح في الجداول والنهر
ويغطس كل منا صاحبه القريب اليه ويرشه بالماء،
ونغوص ونصيح و«نتشقلب» و. . . .

ـ هذا يعادل مملكة ابي لو استمتعت به مرة واحدة،
ارجوك استمر.

ـ ونرقص ونغني حول سارية ايار المزينة بالاشرطة
والازهار في منطقة جيبايد. ونلعب بالرمل ويغطي كل منا

صاحبه بالرمل، ونصنع احياناً الفطائر من الطين ـ ونتمرغ تماماً في الوحل، حاشاك ياسيدي من هذا.

ـ ارجوك، لا تقل هذا، انه شيء رائع! آه لو استطيع ان البس مثل ثيابك، واسير حافياً، وامرح صاخباً في الوحل مرة، مرة واحدة فقط، ولن يوبخني احد او يمنعني، ويبدو لي انني يمكن ان اترك التاج!

ـ ويا ليتني ان البس ولو مرة واحدة ياسيدي الرائع، مثل ملابسك ـ مرة واحدة فقط ـ

ـ وهل تحب ذلك؟ اذن ليكن الامر كذلك. اخلع اسمالك وارتدِ هذه الملابس الفاخرة، ايها الغلام! انها سعادة متيسرة ولكنها لا تقل حدة عن ذلك سنبقى بها كما يحلو لنا وسوف نستبدلها قبل ان يتضايق احدنا.

وبعد دقائق لبس امير ويلز الصغير أخلاق توم الممزقة، وتأنق امير الفقر في الثياب الملكية المبهرجة. وقبعة الريش. وذهب الاثنان ووقفا جنباً الى جنب امام مرآة عظيمة ونظرا وياللعجب!. انها معجزة: يبدو انه لم يحدث اي تغير! حدق احدهما بالآخر ثم الى المرآة ثم احدهما بالآخر مرة اخرى، واخيراً قال الامير الصغير:

ـ ماذا تستنتج من هذا؟

ـ لا. سيدي الطيب، لا تطلب مني جواباً على ذلك، فلا يليق بأحد من منزلتي ان يتفوه بشيء من هذا.

ـ اذن انا سأقول. لك الشعر نفسه والعينان نفسهما، والصوت والسلوك نفسه. والشكل والقامة نفسها، والوجه والمحيا نفسه الذي احمله. لو تعرينا، لا يستطيع احد ان يقول هذا انت أو هذا هو امير ويلز. والآن مادمت لابساً كما كنت انت لابساً، فيبدو أنني استطيع ان اشعر ماشعرت به عندما جابهك ذلك الجندي الفظ ـ انظر ياهذا، أليست هذه كدمة على يدك؟

ـ اجل، ولكنها شيء تافه، ويعرف سموكم ان الجندي المسكين.....

ـ سلاما! انه شيء مخزٍ وقاسٍ!» صاح الامير الصغير وهو يضرب الارض بقدمه الحافية. «لو ان الملك ـــ لا تتحرك خطوة واحدة حتى اعود! انه امر!»

واختطف شيئاً مهما بسرعة فائقة كان موضوعاً على المنضدة واخفاه وخرج يجري كمن يطير باسماله المرفرفة في حدائق القصر ووجهه ساخن وعيناه تلتمعان. وما ان وصل البوابة الكبرى حتى قبض على القضبان وحاول ان يهزهما وهو يهتف:

ـ افتح! ارفع الرتاج!

واطاع الجندي، الذي اساء معاملة توم، الأمر فوراً، وعندما انطلق الامير في المدخل، وقد اوشك الغضب الملكي ان يخنقه، اصابه الجندي بلكمة رنانة على اذنه

وطوح به في الطريق وقال:

ـ خذ هذا يا بذرة الشحاذين، لما نالني بسببك من سموه!

وانفجر الحشد بالضحك. ونهض الامير من الوحل وهجم غاضباً على الحارس هاتفا:

ـ اني امير ويلز، وشخصي مقدس. سوف تشنق لأنك القيت يدك علي.

وقدم الجندي رمحه في وضع التحية وقال ساخراً: «احيي سموكم الجليل» ثم صاح غاضباً: «ابتعد ايها النفاية المجنون.

واحاط الجمهور الساخر بالامير الصغير المسكين وهم يدفعونه بخشونة في الطريق ويستهزئون به ويصيحون: الطريق لصاحب السمو الملكي! الطريق لامير ويلز!

الفصل
(٤)

بدء متاعب الامير

بعد ساعات الملاحقة المتواصلة والمضايقات، ترك الغوغاء الامير الصغير اخيراً الى نفسه. وكلما كان قادراً ان يبدي غضبه على الرعاع ويهددهم بلهجة ملكية. ويصدر اوامره الملكية، كان ذلك يثير لديهم موجة من الضحك وكان موضع تسلية. ولكن عندما اضطره الانهاك ان يسكت اخيراً، لم يعد مدعاة تسلية لمعذبيه فبحثوا عنها في مكان آخر. وتطلع حوله، ولكنه لم يستطع ان يتعرف على الموقع. كان داخل مدينة لندن ـ وهذا كل ما عرفه، وسار دونما أي هدف، وبعد فترة وجيزة تناقصت البيوت وقل عابرو السبيل. وغسل قدميه النازفتين في الساقية الجارية. وارتاح دقائق معدودات، ثم واصل سيره ووصل فجأة الى فسحة عظيمة ليس فيها إلا بيوت قليلة متناثرة وكنيسة ضخمة مذهلة. كانت السقالات منصوبة حولها في كل مكان ومجموعة كبيرة

من العمـال اذ كانت تحت التـرميم المتقن المتطـور.
واطمأن قلب الامير في الحال ـ وشعر ان متاعبه ستنتهي الآن. وقال في نفسه: «انها كنيسة كري فرايرز القديمة التي اخذها والدي الملك من القسس وجعلها مأوى للاطفـال الفقراء والمتخلى عنهم، واطلق عليها اسم كنيسة المسيح ـ وسوف يفرحون بخدمة ؛ابن من تكرم عليهم.»

وصار في الحال في وسط حشد من الاولاد الذين كانـوا يركضـون ويقفـزون ويلعبـون بالكـرة و«سنبيلة السنبيلة» او يمرحون صاخبين وكانوا يلبسون ملابس متشابهة حسب الزي السائد آنذاك بين الخدم وغلمان المهن ـ اي ان كل واحد منهم كان يلبس قبعة سوداء منبطحة بحجم الصحن، ويخرج من تحتها الشعر، غير مفروق، نازلاً الى منتصف الجبهة وهو مقصوص بصورة قصيرة مستقيمة حول الرأس، مع ربطة حول العنق وثوب ازرق ضيق يصل الركبتين او تحتها واكمام كاملة وحزام احمر عريض، وجوارب صفراء مشرقة مربوطة فوق الركبة، وحذاء واطيء له ابزيم معدني واسع. انه زي قبيح للغاية.

وتوقف الاولاد عن لعبهم وتقاطروا حول الامير الذي قال بوقار:

ـ ايها الغلمان الطيبون، خبروا سيدكم ان الامير ادورد امير ويلز يرغب في الحديث اليه.

وارتفع عند ذاك هتاف عظيم وقال احد الاولاد الاجلاف:

ـ هل انت رسول سموه، ايها الشحاذ؟

وجعلت هذه النكتة. الضحك يزداد. فتماسك ادورد المسكين وقال بفخار:

ـ انا الامير نفسه. ويبدو لسوء توفيقك انت الذي تقتات على عطايا والدي الملك، انك تعاملني هذه المعاملة.

ـ ايها الحقراء، العبيد، العائشون على فضل ابيه الملك، اين هي اخلاقكم؟ اجثوا على ركبكم جميعاً وقدموا فروض التبجيل لقيافته الملكية واسماله الاميرية!

ونزلوا بمرح صاخب على ركبهم وقدموا فروض الولاء الساخر لضحيتهم. ورفس الامير اقرب صبي اليه بازدراء وقال محتدا:

ـ خذ هذه اليوم، وانتظر حتى غد، سأنصب لك مشنقة!

ولكن لم تكن هذه نكتة ـ بل تعدت حدود الفكاهة. وانقطع الضحك عند تلك النقطة وحل محله غضب شديد. وهتف عشرة منهم:

ـ سوقوه الى مخاضة الخيل! الى مخاضة الخيل! اين

الكلاب؟ تعال يا أسد ! تعال يا ذئب!

ثم حصل شيء لم تشهد له انكلتره مثيلاً من قبل ـ اذ تناولت ايدي الاجلاف شخص وارث العرش المقدس بالضرب واطلقت عليه ومزقته.

وعندما اوشك النهار ان ينتهي بحلول المساء وجد الامير نفسه بعيداً في القسم الضيق من المدينة. وقد اصيب جسمه بالكدمات والرضوض، وكانت يداه تنزفان، وتلوثت كل اسماله بالوحل. وظل يتسكع من مكان الى آخر، حتى اخذت منه الحيرة كثيراً، ونال منه التعب والوهن فلم يقوَ على رفع قدم واحدة بعد اخرى. وكف عن القاء الاسئلة لأي انسان، ماداموا لا يقابلونه إلا بالاهانة بدل اعطاء المعلومات. وظل يتمتم في نفسه: «قصر النفايات ـ هذا هو الاسم. لو انني استطيع ان اجده قبل ان تنهار قواي كلياً وأقع على الارض، عند ذلك سانجو ـ لان اهله سوف يأخذونني الى القصر ويثبتون لهم انني لست ولدهم، وانما الامير الحقيقي وسوف استعيد مكانتي الاولى مرة أخرى.» وكان فكره يرجع بين حين وآخر الى المعاملة الفظة التي تلقاها من صبيان الملجأ، وقال: عندما اكون ملكاً، لن يقدم لهم خبز ومأوى فقط بل التعليم في الكتب ايضاً، لأن البطن الممتلىء لا قيمة له اذا كان الفكر خاوياً من

الجوع وكذلك القلب. ساحفظ جيداً في ذاكرتي ذلك الدرس الذي تلقيته اليوم ولن يغيب عني. وما يقاسيه شعبي فيما يتصل بذلك، لأن التعلم يجعل القلب رقيقاً وينجب الرقة والمعروف.

وطفقت الانوار تلألأ، وشرع المطر ينزل، واخذت الريح تهب، وبدأت ليلة باردة مرعدة. وكان وارث عرش انكلترة الشريد مايزال يواصل سيره، متوغلاً في اعماق متاهات الازقة القذرة.

وامسك بغتة رجل ثمل عظيم الجثة بياقته وقال:

ـ ألهذا الوقت من الليل مرة اخرى ولم تجلب الى البيت فلساً واحداً؟ ان لم اكسر كل عظامك في جسمك الناحل هذا، فلست جون كانتي وانما شخص آخر.

وتلوى الامير برقة وقال متلهفا:

ـ هل أنت ابوه حقاً؟ حمداً لله الذي أرسل لي رحمته ـ فهل لك ان تذهب اليه لتجلبه وتخلصني مما انا فيه؟

ـ ابوه؟ انا لا ادري ماذا تقصد: انا لا اعرف شيئاً سوى اني انا ابوك، وانك سوف تعاني ـ

ـ اوه، لا تهزأ فاني لا استطيع ان احتمل اكثر من هذا. خذني الى الملك والدي، سوف يجعلك ثرياً بما لا تصل اليه احلامك الجامحة. صدقني، ايها الرجل، صدقني! ـ انا لا اكذب وانما اقول الحق! ـ مدّ يدك

وانقذني ! اني في الحقيقة امير ويلز!

وحملق الرجل في الصبي مشدوهاً ثم هز رأسه وتمتم قائلا :

ـ لقد جن الولد حقاً!

ثم مسكه من ياقته مرة اخرى وقال بضحكة جشاء وهو يسبه :

ـ سواء اكنت مجنوناً ام غير مجنون ، فانني انا وجدتك سوف نجد مكان الرقة من عظامك ، وإلا فلست رجلاً حقاً!

وبهذا صار يسحب الامير الذي راح يقاومه بشدة واهتياج واختفى في باحة بيت امامية . تتبعه حشد صاخب مبتهج من الهوام البشرية .

الفصل
(٥)

توم في منزلة النبيل

لما ترك توم كانتي وحيداً في حجرة الامير، افاد من هذه الفرصة افادة طيبة . فاستدار الى هذه الناحية ثم الى تلك امام المرآة العظيمة متملياً باعجاب ملابسه المبهرجة وحليه ، مقلداً هيئة الامير الكريم المحتد ، وهو مايزال يراقب نتائج ذلك في المرآة، ثم استل سيفه الجميل وانحنى وقبل النصل، ووضعه على صدره بالعرض، كما رأى فارساً نبيلاً يفعل تحية لضابط البرج قبل خمسة او ستة اسابيع ، عند تسليمه لوردات نورفوك وسري رهائن للسجن . ولعب توم بالخنجر المطعم بالجواهر المتدلي على جانبه، وتفحص الزينة النفيسة الرائعة الفاتنة في الحجرة، وجرب الجلوس في جميع الكراسي المترفة وفكر في مدى الفخر الذي سيشعر به حين يراه اهل قصر النفايات وهو يرفل في تلك العظمة

والجلال.

وخطر بباله بغتة بعد نصف ساعة أن الامير قد غاب مدة طويلة واخذ يشعر في الحال بالوحدة، وصار يصغي متلهفاً، وكف عن اللعب يالاشياء الجميلة التي حوله. وانتابه الاضطراب والقلق والكرب. لعل احداً سيأتي ويمسكه في ملابس الامير، والامير غير موجود ليشرح لهم الامر.

ربما سيشنقونه في الحال، ثم يتحرون في قضيته بعد؟ سمع ان العظماء صارمون في القضايا الصغيرة. وزادت مخاوفه اكثر فاكثر، وفتح البابَ المؤدي الى بهو الانتظار برفق وهو يرتجف، وقرر ان ينطلق ليبحث عن الامير ليحقق له الحماية ويطلقه. وكان ستة من الخدم الرائعين وغلامان من منزلة رفيعة في ملابس كالفراشات، قد وثبوا واقفين وانحنوا امامه. فتراجع مسرعاً واغلق الباب وقال:

ـ اوه، انهم يسخرون مني! سيذهبون ويذيعون الخبر، اوه، لماذا جئت الى هنا وضيعت حياتي؟

وراح يسير في الحجرة ذهاباً واياباً، تملؤه مخاوف لا تحصى، وهو يستمع ويجفل لدى كل نأمة تافهة. وانفتح الباب على مصراعيه بغتة وقال غلام في ملابس من حرير:

ـ ليدي جين كري.

واغلق الباب واتجهت نحوه فتاة حلوة في ثياب فاخرة. وتوقفت فجأة وقالت بصوت مفعم بالاسى:

ـ ما الذي يزعجك يا مولاي؟

كادت انفاس توم تنحبس، غير أنه بذل محاولة ليتمتم:

ـ ارحميني! اني في الحقيقة لست لورداً، بل انا توم كانتي الفقير من قصر النفايات في المدينة. ارجوان تدعيني ارى الامير وسوف يخلصني بفضله ويعيد لي اسمالي البالية. ارجوك ان ترحميني وتخلصيني!

وكان الصبي قد نزل على ركبتيه متضرعاً بعينيه رافعاً يديه متوسلاً بلسانه. وصعقت الفتاة، وصاحت:

ـ اوه، يا مولاي، على ركبتيك؟ ـ ومن اجلي ايضا!

ثم ولت هاربة، مرعوبة. واصيب توم باليأس، فجلس متمتماً:

ـ لا فائدة ولا امل. سيأتون الآن ويأخذونني.

وبينما كان مستلقياً وقد خدّره الرعب، انتشرت انباء مرعبة في القصر كله. وسرت الهمسات من خادم الى خادم ومن سيد الى سيدة خلال جميع الممرات، ومن طابق الى طابق ومن بهو الى بهو «اصيب الامير بالجنون! اصيب الامير بالجنون!» وسرعان ما غص كل بهو وكل قاعة مرمرية باللوردات والسيدات المتألقين يتحدثون معاً جادين في همس، وقد علا الفزع كل الوجوه. وجاء

في الحـــال موظف أنيق يسيـــر سيراً عسكـريـاً الى هذه المجموعات وادلى ببيان وقور:

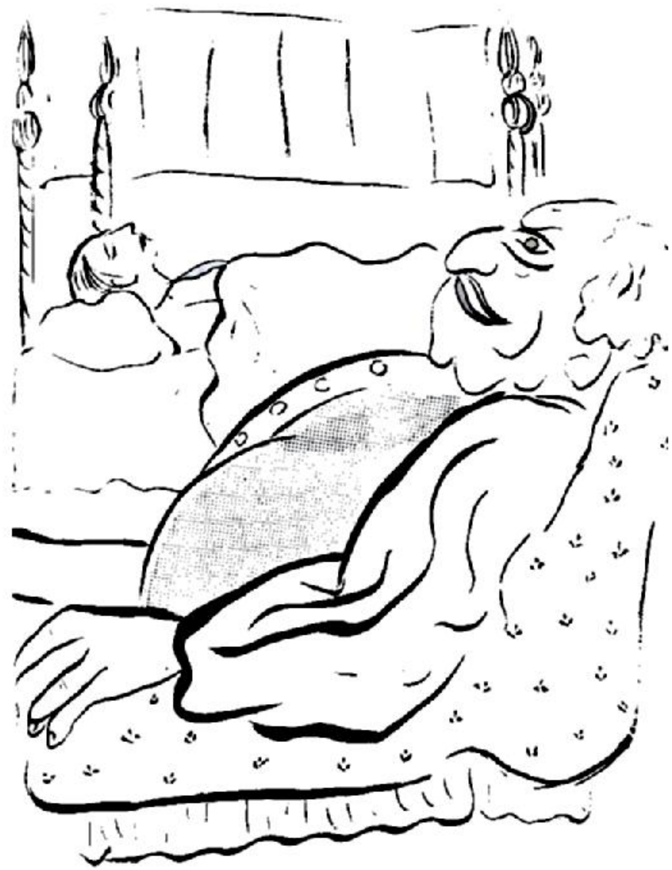
ـ باسم الملك. لا يصغينّ احد الى هذه المسألة الكاذبة الحمقـاء والاعقـوبـة ذلك الموت، ولا يناقش احد ذلك ولا ينقله الى خارج القصر. باسم الملك!

انقطع الهمس فجأة كأن الهامسين اصيبوا بالخرس.

وسـرعـان ما سرى ازيز في الممرات يقول: «الامير! انظـر، جاء الامير! جاء توم المسكين يسير الهوينى ماراً بالمجمـوعـات المنحنية له، وقد حاول ان يرد الانحناء وينظـر بوداعـة في ما حوله، مذهولاً بشكل يثير الشفقة. وسـار نبـلاء اكـابر على جانبيه متكئاً عليهم لكي تستقيم خطواته. وجاء بعده اطباء البلاط وبعض الخدم.

ووجـد توم نفســه فجأة في حجرة من حجرات القصر الفخمة وسمع الباب يغلق خلفه ووقف حوله من جاء معه.

وكـان امامـه وعلى بعـد قليل، رجل ضخم جداً وبدين جداً، عريض الـوجـه ممتلئــه، متجهم القسمــات. مستلقياً على سريـره. وكان رأسه الضخم شديد الشيب ويـدور شاربـاه حول وجهـه كالاطار وكانا اشيبين ايضا. وكانت ملابسه من قماش نفيس غير انه قديم محكوك في



بعض المواضع . ووضعت تحت احدى ساقيه المتورمتين وسادة، وكانت ملفوفة بالضمادات . هذا المريض العاجز ذو الملامح المتجهمة هو هنري الثامن الرهيب. وقال ـ وقد بدأت اساريره بالتفتح عندما اخذ يتحدث :

ـ كيف حالك الآن يا لورد ادورد، يا اميري؟ هل نويت ان تخدعني، انا الملك الطيب والدك، بنكتة مؤسفة؟

كان توم المسكين مصغياً بكل ما وسعته قدراته المبهورة الى بدء كلامه، ولكن عندما بلغت اذنه الكلمات «انا الملك الطيب» شحب وجهه وجثا في الحال على ركبتيه. ورفع يديه واعلن قائلا :

ـ انت الملك؟ اذن اصابتني الكارثة حقا!

ويبدو ان الملك صعق بكلامه. وجالت عيناه بلا هدف من وجه الى وجه، ثم استقرتا، بذهول، على الصبي الذي امامه. ثم قال بنبرة من الخيبة العميقة :

ـ واحسترتاه! اني اصدق الاشاعة التي لا تناسب الحقيقة. ولكن ارجو ألاّ تكو ن كذلك.

واطلق حسرة كبيرة وقال بصوت رقيق :

ـ تعال الى ابيك يا ولدي : انت لست على مايرام.

وأعانوا توم ليقف على قدميه، وتقدم الى جلالة الملك ذليلاً مرتجفاً واخذ الملك الوجه المرتعب بين يديه

وحملق فيه برهة. بجد ومحبة، كأنه يبحث عن علامة تعبر عن عودة العقل اليه، ثم ضم الرأس بشعره المعقوص الى صدره، وربت عليه بحنان وقال :

ـ هل تعرف اباك ايها الصغير؟ لا تكسر قلبي العجوز، قل انك تعرفني. انت تعرفني، أليس كذلك؟

ـ اجل، انت مولاي الملك العظيم، حفظه الله!

ـ حقاً، حقاً، هذا حسن ـ كن مرتاحاً ـ ولا ترتجف هكذا، لا يوجد هنا من يؤذيك، لا يوجد هنا إلا من يحبك. انت الآن افضل لقد ولى حلمك المخيف ـ أليس كذلك؟ وانت تعرف نفسك الآن ايضاً ـ أليس كذلك؟

ـ اني ابتهل الى عفوك ان تصدقني. انا لم اقل إلا الحقيقة يا مولاي العظيم، انني فقير المولد، وقد جئت الى هنا بمصادفة محض وان لم يكن يقع عليّ لوم من ذلك. انني صغير لم يحن موتي بعد. وتستطيع انت بكلمة واحدة ان تنقذني، فقلها
يا سيدي!

ـ تموت ؟ لا تتحدث هكذا ايها الامير الجميل ـ انت لن تموت وخرّ توم على ركبتيه وصاح صيحة فرحة :

ـ كافأك الله عن رحمتك، يا مليكي، وابقاك ذخراً لتبارك وطنك.

ثم قفز واقفاً والتفت بوجه مبتهج الى اللوردين الواقفين في خدمته وهتف قائلاً:

هل سمعتما قوله، إنني لن أموت الملك قال ذلك!

ولم يتحرك أحد سوى أنهم أنحنوا انحناءة احترام وتبجيل، ولكن لم يتكلم أحد وتلكأ مضطرباً قليلاً ثم التفت وجلاً الى الملك وقال:

هل يمكن أن أذهب الآن؟

- تذهب؟ بالتأكيد، إذا شئت ذلك ولكن لم لا تمكث قليلاً؟ أين ستذهب؟

واطرق توم واجاب متذللاً:

- لعلي اخطأت وظننت انني حرّ وسأذهب للبحث عن المأوى الذي ولدت فيه ونشأت في بؤسه، واليه تأوى امي واختاي، فهولذلك بيتي، وانني لست معتاداً على هذه الابهة والعظمة - ارجوك يا سيدي ان تدعني اذهب!

وكان الملك صامتاً يفكر برهة وغشي وجهه حزن متزايد وقلق.

ثم قال فجأة بشيء من الامل في صوته:

- لعل الجنون اصابه في هذه النقطة فقط، وظل ذكاؤه سليماً لم يمسه شيء في مواطن اخرى. وان شاء الله يكون الامر كذلك! سوف نختبره.

ثم سأل توم سؤالاً باللاتينية، واجابه توم متعثراً في



اللغــة نفسهــا . وســر الملك وبــان عليـه ذلـك واظهـر اللوردات والاطباء مسرتهم ايضاً . وقال الملك :

ـ كان ذلك بحسب تعليمه وقابليته ، غير انه يبدو أنّ عقله قد اصــابــه المـرض ، ولكن الصـدمـة ليست مميتـة مارأيك ، ياسيدي؟

فانحنى الطبيب المخاطب واجاب :

ـ ان قناعتي راسخة يا مولاي انكم اصبتم كبد الحقيقة .

وبـدأ الملك مسروراً بهذا الرأي المشجع فواصل كلامه بقلب مفعم بالطيبة :

ـ والآن انتبهوا جميعاً : سنحاول معه محاولة اخرى .

وسأل توم بالفـرنسيـة . وظـل توم صامتاً لحظة وقد اربكته العيون الكثيرة المسلطة عليه ثم قال بحياء :

ـ ليس لي معرفة بهذا اللسـان ، ياصاحب الجلالة .

وتهـاوى الملك على وسـادتـه التي خلف ظهره . واسرع القائمون بخدمته الى مساعدته ، غير انه نحّاهم عنه قائلا :

ـ لا تزعجوني ـ انه دور تافه . انهضوني ! كفى . تعال ايها الصغير . ضع رأسك المضطرب على قلب ابيك ، وكن هادئاً سوف تتحسن في الحال ، ليس هذا إلا نزوة عابرة لا تخف سوف تتحسن سريعاً .

ثم التفت الى الجمـاعة وتغير اسلوبه الرقيق ، واخذ شرر

متطاير ينطلق من عينيه . وقال :

ـ اسمعوا جميعاً ! ابني هذا مجنون ، غير ان جنونه ليس دائماً .

الافـراط في الـدرس جعله كذلك ، وكونه حبيس حجرته ايضـا . فابعـدوا عنـد كتبـه ومعلميـه ، وانتبهـوا لذلـك . عليكم تسليتـه بالالعـاب وتلهيته بطرائق مأمونة . . نافعة لكي تعود اليه صحته مرة اخرى .

ورفع نفسه الى اعلى قليلاً ثم واصل قوله بشيء من الجهد :

ـ انـه مجنـون ، ولكنه ولدي ، وارث انكلترة ، وسواء أكان مجنـونـاً ام عاقـلاً فانـه سيحكم البـلاد ! واسمعـوا هذا واعلنـوه : ان من يتحـدث عن هذا فانـه اخـلال بالنظـام والامن في هذه المملكة ، وسوف يكون مصيره الشنق . . . اعطـني شيئــاً اشــرب ـ اني احتــرق : هذا الهمّ يوهن قواي . . هاك خذ الكـاس . . . اسنـدوني . هذا حسن . مجنون ، أليس كذلك؟ ليكن مجنوناً الف مرة ، ومع ذلك فهو امير ويلز وانا الملك اصادق على ذلك . سيعين هذا الصبـاح في منصب الامير بالشكـل المناسب وبحسب التقاليد القديمة . هذا امر فوري ايها اللورد هيرتفورد .

وجثا احد اللوردات قرب سرير الملك وقال :

ـ يعلم جلالـة الملك ان وارث عرش انكلترة مايزال يرقد

مجـرد؟ من حقـوقـه المـدنيـة في البـرج. وان وجود هذا المحتجـز يتعـارض ـ هدوء! لا تخـدش سمعي باسمه الكـريـه. هل سيبقى هذا الرجل عائشاً الى الابد؟ وهل ستبقى ارادتي عاجـزة؟ وهـل سيبقى الامير من دون ان يقلد منصب الأمـارة، لأن المملكـة تخلو من اميـر لا تشـوبـه شائبة الخيانة لكي نقلده منصباً يليق به. لا وعزة الله وجـلالـه، بلغـوا البـرلمان ان يجلب لي قرار الحكم بموت نورفوك قبل شروق الشمس وإلا سيتحملون ثمناً باهظاً!

فقال لورد هيرتفورد:

ـ ارادة الملك قانون.

ثم نهض عائداً الى مكانه الاول.

وزال الغضب تدريجاً من وجه الملك العجوز، وقال:

ـ قبلني يا اميري. ها.. ماذا يخيفك؟ ألست اباك المحب؟

ـ لطفـك هذا مالا استحقـه، ايهـا العـاهـل العظيم المبجـل: اني اعـرف ذلك. ولكن ـ لكن ما يحزنني هو فكرة موته وــ

ـ هذا انت، اجل، هذا انت! اعرف ان قلبك مايزال على عهـده، مع ان عقـلك اصيـب بالاذى، لأنـك كنت دائماً. ذا روح رقيقة ولكن هذا الدوق الذي يقف بينك

وبين منصبك. سوف أصنع آخر بدله: فكن مرتاحاً، يا اميري، ولا تقلق فكرك بهذا الأمر.

ـ ألست انـا الـذي يسـرع في نهـايته، يا مولاي؟ انه لن يعيش بسببي.

ـ لا تفكر به يا اميري: لا يستحق ذلك. قبلني مرة اخرى واذهب الى لعبك وتسليتك، لان مرضي يضايقني. اني متعب واريـد ان ارتـاح. اذهب مع خالـك هيـرفـورد وجماعتك وعد الي عندما يرتاح جسمي.

واقتيد توم محزوناً من حضرة الملك وازداد انقباض روحه كلمـا سار بين صفين من رجـال الحـاشية المتألقين وهم ينحنـون له، لأنـه ادرك انـه اصبح الآن اسيراً في حقيقة الامـر، ولعله يبقى الى الابـد اميـراً حبيسـاً في قفصـه الـذهبي، بائسـاً، وحيداً بلا اصدقاء، إلا اذا نزلت عليه رحمة من الله واطلقت سراحه.

واينما ولى وجهه، رأى في الهواء رأساً مفصولاً عائماً في الهـواء، وتـذكـر وجـه دوق نورفـوك العظيم، وعينـاه مركزتان عليه، تلومانه.

كانت احلامه لطيفة جداً، غير ان واقعه كان كئيباً!

الفصل
(٦)

توم يتلقى التعليمات

اقتيد توم الى شقة ذات اثاث نفيس واجلس فيها - وكان مكرهاً على ذلك. بسبب وجود رجال مسنين ورجال في مناصب عليا محيطين به. وطلب اليهم ان يجلسوا ايضاً غير انهم انحنوا له شاكرين وظلوا واقفين. والح عليهم لكن خاله الايرل هيرتفورد همس في اذنه:

- ارجوك، لا تلحّ عليهم، ياسيدي؛ لا يليق بهم ان يجلسوا في حضرتك.

واعلن عن وصول لورد سينت جون، وانحنى لتوم ثم قال:

- جئت بتكليف من الملك بخصوص مسألة تتطلب عزلة. هل يتفضل سموكم بصرف جميع الحاضرين هاهنا، عدا سيدي ايرل هيرتفورد؟

لاحظ هيرتفورد ان توم لم يبدُ عليه انه يعرف كيف

يتصرف همس له ان يشير بيده وألاّ يكلف نفسه بالكلام إلا اذا رغب هو في ذلك. وعندما خرج الرجال القائمون بخدمته، قال لورد سينت جون:

ـ يأمر صاحب الجلالة، لاسباب قانونية وجيهة تتعلق بالدولة. ان يخفي صاحب السمو الامير مرضه بكل طريقة ضمن مستطاعه، حتى زواله ويعود الى سابق عهده، وعليه ان لا ينكر لأي كان انه هو الامير الحقيقي ووارث مجد انكلتره، وأن يرفع عالياً لقب الامارة الرفيع ومنصبه، وان يتقبل دونما كلمة احتجاج او اية اشارة تدل عليها، ذلك التبجيل والتقاليد المتعلقة به، وان يكف عن الحديث مع اي انسان عن مولده وحياته الوضيعة التي جلبها مرضه من خيالاته غير الصحية نتيجة التصورات التي اجهدت فكره، وان يسعى جاهداً استرجاع تلك الوجوه التي اعتاد عليها الى ذاكرته مرة اخرى- واذا خاب في ذلك عليه ان يلزم الصمت، وألاّ يكشف عن أدنى دهشة، او أي اثر، يدل على انه قد نسي شيئا.

وفي المناسبات الرسمية اذا حار في مايجب ان يفعل او يقول، فعليه ان ألاّ يبدي شيئاً من ارتباكه بل يسأل، بخصوص ذلك، لورد هيرتفورد او شخصي المتواضع، اللذين امر الملك ان يكونا في رسم تلك الخدمة ملبين

في الحال طلبه، من اجل حل الاشكال، هكذا يقول صاحب الجلالة الملك، الذي يبعث بتحياته الى سموكم الملكي ويبتهل الى الله ان يعجل بشفائكم ويحفظكم دائماً وابداً في رعايته المقدسة.

ثم انحنى لورد سينت جون انحناءة التبجيل وتنحى جانباً. واجاب توم مذعناً:

ـ قال الملك وسيطاع الملك.

فقال لورد هيرتفورد:

ـ وفيما يتعلق بامر جلالة الملك بخصوص الكتب وماشابه ذلك من الامور الجادة، يرجى من سموكم ان تتركوها جانباً والاتجاه الى التسلية الخفيفة لئلا يرهقكم ذلك ويصيبكم بالاذى عند ذهابكم الى المأدبة..

وبانت الدهشة على وجه توم، الذي تورد بعد ذلك عندما راى عيني لورد سينت جون تطرفان اليه اسفاً وهو يقول:

ـ مازالت ذاكرتكم تخونكم وقد ابديتم الدهشة ـ ولكن لا تهتم لذلك لأنها ستزول بزوال المرض. ويقول سيدي اللورد هيرتفورد انكم ستحضرون مأدبة المدينة التي وعد بها جلالة الملك قبل شهرين.

أتتذكرون ذلك الآن؟

يؤلمني ان اعترف انها غائبة عن بالي.

قال توم ذلك متلعثماً وتورد وجهه مرة اخرى .
واعلن في تلك اللحظة عن وصول الليدي اليزابيث والليدي جين كري .
وتبادل اللوردات نظرات ذات مغزى، وتقدم هيرتفورد مسرعاً الى الباب .
وقال بصوت خافت عندما مرت به الفتاتان :
ـ أرجو سيدتيّ ان تتظاهرا بعدم ملاحظة وضعه الغريب وألاّ تبديا دهشة عندما تخونه ذاكرته ـ ومما يؤسفكما ان تلاحظا ان ذاكرته تتركز في كل شيء تافه .
وكان لورد سينت جون يهمس في اذن توم :
ـ ارجوك سيدي ان تحتفظ جاداً برغبة جلالته في فكرك . تذكر كل ما تستطيع تذكره ـ وتظاهر انك تتذكر كل شيء آخر. لا تدعهما تلاحظان أنك تغيرت كثيراً عما اعتدت عليه، لأنك تعرف مدى الرقة التي تحملك بها ترباك في قلبيهما ومدى الالم الذي سيصيبهما . هل ترغب ياسيدي ببقائي؟ ـ وخالك أيضا؟
واشار توم بالموافقة بأيماءة وتمتمة، لأنه تلقى بذلك ارشاداً في التو، وقرر في صميم قلبه البسيط ان يبلي بلاءاً حسناً في تصرفه بحسب امر الملك .
وبالرغم من جميع التنبيهات، كان الحديث بين اولئك الصغار يعتوره شيء من الارتباك احياناً . كاد توم،

اكثر من مرة في حقيقة الامر، ان ينهار ويعترف بانه لم يكن كفوءاً لدوره الضخم، غير ان براعة الأميرة اليزابيث انقذته، وكان لكلمة من احد اللوردين المحترسين، يلقيها كأنها مصادفة، اثرها السار ايضاً . والتفتت ليدي جين الصغيرة، مرة اخرى، وافزعته بهذا السؤال :
ـ هل اديت واجبك نحو جلالة الملكة الوالدة هذا اليوم، ياسيدي؟
تلكأ توم وبدا في محنة، واوشك ان يتفوه بشيء عفو الخاطر عندما اخذ لورد سينت جون المبادرة واجاب عنه بطلاقة احد رجال الحاشية المعتاد على مجابهة المصاعب الدقيقة والتأهب لها :
ـ نعم، يا مولاتي وشددت من عزمه كثيراً، بناء على امر جلالته، أليس كذلك ياصاحب السمو؟
وتمتم توم بشيء ينم عن الموافقة غير انه شعر انه يقف على ارض خطرة . ثم ذكر بعد ذلك ان توم لن يدرس شيئاً فدهشت سيادتها آسفة على ذلك وقالت :
ـ يا للاسف، ! كنت تتقدم بصورة عظيمة ولكن انتظر الفرصة الملائمة بشيء من الصبر. ولن يطول ذلك . وسوف تنعم بالعلم مثل ابيك وستجعل لسانك يجيد كثيراً من اللغات مثله، يا اميري الطيب .
وصرخ توم وقد غفل عن حذره لحظة وقال :

ـ ابي ! احسب انـه لا يسعـه اجادة حتى لغته ، ولا يمكن لاحد ان يعرف معنى كلامه الا الخنزير الذي يتمرغ في زريبته ؛ اما عن العلم مهما كان نوعه ـ

ورفـع نظـره فواجـه تحـذيراً وقوراً في عيني اللورد سينت جون. وتوقف وتورد وجهه ، ثم واصل كلامه ، خافتاً، حزيناً :

ـ لقد عاد مرضي يضايقني مرة اخرى وصار فكري تائهاً. واني لا اقصد جلالة الملك اي شيء ينم عن عدم التوقير.

فقالت الاميرة اليزابيث وهي تأخذ يد «اخيها» بين راحتيها :

ـ نعـرف ذلـك ، ياسيدي ، ولا تقلق نفسك بذلك. ليس الخطأ خطأك بل لاعتلال مزاجك .

فقال توم شاكراً .

ـ مواسـاتـك رقيقـة ياسيدتي الحلوة ، ويحثني قلبي على تقديم شكري لك وسار الزمن بهيجاً وسلساً ايضاً ، على العمـوم ، واصبح توم اكثـر اطمئنـانـاً ، عنـدمـا رأى ان الجميـع كانـوا عاطفين على مسـاعدته وتجاوز اخطائه .

وعنـدمـا اعلن ان الآنستين الصغيـرتين ستصحبـانه الى مأدبـة السيـد عمدة المدينة في المسـاء خفق قلبه بالراحة والفـرح لأنـه شعر انه لن يكون بلا اصدقاء بين حشد من

الغـربـاء ، في الـوقت الـذي كان قبل ساعـة يعـدّ ان فكرة ذهابهما معه مسألة مرعبة لا تطاق .

وعنـدمـا اوشكت زيـارة الفتاتين على الانتهاء ، خيم صمت قصيـر ، يشبـه صمت الانتظـار لم يستطـع توم ان يفهمه . ونظر الى لورد هيرتفورد الذي اشار اليه ـ غير انه لم يستطع فهمها ايضا . وكانت اليزابيث حاضرة في انقاذ الموقف بلطفها المعتاد . وانحنت قائلة :

ـ هل لنا ان نغادر ياسموّ اخي الامير؟

فقال توم :

ـ تستطيعـان يا صاحبتي النبـل ان تأخذا مني ماتشاءان ؛ واني لأود ان اقدم لهما شيئاً آخر يستقر وجوده في طاقتي المتـواضعة غير السؤال عن المغادرة واعيده لهما إلا وهو النور والبركة التي حلت هاهنا منذ وجودهما!

ثم ابـتسم في دخيلتـه وهـو يفكـر: لم يكن عبثـاً معايشتي الامراء في قراءتي ، ودربت لساني على البديع الرقيق من كلامهم الموشّى والمهذب ايضا .

وعنـدمـا ذهبت الآنستـان الـلامعتـان ، التفت توم الى القيمين عليه وقال :

ـ هل لسيادتكم ان تمنحوني فرصة في الذهاب الى ركن يمكن اخلد فيه!

فقال لورد هيرتفورد :

- تفضل يا صاحب السمو، لك الامر وعلينا الطاعة ان راحتك شيء ضروري حقاً. مادمت ستسافر الى المدينة بعد قليل.

ولمس جرساً فظهر غلام وجه له امراً بطلب حضور سير وليم هيربرت. وجاء هذا الرجل في الحال وقاد توم الى حجرة داخلية وكانت اول حركة قام بها توم هناك هي الوصول الى قدح من ماء، ولكن خادماً في ثياب من حرير ومخمل تناوله، وجثا على ركبة واحدة، وقدمه اليه على طبق ذهبي.

ثم جلس الاسير المتعب واراد ان يخلع حذاءه وطلب السماح وجلاً بعينيه، ولكن خادماً آخر في حرير ومخمل جثا على ركبتيه وخلع حذاءه بعد محاولتين او ثلاث في مساعدة نفسه، ولكنه بعد فشله في كل مرة كف اخيراً عن المحاولة وهو يطلق حسرة استسلام وتمتم: عليّ اللعنة، انه لا يتطلب مني ان اتنفس ايضا!» ثم ألبس خفاً ولف برداء مترف، واستلقى لكي يرتاح لا لينام، لأن راسه كان مليئاً بالافكار وكانت الحجرة مليئة بالناس. ولم يستطع ان يصرف الاولين فمكثوا، ولم يعرف كيف يصرف الاخرين فمكثوا ايضاً لأسفه، وأسفهم الشديد.

وتُرك الوصيان النبيلان المكلفان بحمايته وحدهما بعد مغادرة توم.

واستغرقا برهة من الزمن وهما يهزان رأسيهما ويذرعان ارض الحجرة في مشيهما، ثم قال لورد سينت جون:

- مارأيك بصراحة؟

- رأيي بصراحة هو هذا: الملك يقترب من نهايته وابن اختي مجنون، مجنون سيعتلي العرش، ويظل مجنوناً. ليكن الله الله في حمى انكلترة، مادامت بحاجة اليه.

- يقيناً ان الامر كذلك، في الحقيقة. ولكن... ألست تساورك الظنون بخصوص... بخصوص..

وتلكأ المتكلم، ثم توقف اخيرا. اذ انه كما يبدو واضحاً انه يقف على ارض رخوة. ووقف لورد هيرتفورد امامه ونظر في وجهه نظرة واضحة صريحة وقال:

- افصح عما لديك - فلا يسمعك احد سواي.. الظنون بخصوص اي شيء.؟

- اني كاره شديد الكره ان اعبر عما يجول في ذهني وانت قريب الصلة في الرحم والدم اليه ياسيدي اللورد. ولكني ارجو العفو اذا أسأت، اذ لا يبدو غريباً ان الجنون يمكن ان يغير سلوكه وطريقة مشيه وقعوده!

ان هيئته وكلامه مازالا اميريّين، غير انهما يختلفان في شأن قليل الاهمية عما اعتاد عليه قبلاً. أَولا يبدو غريباً ان الجنون يستلب من ذاكرته قسمات وجه ابيه؛ والتقاليد والنظام السائد حوله؛ ولا يترك له الا اللاتينية

ويجـرده من اليـونـانيـة والفرنسية؟ تراودني فكرة انه ليس الامير، ولذلك .

ـ كف عن الكلام، ياسيدي اللورد. انك تنطق بالخيانة! هل نسيت امـر الملك؟ وتذكر اني شريكك في الجريمة اذا اصغيت اليك.

وشحب سينت جون واسرع بالقول:

ـ اني مخطيء، واعترف بذلك. فلا تفضح امري وهبني رحمـة من فضلك، ولن اعـاود التفكيـر في ذلـك اوذكره مطلقاً. لا تكن قاسياً معي ياسيدي والا اصابني الدمار.

ـ اني مقتنع ايها اللورد. فلا تعد للاساءة مرة اخرى، هنا اوعلى مسمع من الآخـرين، وليكن الامر كأنك لم تقل شيئـاً. ولا تراودك الظنـون فانـه ابن أختي أليس صوته ووجهـه وشكله مألوفة لدي منذ ان كان في مهده؟ يمكن للجنون ان يفعل كل الامور المتناقضة الغريبة التي تراها فيـه، بل اكثـر من ذلك. انه الامير نفسه، انا اعرفه جيداً وسرعان ماسيكون مليكك. وقد يكون في مصلحتك ان تحمل هذا في فكرك وتعول عليه اكثر من الشيء الآخر.

وبعـد حديث طويـل خفف اللورد هيـرتفـورد عن زميله وصـرفـه، ثم جلس وحـده خافـراً. وسرعان ما انغمر في تأمـلاتـه. وكلمـا تعمق في التفكيـر، ازداد قلقـه، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً وهو يتمتم.

ـ لابـد انـه الاميـر! هل يمكن ان يكون في الارض كلها اثنان، ليسا من دم واحد ومولد واحد، متشابهين الى هذا الحـد؟ وحتى لو كان الامـر كذلك، فانها لمعجزة غريبة حقـاً ان يقـذف القـدر واحـداً في محل الآخر. كلا، انها حماقة.، حماقة، حماقة!

ثم قال فوراً:

ـ والآن اذا كان هو دعيـاً محتـالاً ودعـا نفسـه اميـراً، فإن ذلـك يبـدو طبيعيـاً، ومعقـولاً، ولكن هل ثمة من محتال دعي يـسميـه الملك اميـراً، ويطلق عليـه البـلاط اميراً، وجميـع الناس اميراً، وينكر سموه مكانته، ويدافع مبرراً مجده؟ لا والله لا يكون ذلك ابداً! انه الامير الحقيقي، اصابه الجنون!

يتصرف همس له ان يشير بيده وألاّ يكلف نفسه بالكلام إلا اذا رغب هو في ذلك. وعندما خرج الرجال القائمون بخدمته، قال لورد سينت جون:

ـ يأمر صاحب الجلالة، لاسباب قانونية وجيهة تتعلق بالدولة، ان يخفي صاحب السمو الامير مرضه بكل طريقة ضمن مستطاعه، حتى زواله ويعود الى سابق عهده، وعليه ان لا ينكر لأي كان انه هو الامير الحقيقي ووارث مجد انكلتره، وأن يرفع عالياً لقب الامارة الرفيع ومنصبه، وان يتقبل دونما كلمة احتجاج او اية اشارة تدل عليها، ذلك التبجيل والتقاليد المتعلقة به، وان يكف عن الحديث مع اي انسان عن مولده وحياته الوضيعة التي جلبها مرضه من خيالاته غير الصحية نتيجة التصورات التي اجهدت فكره، وان يسعى جاهدا استرجاع تلك الوجوه التي اعتاد عليها الى ذاكرته مرة اخرى. واذا خاب في ذلك عليه ان يلزم الصمت، وألاّ يكشف عن أدنى دهشة، او أي اثر، يدل على انه قد نسي شيئا.

وفي المناسبات الرسمية اذا حار في مايجب ان يفعل او يقول، فعليه ان ألاّ يبدي شيئاً من ارتباكه بل يسأل بخصوص ذلك، لورد هيرتفورد او شخصي المتواضع اللذين امر الملك ان يكونا في رسم تلك الخدمة منذ

الفصل
(٧)

غداء توم الملكي الاول

خضع توم بعد الساعة الواحدة ظهراً بشيء قليل الى محنة تبديل الملابس من أجل الغداء. ووجد نفسه رافلاً في ملابس بديعة كالسابق، غير ان كل شيء مختلف هذه المرة، من طوق الرقبة المكشكش حتى الجوارب. واقتيد في الحال بشيء كثير من الرسميات الى حجرة فسيحة مزخرفة، اعدت فيها مائدة لشخص واحد. وكانت الاثاث من النوع الذهبي الضخم، مزينة بتصاميم جعلتها لا تقدر بثمن اذ هي من صنع الفنان الشهير بينڤينوتو. وكان خدم ممتازون يملؤون نصف الحجرة. وتلا قسيس صلاة المائدة واوشك توم ان يبدأ بسبب الجوع، غير ان اللورد ايرل بيركيلي تدخل وشد منديل طعام حول رقبته، لأن وظيفة حفظات ومناشف امراء ويلز كانت وراثية في عائلة هذا الرجل النبيل. وكان

ساقي توم حاضراً محتاطاً لكل محاولات الامير في تناول الشـراب. وكان حاضراً ايضاً ذائق طعام سمو امير ويلز، متأهباً لتـذوق أي طعام يشك فيه عند الطلب، ويخاطر بالتسمم. وكان حاضراً لورد دارسي المسؤول الاول عن نظافة الغرفة، ولا يعرف ماهو عمله إلا الله؛ ولكن كان موجودا

بل هذا يكفي. وكـان اللورد كبيـر الخـدم حاضـراً وواقفاً وراء كرسـي توم، يشـرف على الـمـراسـم الـتي تتسم بالابهة، تحت إمرة القهرمان العظيم المسؤول عن تدبير امـور القصـر، واللورد رئيس الطبـاخين الـذي وقف الى جانبه. كان لدى توم ثلاثمئة واربعة وثمانين خادماً فضلاً عن هؤلاء الحـاضـرين، غيـر انهم لم يكـونوا جميعاً في هذه الحجرة طبعاً، ولا ربعهم ولم يكن توم يعرف حتى بوجودهم.

وقد احيط جميع الحاضرين علماً خلال ساعة اعداد الطعـام وان يتـذكـروا ان الامير قد فقد ذاكرته موقتاً، وان يكـونـوا حذرين في عدم إبـداء أي شيء من الدهشة في تقلبـاتـه السلوكيـة. وسـرعـان ماظهرت هذه «التقلبات» امامهم، غير انهم لم تتحرك إلا عواطفهم واسفهم وليس فرحهم. كان ذلـك امـراً محـزنـاً لهم ان يروا اميرهم المحبوب في مثل هذا المصاب.

تنـاول توم المسكين الطعـام باصـابعـه، ولكن لـم يبتسم احـد لذلـك، او حتى يبـدو انـه لاحـظ ذلك. وتفحص المنديل على صدره بفضول واهتمام شديد لأنه كان من نسيج رائع وجميل، ثم قال ببساطة:

ـ ارجو ان ترفعوه لئلا يتسخ نتيجة غفلتي.

ورفعه مسؤول المناشف بطريقة مبجلة دونما اعتراض او ابداء أي كلمة مهما كانت.

وتـفحص توم اللفت والخس باهتمـام وسأل ماهمـا وهل في الامكان اكلهما، لأن زراعتهما كانت حديثة في انكلترة بدلاً من استيرادهما من هولندا كمظهر من مظاهر التـرف. واجيب على سؤالـه باحترام ووقار، ولم يظهروا شيئاً من الدهشة. وعندما اتم تناول الحلويات والفواكه، ملأ جيـوبـه بالجـوز، ولكن لم يُبـدِ أي احـد اهتمامه او انتباهه الى ذلك. او حتى قلقه، ولكن بعد لحظة واحدة ظهـر على توم القلق والاضطـراب، لانهـا كانت الخدمة الـوحيـدة التي سمح له بادائها بيديه في اثناء تناوله وجبة الطعـام، ولم يشـك ابـداً انـه اقترف امراً منافياً للاصول ويتعارض مع سلوك الامراء. وعند ذلك اخذت عضلات انفـه بالارتعـاش وصـارت ارنبته ترتفع وتنقبض. واستمر ذلك، وظهـر توم في محنـة، وبـدا متضـرعـاً الى احـد اللوردات الـذين حولـه اولاً ثم الى آخر، وجالت الدموع

في عينيه ووثبوا نحوه والفزع على وجوههم، وسألوه عما يقلقه. فقال توم في الم حقيقي:

ـ التمس عفوكم: انفي يحكني بشدة. ما العادة والتقليد في مثل هذه الحالة الطارئة؟ ارجوكم، تعجلوا لأنني لا استطيع احتمال ذلك طويلاً.

ولم يبتسم احد ولكنهم ارتبكوا جميعاً... ونظر الواحد منهم في وجه الآخر، وهم في محنة عميقة، طلباً للمشورة. ولكن جداراً اهم انتصب امامهم، اذ لم يكن في تاريخ انكلترة كله ما ينجدهم.

للتغلب على ذلك. ولم يكن رئيس الاحتفالات حاضراً: ولم يشعر احد بالامان في خوض غمار هذا البحر المجهول، او يغامر في محاولة كل هذه المعضلة الخطيرة. وا أسفاه! لم يكن ثمة مسؤول عن الحك.

وفاضت الدموع عن حدها واخذت تسيل على خدي توم. وكان انفه المرتعش يتضرع طلباً للراحة اكثر من ذي قبل. ولكن الله حطم حواجز قواعد الادب، فرفع توم في دخيلته ابتهالاً وتضرعاً من أجل الغفران ان كان اخطأ في تصرفه، فنزلت الطمأنينة على قلوب حاشية البلاط المثقلة بالهم، وراح توم يحك انفه بنفسه.

وعندما انتهى من وجبة الطعام، تقدم لورد حاملاً امامه اناءاً ذهبياً واسعاً ضحلاً، فيه ماء مضمخ برائحة

الورد، لكي يطهر فمه واصابعه به، ووقف اللورد المسؤول عن المناشف يحمل منديلاً له. حدق توم بالإناء في حيرة لحظة او لحظتين، ثم رفعه الى شفتيه، وارتشف منه رشفة ثم اعاده الى اللورد الواقف في خدمته، وقال:

ـ لا، انه لا يعجبني ياسيدي اللورد. له نكهة طيبة، غير انه بحاجة الى قوة.

جعل هذا الانحراف الجديد في عقل الامير المريض كل القلوب واجفة بالألم، ولم يدفع المنظر المحزن احداً الى الضحك.

وكانت الخطوة التالية التي خطاها توم بلا وعي منه هي نهوضه ومغادرته المائدة عندما تقدم القس للوقوف خلف كرسيه رافعاً يديه مغمضاً عينيه المرفوعتين الى الاعلى، يبدأ تلاوة الدعاء. ولم يبدُ على احد انه لاحظ الامير يقوم بعمل غير معتاد.

واقتيد صديقنا الصغير بطلب منه الى شقته الخاصة وترك هناك وحيداً ليخلو الى رغباته الخاصة به. وكانت مجموعة قطع درع فولاذية لامعة، تزينها رسوم جميلة مطعمة بالذهب، معلقة على مشاجب في خشب السنديان الفاخر الذي يكسو الجدران. كان هذا الدرع من مقتنيات الامير الحقيقي، اهدته حديثاً له جلالة

الملكة الأم. ولبس توم درعي الساقين، والقفازين، والخوذة ذات الريش، وكل قطعة استطاع أن يلبسها من دون مساعدة، وأراد ان يطلب العون لاكمال الامر ولكن ذلك ذكره بالجوز الذي جلبه من غدائه وباللذة في اكله دونما عين من الجمهور ترقبه ولا احد من الكبار يضايقه بخدمات لا يرغب فيها، فاعاد الاشياء الجميلة الى اماكنها، وبدأ بتكسير الجوز، وصار ينعم بسعادة حقيقية لاول مرة جعله الله اميراً بذنوبه. وعندما انتهى من جميع الجوز، عثر على كتب مغرية في خزانة بينها واحد يخص اداب السلوك في البلاط الانكليزي. انها مكافأة له. فاستلقى على ديوان وثير واخذ يوجه نفسه بحماسة صادقة.دعونا نتركه هناك في الوقت الراهن.

الفصل
(٨)

مسألة الختم

استيقظ هنري الثامن في حوالي الساعة الخامسة من قيلولة غير مريحة، وتمتم في نفسه قائلاً: «احلام مزعجة، احلام مزعجة نهايتي قريبة:
فانتبهوا الى هذا التحذيرات، وان نبضي الواهن يؤكد ذلك!» ثم ومض في الحال برق شرير في عينيه وتمتم قائلا: «ولكنني لن اموت قبل ان يموت قبلي.»
وادرك الواقفون على خدمته انه كان مستيقظاً وسأله احدهم رغبته بخصوص حضور السيد قاضي القضاة الذي كان ينتظر في الخارج.
- «ادخلوه، ادخلوه!» قال الملك متلهفاً.
ودخل قاضي القضاة وجثا عند سرير الملك، وقال:
- لقد وجهت امراً حسب ارادة الملك ان يكون امراء المملكة في ارديتهم القضائية حاضرين في دار القضاء،

حيث تم اصدار حكم الموت على دوق نورفوك، منتظرين تنفيذ رغبات الملك الاخرى في هذه المسألة.

واشرق وجه الملك بفرح طاغ. وقال:
- انهضوني! سأذهب بشخصي الى البرلمان وسأختم بيدي على الامر الذي يخلصني من. —
وخانه صوته واجتاحت صفرة خديه وازالت الحمرة منهما، واراحه الواقفون على خدمته على الوسائد التي خلفه، واسرعوا باسعافه بالمنعشات. وقال بصوت كئيب:
- وا اسفاه! كم اشتقت الى هذه الساعة الحلوة! ولكنها جاءت متأخرة، فحرمت من هذه الفرصة المرموقة. ولكن اسرعوا، عجلوا!
وليقم غيري بهذه المهمة مادمت عاجزاً عن إدائها. وأضع ختمي في رسم التفويض: واختار اللوردات الذين سيتولون ذلك، وانصرفوا الى عملكم. هيا اسرع ايها الرجل! قبل ان تشرق الشمس وتغيب مرة اخرى، اجلبوا لي رأسه لكي اراه.
- امر الملك مطاع. وهل يتفضل جلالتكم بالامر ان يعاد الختم الي، لكي اواصل العمل؟
- الختم! ومن يحفظ الختم غيرك؟



- جلالتكم اخـذه مني قبـل يومين وقلت انـه لن يستعمل حتى تختم به يدكم الملكية الحكم على الدوق نورفوك .

- نعم هذا صحيح : اني اتذكر ذلك . . . ماذا فعلت به . . . ؟

انـي مرهق جداً . . . ان ذاكـرتي هذه الايـام تخـونني كثيراً . . . شيء غريب . غريب ـــ .

وصـار الملك يتمتم باشيـاء غيـر مفهـومـة ، ويهز رأسه الاشيب بوهن بين حين وآخـر، ويحـاول جاهـداً ان يستـذكـر ماذا فعل بالختم واخيراً جازف اللورد هيرتفورد ان يجثو ويقدم المعلومات اليه :

- مولاي ، هل لي ان اتجـرأ واقـول ان عديـداً من الحـاضـرين هنـا يتـذكـرون معي انكم اعطيتم الختم الاعظم الى يدي سمـو اميـر ويلز ليحفظـه من ذلك اليوم الذي ـــ .

فقاطعه الملك قائلاً :

- صحيح ، جداً صحيح ! اجلبه ! ان الوقت يطير !

وجـرى لورد هيـرتفورد الى توم ولكنه عاد الى الملك بعد قليل قلقاً خالي اليدين . وادلى له بالنتيجة :

- يحـزنني يامـولاي الملك ان انقـل لكم خبـراً ثقيلاً غير سار، اذ انهـا ارادة الله ان يبقى مرض الاميـر على عهده

فلا يستطيـع ان يتـذكـر انـه تسلم الختم لذا جئت اليكم سريعـاً لانبئكم ، لئـلا يضيـع الوقت الثمين ، ان تجري محاولة للتفتيش في مجموعة الحجرات والابهاء الخاصة بسموه الملكي .

وقـاطعت اللورد في هذه النقطـة أنة من الملك الذي قال بعد برهة وجيزة بشيء كثير من الحزن في صوته :

- لا تقلقوا الطفل المسكين بعد هذا لترعاه يد الله . يكاد قلبي يخـرج حبـاً له ، ويؤلمني انني لا استطيـع ان انقل العبء عنـه والقيه على كاهلي المثقل بالهموم ، واجعله يرفل بالسلام .

واغـلق عينيـه ، وراح يتمتم ثم سكت فجأة . وفتـح عينيـه بعـد برهة وحملق حوله في نظرة فارغة حتى استقر نظـره على اللورد قاضي القضـاة الجـاثي قربـه . واحمر وجهه في الحال غضباً :

- ماذا ، أأنت هنـا ، ماتـزال؟ وحق الله ، انـك لا تهتم بقضية الخائن .

سيتمتـع سيـادتـك بعطلة في غد لتقصيـرك عن الاخـذ براس تطلبه !

واجاب قاضي القضاة مرتعشاً :

- مولاي الملك الطيب ، اني اطلب رحمتك ! ما انتظرت الا الخاتم .

ـ ايها الرجل، هل فقدت صوابك؟ ان الختم الصغير الذي اعتدت ان احمله معي في الخارج موجود في خزينتي، ألا يكفي هذا مادام الختم العظيم قد ضاع؟ هل فقدت صوابك؟ هيا، اذهب! واسمع ـ لاتعد حتى تأتيني برأسه.

ولم يتباطأ قاضي القضاة المسكين بالانتقال من هذا المكان الخطر، ولم يتوانَ المفوض في تقديم الموافقة الملكية الى البرلمان الصاغر، وتعيين صباح غد لقطع رأس الامير الاول لانكلترا، دوق نورفوك البائس.

الفصل
(٩)

الموكب النهري

كانت جميع جبهة النهر الفسيحة عند القصر في الساعة التاسعة مساءاً تتألق بالأنوار. وكان النهر نفسه على مد البصر باتجاه المدينة تغطيه زوارق التجذيف ومراكب الاحتفالات المزينة حافاتها بالفوانيس الملونة، وتحركها الامواج تحريكاً لطيفاً فتبدو مثل حديقة متألقة لا حدود لها عامرة بالزهور التي تداعبها انسام الصيف الرقيقة. وكانت الشرفة ذات الدرجات الحجرية المؤدية الى ماء النهر عريضة تستوعب الجيش الذي بأمرة المدينة، منظرها رائع بصفوف الجنود الملكيين حاملي الرماح وفي دروع صقيلة، ومجموعات من الخدم ببزاتهم المتألقة ينتقلون صعوداً ونزولاً، ذهاباً واياباً، مسرعين في سبيل الاستعدادات.

ثم صدر امر عاجل وسرعان ما اختفى الجميع من

على الدرجات. وصار الجو مثقلاً بالصمت والترقب. وعلى مد البصر يستطيع المرء ان يرى آلاف الناس في الزوارق ينهضون ويظللون اعينهم باكفهم من ألق الفوانيس والمشاعل ويحدقون باتجاه القصر..

واقترب صف من اربعين او خمسين مركباً رسمياً من الدرجات. كانت المراكب مذهبة، وقيدوم ومؤخر كل مركب منها كانا متقني النحت شامخين. وكان بعضها مزيناً بالرايات والاعلام وقطع القماش الذهبية والستائر المطرزة بانواع الاسلحة، وبعضها الآخر بالاعلام الحريرية التي تحمل عدداً لا يحصى من الاجراس الفضية التي تلقي بزخات رقيقة من الموسيقى المرحة كلما حركتها الريح الرحبة وكان كل مركب تسحبه سفينة تحمل، غير المجذفين عدداً من الرجال المسلحين في خوذ لامعة وتروس، وفرقة موسيقية.

وظهر الحرس المتقدم للموكب، المرتقب في البوابة العظمى، فصيلة من حملة الرماح. كانوا يرتدون سراويل ضيقة مقلمة بخطوط سود وصفر، وقبعات مخملية مزينة الجوانب بورود فضية، وسترات ضيقة، ذات قماش اسود ضارب للارجواني والازرق، مطرزة في المقدمة والخلف بثلاث ريش هي شعار الامير منسوجة بالذهب. وكانت قنوات الرماح مغطاة بمخمل

قرمزي، مثبت بمسامير من ذهب، ومزينة برساعات (كركوشات) ذهبية. واصطف الجنود على اليمين والشمال، مكونين خطين طويلين يمتدان من بوابة القصر حتى حافة ماء النهر. ثم مد بساط سميك بين الصفين. وقد قام بذلك خدم في بزات ذهبية وقرمزية تابعون للامير. وعندما انتهى ذلك صدحت ابواق في الداخل، فارتفعت انغام موسيقية رائعة عزفها الموسيقيون في النهر. وسار دليلان يحملان صولجانين ابيضين بخطى بطيئة نظامية من البوابة، وكان يتبعهما ضابط يحمل صولجان السلطة، ويليه اخر يحمل سيف المدينة، ثم عدد من آمري حرس المدينة في كامل تجهيزاتهم، وعلى اكمامهم شاراتهم الخاصة، والفارس حامل ربطة الساق بردائه الفضفاض، ثم عدد من فرسان الحمام، يحمل كل منهم شريطاً أبيض على كمه، ثم مساعدوهم، يليهم القضاة في جببهم القرمزية وشعرهم المستعار، ثم اللورد قاضي قضاة انكلترة، في جبة قرمزية مفتوحة من الامام، مزركشة الحواشي بالفرو الابيض.

وعلا صداح الابواق في الداخل، ثم خرج خال الامير من البوابة في سترة ضيقة من قماش اسود مذهب، وجبة من الحرير القرمزي المورد بالذهب والموشاة

بشباك من فضة . واستدار ثم رفع قبعته ذات الريش وانحنى باحترام ، ثم اخذ يخطو الى الوراء منحنيا في كل خطوة . ثم تلا ذلك نفخة ببوق طويلة وبلاغ يعلن: «طريق لسمو امير ويلز المعظم ، لورد ادورد .» واندلعت فوق اسوار القصر في خط طويل السنة من لهب مع انفجار مدوّ: وانفجر الناس المتجمهرون على النهر في دوي هائل من الترحيب . وظهر للعيان ، توم كانتي ، سبب ذلك كله وبطله ، وانحنى أنحناءة بسيطة برأسه الاميري :

كان يرتدي سترة قصيرة فاخرة من الحرير الابيض ذات قطعة من قماش ارجواني مقدمتها مرصعة بالماس وحواشيها من فرو القاقم . ويلبس فوقها عباءة من قماش ابيض مذهب ، مزخرفة بالشارة ذات الريش الثلاث ، مبطنة بالحرير الازرق ، محلاة باللؤلؤ والاحجار الكريمة ، ومربوطة بمشبك من الماس المتألق . ويعلق على رقبته وسام ربطة الساق واوسمة اميرية اجنبية اخرى . وكلما سقط النور عليه تلألأت الجواهر بضوء يخطف الابصار . آه ياتوم كانتي ، يامن ولدت في كوخ حقير وترعرت في حمأة مدينة لندن ، وألفت الاسمال والاقذار والبؤس ، فما اروع هذا المنظر الذي انت فيه!

الفصل
(١٠)

متاعب الامير

تركنا قبل هذا جون كانتي وهو يجر الامير الحقيقي الى قصر النفايات ويتبعه على اعقابه جمهور من الغوغاء الصاخبين الفرحين . ولم يكن هناك سوى شخص واحد رفع كلمة احتجاج من اجل الطفل الاسير ، ولم يعره احد اهتماماً ، بل مأكاد له صوت ، بسبب الهياج العظيم . وواصل الامير صراعه للتخلص والاحتجاج على سوء المعاملة التي كان يتلقاها ، حتى رفع جون كانتي هراوة البلوط في نوبة من غضب مفاجيء على رأس الامير ، وقفز الرجل الذي دافع عن الامير ليمسك بذراع الاب ، فنزلت الضربة على رسغه ، فاهتاج جون كانتي :

ـ تتدخل ، أليس كذلك؟ هذا جزاؤك اذن .

وتكسرت الهراوة على رأس الرجل الذي تدخل . وسمعت أنّة وتهاوى الرجل على الارض بين اقدام الجمهور ، ثم بقي وحيداً بعد لحظات وتقدم الرعاع

وتزاحمواولم يضطربوا في تلذذهم بسبب تلك المداخلة .

وسرعان ما وجد الامير نفسه في مسكن جون كانتي ، واغلق الباب بوجه الدخلاء . وعلى ضوء شمعة خافت من الشحم الحيواني المقحم في قنينة ، استطاع ان يتبنى معالم الوكر الكريه ، ونزلائه ايضا . بنتان زريتان وامرأة في متوسط العمر انكمشن رعباً عند الحائط في احدى الزوايا ، كالحيوانات التي اعتادت على هذا الامر، ويتوقعنه ويخشينه الآن . وانسلت من زاوية اخرى عجوز شمطاء ذاوية ذات شعر اشيب مسترسل وعينين خبيثتين . توجه جون كانتي الى هذه بالكلام قائلا :

- تريثي ! هذه مسرحية لطيفة . لا تفسديها حتى تستمتعي بها ثم استعملي يدك ثقيلة كما تشاءين . تقدم ايها الولد . والآن قل لنا سخافاتك مرة اخرى ولعلك مانسيتها . قل اسمك! من انت؟

وصعد الدم المهان الى خدي الامير الصغير مرة اخرى . ورفع نظرة ساخطة ثابتة الى وجه الرجل وقال :

- سوء تربيتك هو الذي يسوّل لك أن تأمرني بالكلام .

أقول لك كما قلت لك قبلا : إني ادورد أمير ويلز ولست غيره .

وسمرت المفاجأة المذهلة لهذا الجواب قدمي العجوز

في الارض وكادت انفاسها تتقطع . وحملقت في الأمير في دهشة بلهاء فسُرّ ابنها المتوحش كثيرا فانفجر ضاحكا .

غير ان تأثير ذلك في أم توم واختيه كان مختلفاً . وتحول رعبهن من الوجع البدني في الحال الى ألم من نوع مختلف . وركضن نحوه والفزع والهم على وجوههن صائحات :

- توم المسكين ، الولد المسكين!

وجثت الام على ركبتيها امام الامير ووضعت يديها على كتفيه وحدقت بشوق في وجهه من خلال دموعها وقالت :

- آه يا ولدي يا ولدي المسكين ! لقد فعلت قراءاتك الحمقاء فعلها السيء فيك اخيرا ، وسلبتك عقلك لماذا تعلقت بذلك وقد حذرتك من عاقبتها؟ لقد كسرت قلب امك .

ونظر الامير الى وجهها وقال بلطف :

- ابنك بخير ، ولم يفقد عقله ، ايتها السيدة الطيبة . فاطمئني :

دعيني اذهب الى القصر حيث هو هناك ، وسوف يعيده الملك والدي اليك مباشرة .

- والدك الملك ! آه يا ولدي ! لاتقل هذا . تذكر واسترجع ذاكرتك الفقيرة الاولى . انظر الي ، ألست انا امك التي حملتك واحببتك؟

وهز الأمير راسه وقال مكرها :
ـ يعلم الله اني غير راغب ان اجلب الحزن الى فؤادك، ولكنني في الحقيقة لم ارَ وجهك قبلا .
وتراجعت المرأة الى وضع الجلوس على الارض وغطت عينيها بيديها واسلمت نفسها لنشيج وعويل من قلب مفطور.
وصاح جون :
ـ يستمر العرض! ماذا يانان! ماذا يا بيت! يابغايا غير مهذبات! هل ستقفن في حضرة الامير؟ تجثيان على الركب، ياحثالة المجتمع وتقدمان له فروض الاحترام. واتبع ذلك بضحكة اخرى كأنها صهيل حصان. وبدأت البنتان تتوسلان وتدافعان عن اخيهما في كثير من الرعب. وقالت نان. :
ـ دعه يا أبي يذهب الى فراشه ليرتاح وينام فيشفى من جنونه، ارجوك ياوالدي.
وقالت بيت :
ـ نعم ياوالدي، انه منهك اكثر من المعتاد. سيعود الى نفسه غدا. ولن يعود خالي اليدين مرة اخرى.
فصحا الاب من جذله بتلك الملاحظة. وعاد فكره الى العمل. والتفت الى الامير غاضباً وقال :
ـ علينا ان ندفع في الغد بنيين (ثمانية فلوس) الى مالك

هذا الجحر، بنيين، لاحظت ـ كل هذا المبلغ عن ايجار نصف سنة وإلا اخرجونا منه. ارني ماذا جمعت من تسولك الكسول فقال الامير:
ـ لا تزعجني بامورك الدنيئة. اعيد عليك القول اني ابن الملك ودوّت ضربة على كتف الامير من كف جون كانتي العريضة. وطوحت به مترنحا الى ذراعي زوجة كانتي الطيبة.. التي ضمته الى صدرها تحميه مما ينهمر عليه من صفعات ولطمات متوالية..
وتراجعت البنتان المذعورتان الى زاويتهما، ولكن الجدة تقدمت متلهفة لمد يد العون الى ابنها. ووثب الامير مبتعدا عن زوجة جون كانتي وقال:
ـ لا اريدك ان تتحملي الضرب من أجلي ياسيدتي. دعي هؤلاء الخنازير يقوموا بما يريدون عليّ وحدي.
هيج هذا الكلام الخنزيرين الى درجة جعلتهما يشرعان بالضرب دونما مضيعة للوقت ضرباً مبرحاً ثم توجها الى البنتين وامهما بالضرب ايضا لما أبدينه من عطف على الضحية.
وقال كانتي :
ـ والآن الى الفراش جميعكم. لقد اتعبني هذا الفصل المسلي واطفيء النور وتأووا الى الفراش. وما ان علا شخير رب البيت وامه، حتى زحفت الفتاتان الى حيث

كان الامير مستلقيا وغطينه بحنان من البرد بالقش والاسمال، وزحفت امهما اليه ايضا ومسدت شعره وبكت عليه وهمست في اذنه بكلمات متقطعة تهدئه وتعطف عليه. وكانت قد وفرت له لقمة ليأكلها ولكن آلام الصبي جرفت كل اثر للشهية لديه - وخصوصا لكسرات الخبز الاسود الخالي من الطعم. وتأثر بدفاعها الشهم الغالي عنه ومواساته. فشكرها بكلمات كلها نبل، وطلب اليها ان تذهب الى النوم وتحاول ان تنسى آلامها. واضاف ان والده الملك لن يدع عطفها المخلص وتفانيها من دون مكافأة. هذه العودة الى «جنونه» كسرت قلبها مرة اخرى وضمته الى صدرها مرارا، ثم تراجعت الى فراشها غارقة في دموعها.

وعندما استلقت تفكر وتبكي، اخذت فكرة تدب في رأسها وهي ان شيئا لا يمكن تحديده في هذا الولد غير موجود لدى توم، سواء أكان مجنونا ام عاقلا ولم تستطع وصف هذا الشيء، ومع ذلك فان غريزتها الامومية الحادة اخذت تستبين هذا الشيء وتدركه.

ماذا سيحصل لو ان الولد ابنها لم يكن حقا ابنها، بعد كل شيء؟ اوه، امر غير معقول! وكادت ان تضحك بالرغم من آلامها واحزانها. على اي حال، وجدت ان الفكرة ظلت متشبثة بها وترفض مغادرتها او نسيانها.

وادركت أخيراً انها لن ترتاح حتى تجد اختباراً يمكن أن يثبت بوضوح وبلاشك فيما اذا كان الصبي ابنها أم لا. فتطرد بذلك هذه الشكوك المرهقة المعذبة. ولكن الغرض اسهل من التنفيذ. وقلبت في فكرها اختبارا بعد آخر ولكن ايا منها لم يكن مؤكدا. وكانت تجهد رأسها عبثا، ولما كانت هذه الفكرة المحيطة تدور في عقلها، التقطت اذنها تنفس الصبي المنتظم، وعرفت أنه اغفى. وعندما اصغت اليه، تقطع التنفس المنتظم صرخة خافتة جافلة كالتي يطلقها الانسان في حلم مضطرب. فتأهبت بنشاط شديد ولكن دونما ضجيج ان تقوم بعمل، تشعل شمعة وهي تتمتم في نفسها: لو انني رأيته الآن، لعرفته! منذ ذلك اليوم الذي كان فيه صغيرا وانفجر البارود في وجهه، لم يجفل في احلامه او تفكيره، ولكنه كان يلقي يده امام عينيه، كما فعل في ذلك اليوم، وليس كما يفعل الاخرون، وراحة يدهم الى الداخل، بل دائما وراحة اليد نحو الخارج - رأيت ذلك مئة مرة، ولم يتغير. نعم، سأعرف ذلك الآن!

وزحفت الى جانب النائم ومعها الشمعة تظللها بيدها.

وانحنت عليه باحتراس، ولا تكاد تتنفس، في انفعالها المكبوت، وفتحت الضوء فجأة على وجه الصبي،

وقـرعت الارض بمفـاصـل اصابعها قرب اذنه . وانفتحت عينـا النـائم واسعتين، والقى نظـرة جافلة حوله ولكنه لم يقم باي حركة خاصة بيديه .

وكـادت المـرأة ان تصـاب بالخيبـة من جراء الدهشة والحزن ، ولكنها سعت ان تخفي عواطفها وتهدىء الولد لكي يعـاود النـوم ، ثم زحفت مبتعـدة عنـه وهي تحدث نفسهـا بائسـة بصدد النتيجة الخائبة لتجربتها . وحاولت ان تعتقـد ان جنـون ولـدهـا توم قد ازال هذه الحـركـة المعتـادة لديـه ، ولكنها لم تفلح . وقالت : كلا ، ان يديه ليستـا مجنـونتين ، انهما لـم تستطيعا ان تنسيا عادة قديمة في زمن قصير جدا . اوه ، انه ليوم ثقيل جدا علي .

ومـع ذلـك لم تستطـع ان تجعـل نفسها تتقبل نتيجة الاختبـار ، لذلـك اجفلت الولد من نومه مرة ثانية وثالثة ، في فتـرات ـ وكـانت النتيجة نفسها كالاولى ـ ثم انكفأت نائمة وهي حزينة ، تقول : ولكن لا يمكن ان اتخلى عنه ـ لا ، لا يمكن ، لا يمكن ـ لابد انه ولدي !

وبعـد ان انقطعت تدخـلات الام ، وفقـدت آلام الامير قوتها تدريجا في اقلاقه ، اطبق الارهاق الشديد عينيه في نوم وراحـة عميقين . وتـوالت السـاعـات واحـدة بعد الاخـرى ، ومازال نائما كالموتى . ثم خذ سباته يخف . وراح يتمتم مابين النوم واليقظة قائلا :

ـ سير وليم !

وبعد لحظة :

ـ ياسيـر وليم هيـربـرت ! انت يامن هنـاك ، استمـع الى أغـرب حلم . . . سيـر وليم ! اتسمع ؟ يارجل ، اظن اني تحولت الى فقير ، و . . . تعالوا ايها الحرس ! سير وليم !

وسألته هامسة قرب اذنه .

ـ ماذا يزعجك ؟ من تنادي ؟

سير وليم هيربرت . من انت ؟

ـ انا ؟ ومن اكون غير اختك نان ؟ اوه ياتوم ، لقد نسيت ! توم الـولـد المسكين مازلت مجنـونا ، ياليتني لم استيقظ لاعـرف ذلـك مرة اخـرى . ولكن ارجوك ان تسيطر على لسانك ، لئلا نضرب حتى نموت !

وجفـل الاميـر ووثب شبـه واقف ولكن رضـوضـه المتخشبـة اعـادتـه الى نفسـه ، وعـاد يغـوص في القش الفاسد وهو يئن :

ـ اسفاه ! لـم يكـن حلماً ، اذن !

وعاد الالم والبؤس اللذان ابعدهما النوم اليه شديدين في لحظـة واحـدة ، وادرك انه لم يعد ذلك الامير المدلل في القصر ، بل فقيرا في اسمال ، يرافق شحاذين ولصوصا .

وبعـد لحظة ، دقت الباب عدة دقات ، وانقطع شخير جون كانتي وقال :

ـ من يدق الباب؟ ماذا تريد؟
واجابه صوت :
ـ اتعرف من ضربت بهراوتك؟
ـ كلا، لا اعرف، ولا يهمني من يكون .
ـ ستغيــر كلمتـك في الحــال. لن يخلص رقبتـك، ولا يغيـدك غيـر الهرب. الـرجـل يلفـظ انفـاسـه الآن. هو القس، الاب اندرو!
ـ رحمتك يارب!
هتف كانتي وايقظ عائلته وامرهم بصوت اجش :
ـ انهضوا جميعا لنهرب ـ واذا بقيتم ستهلكون!
ولم تكـد تمـر خمس دقـائق حتى كانت عائلة كانتي في الشـارع هاربين بحيـاتهم. وكـان جون كانتي يمسك يد الامير ويسرع به في الطريق المظلم وهو يحذره بصوت واطيء :
ـ احفــظ لسـانـك، ايهـا المجنـون الاحمق، ولا تنطق باسمنـا. سـاختـار لنـا اسمـا جديـدا، في الحال، لنبعد كلاب القانون عن رائحتنا. اقول لك، احفظ لسانك!
وزمجر بهذه الكلمات الى بقية افراد عائلته :
ـ اذا افترقنا، فليتجه كل منكم الى جسر لندن، ومن يجد نفسـه عنـد دكـان بائـع الاقمشـة الكتانية على الجسر، فليبق هنا حتى يأتي الآخرون، ثم سنهرب معا

إلى ساوثورك.
وانطلقت الجمـاعة في تلك اللحظة. . فجأة من الظلام الى النـور، وفي وسـط حشـد من ناس يغنـون ويرقصون ويهتفــون متجمهـرين على جبهـة النهـر وكـان خط من المشـاعـل يصـل الى مد البصـر على نهـر التيمز. وكان جسـر لنـدن مضاء، وكذلك جسر ساوثورك. وكان النهر باجمعــه متألقــا بانــوار المصـابيـح الملونـة المتلألئـة والسـاطعة وملأت انفجارات الالعاب النارية المتواصلة السمـاء بخليـط معقـد من الاطلاقات المتألقة ومطر من الشـرار البـاهر الذي كان يقلب الليل نهارا. كان في كل مكـان جمـاهير من المعربدين الصاخبين. وكانت لندن كلها تبدو حرة مطلقة السراج.
وخلص جون كانتي نفســه من لعنة غاضبة، وامر اهله بالتراجع ولكن بعد فوات الاوان. وتفرقوا على غير هدى بغتــة. وكـان جون كانتي مايـزال يقبض على يد الاميـر الـذي راح قلبـه ينبض عاليـا بالامل في الخلاص الان.
ودفــع جون كانـتي في اثنــاء ماكــان يشق طريقــه بين الجمهـور، رجلا ضخما انتعش بالخمرة، فوضع الرجل يده الضخمة على كتف كانتي وقال :
ـ لا، يا صديقي، الى اين انت مسرع؟
ـ لا تفسـد روحـك بالعمـل القذر في الوقت الذي يتمتع

الرجال الصادقون المخلصون بالعطلة.

- شؤوني هي شؤوني، ولا تخصك في شيء ارفع يدك ودعني امر.

قال ذلك جون كانتي بخشونة.

- لن تمر حتى تشرب نخب امير ويلز، انا اقول لك ذلك

قال الرجل هذا وهو يسد الطريق عليه بكل اصرار.

- اعطني الكأس، اذن، وبسرعة، بسرعة.

وتمتع بذلك المعربدون الآخرون، وصاحوا:

- كأس المحبة، كأس المحبة! ليشرب الوغد الوضيع من كأس المحبة، وإلا جعلناه طعما للاسماك.

فجلبوا كأساً ضخمة، ومسك الرجل باحد مقبضيها وقدمها حسب الاصول والعادات القديمة: الى جون كانتي الذي مسك المقبض الآخر المقابل بيد ورفع الغطاء بيد اخرى، وفق التقليد القديم. فترك بذلك يد الامير طليقة لحظة طبعا، ولم يضيع وقته فاندفع بين غابة السيقان المحيطة به واختفى. ولم يكن عسيرا عليه ان يجد بعد لحظة، في هذا البحر الهادر، فيما اذا كانت امواجه امواج المحيط، وهو قطعة نقد صغيرة ضائعة فيه.

وسرعان ما ادرك هذه الحقيقة، فشُغل بامر نفسه دونما تفكير بجون كانتي. وادرك شيئا آخر بسرعة ايضا: ان

اميرا مزيفا يحتفلون به في المدينة بدلا منه. واستنتج بسهولة ان الصبي الفقير، توم كانتي، استغل عامداً هذه الفرصة العجيبة واصبح مغتصبا.

لذلك لم يكن امامه الا سبيل واحد عليه ان يسلكه - هو ان يجد الطريق الى دار البلدية، ويكشف عن نفسه، ويفضح المزيف. وقرر ايضا ان يمهل فترة معقولة للتهيؤ النفسي من اجل ان يشنق، ثم ينزل، ويعفى عنه وفق قوانين وتقاليد تلك الايام، في حالات الخيانة العظمى.

الفصل
(١١)

في بهو البلدية

شق المــركب الملكي ، الـذي يحيـط به اسطـول فاتن الجمـال ، طريقه الجليل في نهر التيمز غابة من الزوارق المنـارة المشـرقـة . وكـان الجـو مثقـلا بالمـوسيقى ، وضفتـا النهر تعلوهمـا ألسنة لهيب البهجة ، وترقد المدينة البعيـدة في وهـج مشـرق دقيق من المشـاعـل التي لا تحصى وتـرتفـع ابراج هيفاء مستدقة كثيرة فوقها عاليا في السمـاء ، ملبسـة بالانـوار المتلألئـة مثل الرماح المطلقة عاليـاً . وكلمـا تقـدم الاسطـول في سيره تعالت هتافات البهجـة المتـواصلة من على الضفتين تحيـة له . ودوّت المواقع تبرق بلا انقطاع .

كان هذا المنظـر وتلك الاصـوات ، بالنسبـة الى توم كانتي الغـارق في فراش وثير من الحرير ، اعجوبة سامية للغـايـة ومـذهلة . امـا بالنسبة الى اصدقائه الصغار على

جانبـه، الاميـرة اليزابيث والليدي جين كري، فلم يكن ذلك امرا مذكورا.

ولما وصل الاسطول الى . . . «دوكيت» سحبوه على المياه الرائقة وقد كان مجرى الجدول هذا قد حجب عن الانظـار طوال قرنين تحت المبـاني الكثيرة، ووصلوا الى «بكلزبــري» مارين بالبيــوت وتحت الجســور العـامرة بالانوار المشرقة والناس الصاخبين مرحا، ثم توقف اخيرا في حوض يدعى الآن بارج يارد ـ حوض المراكب ـ في مركـز مدينـة لندن القديمة وهبط توم وموكبه الانيق وعبروا «جيبســايـد» وسـاروا قليـلا في «اولـد جوري» وشـارع بيزنكهول الى بهو البلدية.

واستقبــل توم والانستين الصغيــرتين عمــدة المــدينة وقســاوستهــا استقبـالا رسميـا في سلاسلهم الـذهبية وارديتهم الــرسميـة الحمـر، واصطحبـوهم الى سرادق نفيس في صدر البهـو العظيم، يتقـدمهم منادون يعلنون وصـولهم، وحـامـل الصولجان، وحامل سيف المدينة، واتخـذ السيـدات والسـادة اللوردات، الموكلون بخدمة توم وصديقتيه الصغيرتين، اماكنهم خلف مقاعد الثلاثة.

وجلس الى منضـدة منخفضـة نبلاء البلاط والضيوف الاخـرون من ذوي الـدرجات الرفيعة، مع ذوي المكانة

العليـا في المـدينـة. واتخـذ العامة اماكنهم الى مناضد كثيـرة في البهـو الرئيس. وأطلّ جوج وماجوج العملاقان حارسـا المـدينة القديمان من موضعهما الرفيع، متأملين المنظـر الـذي تحتهما بعيون اصبحت تألف ذلك خلال اجيال منسية ودوى بوق وعلا هتاف يعلن وصول الساقي البـدين من جهـة اليسـار يتبعه خدمه حاملين بوقار جليل لحم بقر، مازال حارا بتصاعد منه البخار، جاهزا للاكل بالسكين.

وبعـد طلب التشـريف، نبه توم فنهض ـ ونهض البهو جميعـا معـه ـ وشـرب من كأس كبيرة جليلة، مع الاميرة اليـزابيث، ومنهـا اخـذت الى ليـدي جين ثم نقلت الى عموم الحاضرين. وهكذا بدأت المأدبة.

وبلغت العــربــدة، عنـد منتصف الليـل، اوجهـا. وعنـدمـا كان توم في مقعده المرتفع يحدق في الرقص، تائهـا فكـره في الاعجاب بمزيج الالوان الباهرة المتغيرة التي تقـدمهـا جماهير الناس الصاخبين فرحا تحته، كان الاميـر الحقيقي الصغيـر في اسماله يدعي بحقوقه ويبين اخطـاءه، وهـو يدين الأمير المزيف ويستجب عمله وهو يصرخ مطالبا بالدخول عند باب البهو!

واستمتـع الجمهـور منـذهـولين بتلك الحـادثـة وتدافعوا يمـدون اعنـاقهم ليـروا المشـاغب الصغير. وسرعان ما

اخـذوا يوبخـونـه ويسخـرون منه عامدين لكي يثيروا فيه غضبـا مسليـاً اكثر من هذا الذي هوفيه . وفاضت عيناه، بدمـوع الشعور بالخزي ، غير انه ثبت في مكانه وتحدى الغـوغـاء بطـريقـة ملكيـة . ولكن الاهـانات توالت عليه ووخزته سخريات اخرى، فهتف قائلا :

ـ اقـول لكن مرة اخـرى، يا زمـرة اللؤماء قليلي الادب، اني اميـر ويلز! ومع انني وحيد بلا اصدقاء ولم يتعاطف معي احـد بكلمـة رقيقـة اويمـد لي يد المسـاعـد عند حاجتي الى ذلـك، فانني لن اتـراجـع عن مكـاني ، بل سابقى ثابتا واقدم الدليل على ذلك!

ـ سواء أكنت اميرا ام لم تكن، فذلك سواء، وانت صبي شهم شجـاع، ولست بلا اصـدقـاء ابدا! وها انذا الذي اقف بجانبك ابرهن على ذلك، واقول لك انك لن تجد صديقـا اسـوأ من ما يلز هنـدن على ذلـك، ولا تتعب رجليـك بالبحث عن ذلـك . فأرح نفسـك ولسـانـك ياصـغيـري، اذ انـني اتحـدث بلغـة هؤلاء الـذين يشبهون جرذان الزرائب بشكل طبيعي غير متكلف .

كان المتكلم نوعـا من دون سيـزار دو بازان في ملبسه وملامحـه وهيئتـه . كان طويـلا . . . حسن البنية، قوي العضل . وكـانت سترتـه القصيـرة وسـرواله القصير من قمـاش فاخـر، غيـر ان لونـه اصبـح باهتا باليا، وشرائط

الزينة الذهبية فيها فقدت بريقها بشكل كئيب وكان طوق عنقـه مجعـدا، تالفـا . وكانت الريشة مكسورة في قبعته العـريضة الحافة المسترخية وكانت وسخة، زرية . وكان يحمل الى جانبه سيفا طويلا مستقيما في غمد من حديد صديء . ومن مشيتـه التيـاهة يبدو انه امر المعسكر. وقد اثـار كلام هذا الشخص الغـريب الشكـل عاصفـة من السخرية والضحك فصرخ بعضهم قائلا :

ـ امير آخر متنكر!

ـ صن لسانك ايها الصديق، لعله خطر!

ـ والله، يبدو كذلك انظر الى عينيه!

ـ انتزعوا الطفل منه ـ خذوا الجرو الى بركة الخيول!

وامتدت يد في الحال الى الامير بدافع من هذه الفكرة المرحة .

وسـرعـان ما استل الغريب سيفه الطويل والقى المتطفل الى الارض بصفحـة السيـف . وهتفت مجمـوعـة من اصـوات بعـد لحظـة من ذلـك : «اقتلوا الكلب! اقتلوه! اقتلوه!» واحـاط الـرعـاع بالمحـارب الـذي حمى ظهره بجدار واخذ يوجه الضربات حوله بسيفه الطويل وتساقط ضحـايـاه هنا وهناك، وتدفق تيار الرعاع نحوهم وهجموا على البطـل بغضب مستطير. ويبـدو ان لحظـاتـه كانت معـدودة وان دمـاره اكيـد، وفجأة دوى بوق في الارجاء،

وسمع صوت يصيح : «افسحوا في الطريق الى رسول الملك!» وتقدمت فصيلة من خيالة نحو الرعاع الذين هربوا بعيدا عن الاذى باسرع ما استطاعوا. واحتضن الرجل الغريب الشجاع بين ذراعيه واسرع بالابتعاد عن الخطر وعن الجمهور.

نعود الآن الى بهو البلدية. حيث علا فجأة، فوق صخب الابتهاج وهدير العربدة، صوت بوق. وخيم صمت مفاجىء ـ سكوت عميق، ثم ارتفع صوت واحد ـ صوت رسول القصر ـ وصار يلقي بيانا على الجمهور الواقف، مصغيا: وكانت كلمات الختام التي لفظها بحزن ووقار:

ـ مات الملك!

واحنى الجمع العظيم رؤوسهم على صدورهم دفعة واحدة، وظلوا كذلك، في صمت رهيب، دقائق معدودات، ثم جثا الجميع على ركبهم مرة واحدة، ومدوا ايديهم نحو توم وانطلق هتاف هز ارجاء المبنى:

ـ يحيا الملك!

وجالت عينا توم. المسكين المنبهرتان فوق هذا المنظر المذهل، واتكأ اخيرا على الاميرة الراكعة جنبه، لحظة، ثم على ايرل هيرتفورد. وهبط قرار مفاجىء عليه. فقال في صوت خافت في اذن اللورد هيرتفورد:

ـ اجبني صادقا، بايمانك وشرفك! اذا نطقت انا بامر

هنا، لا يمكن ان يصدر الا من ملك، فهل يطاع ذلك الامر، ولن يقف احد امامي ليقول: كلا؟

ـ نعم يا مولاي، لا يعترض احد عليك في كل ارجاء المملكة. انت الملك وكلامك قانون.

فدوى صوت توم عاليا، جادا، وبحيوية عظيمة، قائلا:

ـ اذن ليكن قانون الملك قانون رحمة، ومنذ اليوم لن يكون قانون دماء! انهضوا جميعا وتفرقوا! واذهبوا الى البرج واعلنوا ارادة الملك ان دوق نورفوك لن يموت!

والتقط الناس الكلمات وحملوها متلهفين من شفة الى اخرى في ارجاء البهو، وعندما اسرع هيرتفورد خارجا انفجر هتاف آخر مذهل:

ـ انتهى حكم الدماء! يعيش ادورد ملك انكلترة!

الفصل
(١٢)

الامير ومخلصه

ما ان تخلص مايلز هندن والامير الصغير من الغوغاء، صارا يجريان في الازقة الخلفية والمجازات الضيقة المؤدية الى النهر. ولم يكن طريقهما مسدودا حتى بلغا جسر لندن، ثم عادا يشقان طريقهما بين الحشود، وكان هندن متمسكا بيد الامير ـ لا بل الملك ـ وانتشر الخبر العظيم الى الخارج وعرف الصبي ذلك من الف صوت يقول: «مات الملك». واصاب الخبر قلب الطفل المشرد برجفة وامتلأ مرارة وحزنا، لأن الطاغية المستبد الذي كان مرعبا للاخرين كان لطيفا معه. وانبثقت الدموع في عينيه فغشي بصره عن الاشياء كلها. وشعر لحظة انه اشد مخلوقات الله بؤسا ومن المنبوذين المحرومين ـ ثم هزت صرخة اخرى ذلك الليل بدويها «يعيش الملك ادورد السادس» فجعلت عينيه تبرقان وهزت كيانه بالكبرياء حتى انامله. وصار يفكر: آه ما

اعظم ذلك واغربه ـ اني ملك!

وشق الصديقان طريقهما بين الحشود ببطء على الجسر، ذلك الصرح الذي ظل شاخصا ستة قرون، وطريقا عاما صاخبا، عامرا بالناس طوال الوقت، كان امره غريبا، فقد كان مرصوصا بصف من المخازن والحوانيت، ومنازل عائلية فوقها، وتمتد على جانبيه من هذه الضفة الى الضفة الاخرى للنهر. كان الجسر نفسه نوعا من مدينة في حد ذاته، وكان فيه فندق صغير، ومشارب بيرة، ومخابز، وحوانيت الخردوات وحتى كنيسة خاصة به. وكان يطل على جاريه الاثنين ـ لندن وساوثورك اللذين يربطهما معا ـ بصفتهما حيين ليس لهما اهمية خاصة. كان مركزا موحدا، كما يقال، مدينة ضيقة. ذات شارع واحد طولها خمس ميل، ونفوسها كنفوس قرية، وكل فرد فيه يعرف جميع ابناء مدينته معرفة حميمة. كما عرف اباءهم وامهاتهم قبلهم ـ وكل شؤونهم العائلية. وكان لهم طبقتهم الارستقراطية. بطبيعة الحال ـ وعوائلها الممتازة من القصابين والخبازين وغيرهم ممن احتلوا المباني القديمة نفسها خمس مئة وست مئة سنة، ويعرفون التاريخ العظيم للجسر من البدء الى المنتهى وكل اساطيره الغريبة، وكانت احاديثهم وافكارهم وطرق تعاملهم خاصة باهل

الجسر.

وفي الوقت الذي نكتب فيه كان الجسر «مادة للدرس» المدرسي في التاريخ الانكليزي تقدم للاطفال ـ اي رؤوس المشهورين الشاحبة المتعفنة المرفوعة على رماح من حديد فوق بوابتيه، غير اننا استطردنا وحدنا عن الموضوع الرئيس.

كان مسكن «هندن» في الفندق الصغير على الجسر. وعندما اقترب من الباب مع صديقه الصغير، قال صوت خشن:

ـ وهكذا جئت اخيرا! لن تهرب مرة اخرى، واني اوكد لك ذلك. واذا كانت نفسك تسوّل لك امرا آخر، فاننا لن ننتظر مدة اخرى.

ومد جون كانتي يده ليقبض على الصبي، فتقدم مايلز هندن في سبيله وقال:

ـ لا تتعجل ايها الصديق. لا اظن بك حاجة الى الخشونة ما علاقة الغلام بك؟

ـ اذا كان شأنك ان تتدخل في امور الآخرين، فانه ابني

فصرخ الملك محتدا:

ـ هذا كذب!

ـ انت شجاع بقوتك، وانا اصدقك، سواء أكان رأسك سليما ام غير سليم، يا ولدي. ولكن سواء أكان هذا

المتـوحش الحقيـر ابـاك ام لـم يكن، فانـه لن يأخذ
ويضربك ويسيء معاملتك، لذلك ستسكن معي.

ـ نعم، نعم ـ انا لا اعرفه واكرهه وسأموت قبل ان اذه
معه.

فصاح جون كانتي وهو يخطو امام هندن ليصل ال
الولد:

ـ سنرى ما يتعلق بهذا الامر، سيأتي بالقوة

ـ اذا لمسته ايها النفاية، فسوف اطعنك كالاوزة!

قال هنـدن ذلـك وهـو يسد الطريق عليه ويضع يده على مقبض سيفـه فتـراجع جون كانتي. وواصل هندن قوله: اخذت هذا الصبي تحت حمايتي عندما اراد رعاع مثلك سوء معاملته، او قتله:

هل تتصـور انني ساتـركـه الآن الى مصير اسوأ؟ ـ وسواء اكنت اباه ام لم تكن ـ واظنك كاذبا ـ فانَ الموت النظيف المحتـرم افضـل لهـذا الفتى من الحيـاة بين يدي بهيمة مثلك، . فاذهب في سبيلك، واســرع، لانني لا احب تقاذف الكلمات لانني بطبعي لست صبورا.

وابتـعــد جون كانـتي وهــويهــدد ويسب وابتلع
الجمهـورعن الانظـار. وصعـد هنيدن ثلاث دورات م
السلم الى غرفتـه مع الصغيـر، بعد ان أمر ان يرسل له

طعام الى هناك. كانت غرفة متواضعة ذات فراش رث، وشيء من بقـايـا اثـاث قديم، تضيئُهـا شمعتان ناحلتان اضـاءة سيئـة. ومضى الملك الصغيـر يجـر ساقيه والقى نفســه على الفـراش واستلقى عليـه منهكـا من الجـوع والارهـاق، فقـد قضى جانبـا كبيرا من النهار والليل على قدميـه، وكـانت السـاعـة آنذاك الثانية او الثالثة صباحا، ولم يتناول شيئا حتى ذلك الوقت وتمتم وهو نعسان:

ـ ارجوك نادني عندما تعد المائدة.

ثم غرق في نوم عميق في الحــال. والتمعت بسمـة في عيني هندن وقال في نفسه:

يأتي شحـاذ صغير الى بيتك ويحتل فراشك كأمر طبيعي وطـريقـة سهلة كأنـه يملك ذلـك كله ـ دونما استئذان او رجـاء اوماشـابـه ذلـك. ودعا نفسه في هذيانه المحموم اميـر ويلز، وظـل محـافظـا على شخصيتـه بشجاعة ولم يتراجع عن ذلك. لا ريب ان هذا الفأر الصغير الذي لا اصـدقـاء له قد اصاب الخلل عقله لسوء المعاملة. ومع ذلك، فانني سأكون صديقه.

فقـد انقـذتـه وانجـذبت اليه بقوة، بل احببت هذا الوغد الجـريء اللســان. ما اشـد بسـالتـه في مواجهة الغوغاء البذيئين ووقوفه امامهم متحديا!

ومـا اروع وسـامـة وجهـه وجماله ورقته، وخاصة بعد ان

ازال النوم همومه واحزانه. سأعلمه وسأعالج مرضه؛ اجل سأكون اخاه الاكبر وارعاه واهتم به، ومن يحاول ان يسخر منه او يؤذيه فإنه يعجل بطلب كفنه.

وانحنى على الصبي وتأمله باهتمام حنون واشفاق، وربت على خد الصغير بلطف وعدّل خصلة متشابكة بيده السمراء الضخمة. وسرت رجفة في جسد الصبي، فتمتم هندن:

ـ هل من الرجولة ان ادعه ينام مكشوفا حتى يمتلىء جسده بالبرد القاتل؟ والآن ماذا سافعل؟ اذا رفعته ووضعته في وسط الفراش فانه سيستيقظ، وهو بحاجة شديدة الى النوم.

وتطلع حوله من اجل غطاء اضافي غير انه لم يجد شيئا فخلع سترته ولف الصبي بها وقال: «اني معتاد على البرد القارس والثياب القليلة. لن يهمني البرد.» وصار يمشي في الغرفة جيئة وذهابا ليحرك دمه، وهو يناجي نفسه كالسابق.

ـ عقله المختل يخيل اليه انه اميرويلز. فمن الغرابة ان يكون امير ويلز بيننا، في الوقت الذي لم يعد الامير اميرا بل ملكا، لان عقله السقيم ينصب على صورة خيالية واحدة ولم يستنتج الآن انه يجب ان ينبذها الامير ويدعو تلك الصورة الملك... لو ان والدي مازال حيا، بعد

هذه السنوات السبع التي لم اسمع بها شيئا عن الاهل في حصني الغريب، لرحب بالصبي الفقير وآواه خيرا من اجلي، وكذلك اخي الاكبر ارثر الطيب، واخي الآخر هيو ـ

ثم دخل خادم بحمل وجبة يتعالى منها البخار، ووضعها على منضدة صغيرة، ورتب الكراسي ثم غادر المكان، تاركا هذين الساكنين الفقيرين يعتنيان بنفسيهما. واصطفق الباب بعده وايقظت الضوضاء الصبي الذي هب الى هيئة الجلوس، والقى نظرة فرحة حوله، ثم نظرة حزينة علت وجهه وتمتم في نفسه واطلق تنهدة عميقة: اسفاه، انه مجرد حلم:» ثم لاحظ سترة مايلز هندن ـ ونقل نظرة منها الى هندن، وفهم مدى التضحية التي اسداها له، فقال بلطف:

ـ انت طيب معي، طيب جدا. خذها والبسها ـ فاني لا احتاجها بعد هذا.

ثم نهض واتجه الى المغسلة في الزاوية ووقف هناك ينتظر. وقال هندن بصوت مرح:

ـ سنتناول عشاء مختصرا ولكنه شهي، لان رائحة كل شيء لذيذة وهو حار ينبعث منه البخار وهذا الطعام وما تمتعت به من نوم قصير سوف يجعلان منك رجلا صغيرا، مرة اخرى فلا تخف!

ولم يجب الصبي بشيء،ولكنه اطرق وقد اخذته دهشة وقور. وبان عليه شيء من اللهفة بشأن حقيقة فارس السيف الطويل. وشعر هندن بالحيرة فسأله:

ـ ما الخطب؟

ـ سيدي الطيب ، اريد ان اغسل.

ـ اوه، اهذا كل شيء ! لا تطلب اذناً من مايلز هندن لكل ماترغب فيه. خذ مطلق حريتك هنا فانت على الرحب والسعة والتصرف بكل مايملك.

ومع ذلك فان الصبي ظل واقفا ولم يتحرك. وضرب الارض مرة او مرتين بقدمه الصغيرة نافد الصبر. وزادت حيرة هندن كثيرا وقال:

ـ يا إلهي، ما الامر؟

ـ ارجوك، صب الماء، ولا تتحدث كثيرا!

واطلق هندن قهقهة مدوية وقال في نفسه:

ـ اي والله، انه لأمر رائع!

وتقدم خفيف الخطو ونفذ امر هذا الصغير المتغطرس، ثم وقف جانبا في نوع من الذهول حتى ايقظه فجأة امر: هات ـ المنشفة!

وتناول منشفة تحت يد الصبي وناولها له، دونما تعليق، وتقدم هو ليريح وجهه بغسله، وعندما كان يفعل ذلك، جلس الولد الى المائدة وتأهب لتناول الطعام، فسحب

هندن الكرسي الآخر وكان على وشك الجلوس الى المائدة عندما قال له الصبي ناقما:

ـ مكانك! كيف تجلس في حضرة الملك؟

وجعلته هذه الضربة يقف مترنحا في مكانه. وتمتم في نفسه: جنون الصبي المسكين يتصاعد مع الزمن! لقد تغير بالتغير العظيم الذي حصل في المملكة، وهو الآن يتصور نفسه ملكا. وعليّ ان اساير هذا المغرور المعجب بنفسه ـ وليس ثمة طريقة غيرها ـ والا اصدر امره بارسالي الى سجن البرج!

واعجبته النكتة، فازاح الكرسي بعيدا عن المائدة ووقف خلف الملك، وتقدم للوقوف على خدمته بأرق طريقة يستطيعها.

وعندما انتهى الملك من طعامه، هدأت صرامة جلاله الملكي قليلا ولما ازداد اطمئنانه، ساورته رغبة في الحديث فقال:

ـ اظن انك دعيت نفسك مايلز هندن، ان كنت سمعت ذلك بصورة صحيحة؟

فاجاب مايلز: اجل مولاي... ثم قال في نفسه: اذا اردت ان اساير الصبي المسكين في جنونه، فعليّ ان اجيبه بكلمة «مولاي» وكلمة «صاحب الجلالة» ويجب ان لا تفتر حماستي.

وادفأ الملك قلبه بتناول كأس اخرى وقال : اود ان اعرفك ـ قل لي قصتك . ان طريقتك شهمة نبيلة معي ـ أأنت نبيل المولد؟

ـ نحن من حاشية النبالة ، يا صاحب الجلالة ، ابي بارونيت ـ هو سير ريجارد هندن .

ـ لقد نسيت هذا الاسم . استمر ـ اخبرني قصتك .

ـ ابي سير ريجارد ، غني جدا ، وكريم غاية الكرم بطبعه ماتت امي عندما كنت صبيا . لدي اخوان : ارثر اكبر مني ، يشبه اباه في روحه . وهيو اصغر مني ، وهو وضيع طماع ، فخاتل رذيل ، ماكر ـ خسيس . كان كذلك منذ طفولته ، وظل كذلك حتى قبل عشر سنوات عندما رأيته آخر مرة ، عندما كان نزلا ناضجا في التاسعة عشرة من عمره وانا في العشرين ، آنذاك ـ وارثر في الثانية والعشرين ولم يكن لنا احد غير ليدي ايدث ، ابنة عمي كانت انذاك في السادسة عشرة ـ جميلة ، مهذبة ، طيبة ، ابنة ايرل ، وهي آخر هذه السلالة ، ووارثة ثروة عظيمة ولقب زائل . وكان ابي وصيا عليها . كنت احبها وتحبني ، ولكنها كانت مخطوبة الى ارثر من الطفولة ، ولم يكن سير ريجارد ، ابي ، يوافق على فسخ العقد ، كان ارثر يحب فتاة اخرى ، وطلب الينا ان نتمسك بالامل بنجاح مسعانا في المحبة . اما هيو فقد كان يحب

ثروة ليدي ايدث ، مع انه كان يقول انه في الحقيقة يحب ايدث نفسها . ولكنه خاب في كل حيلة بشأن الفتاة ، ولم يستطع ان يخدع احدا غير ابي . كان ابي يحبه اكثرنا ، ويثق به ويصدقه ، لانه كان اصغر اطفاله ، وكان يتمتع بلسان ناعم مقنع ، مع كثير من الموهبة العجيبة في الكذب ، واصبحت متوحشا بل ، في الحقيقة ، متوحشا جدا ، متوحشا من النوع البريء ، لانه لم يؤذ احدا غيري .

واستغل اخي هيو هذه الاغلاط لصالحه وخصوصا عندما رأى ان صحة اخي ارثر كانت متدهورة ، وكان يأمل ان سوء الاوضاع سينفعه اذا ما ازاحني عن طريقه . بايجاز ، استطاع هذا الاخ ان يضخم اخطائي ببراعة ليجعل منها جرائم . وقد ختم عمله الوضيع بوضع سلم من حبال في حجرتي بطريقة خسيسة ، واقنع والدي وايد ذلك شهود زور من الخدم والاوغاد انني كنت انوي خطف ايدث واتزوجها رغم ارادته .

ونفيت من بيتي وبلادي ، فصرت جنديا ورجلا ، كما قال ابي وعلمني شيئا من الحكمة ، ولكنني اخذت اسيرا في معركتي الاخيرة وسجنت في زنزانة ، واستطعت ان اهرب بذكائي وشجاعتي من هناك مباشرة ورجعت فقيرا في المال . والثياب ـ واكثر فقرا في معرفتي ما حصل في

اثناء السنوات السبع من النفي ، في البلدة واهلها وممتلكاتها . تلك هي حكايتي المتواضعة . ياسيدي .

فقال الملك الصغير وعيناه تبرقان : لقد اسيئت معاملتك اساءة شنيعة ؛ ولكنني سانصفك ـ والله ! ـ وقد نطق الملك بذلك .

وتأثر بقصة مايلز وما اصابه من حيف ، اطلق الملك لسانه بالحديث عن تاريخ مصائبه التي حلت به اخيرا على مسمع الرجل المدهوش وعندما انتهى من ذلك ، قال مايلز في نفسه :

ـ انظر ! ما اعجب خياله ! لا ريب ان عقله ليس عقلا اعتياديا والا لما استطاع ان ينسج مثل هذه الحكاية المزوقة ، سواء اكان عاقلا ام مجنوناً . يالهذا العقل المسكين المحطّم لن يعوزه صديق أو مأوى مادمت حيا ، ولن يترك صحبتي . سيكون طفلي المدلل ، ورفيقي الصغير . وسوف اشفيه ! وسوف افاخر بالقول : انه صاحبي ـ انتشلت هذا الصعلوك الصغير المشرد ، واكتشفت مالديه ، وقلت ان اسمه سيكون مسموعا ذات يوم ـ انظروه ولاحظوه ـ هل انا على صواب؟

وتحدث الملك بصوت متزن عميق التفكير .

ـ انقذتني من الاذى والاهانة ، وربما حياتي ، وتاجي ايضا . ان مثل هذه الخدمة تتطلب مكافأة نفيسة

مجزية . فقل رغبتك وسوف تكون في نطاق سلطاني الملكي ، واعدّها قد نفذت .

واجفل هذا الاقتراح الخيالي هندن وايقظه من احلام يقظته . وكاد ان يشكر الملك غير انه ترك المسألة جانباً وقال انه لم يقم الا بواجبه ولا يرغب في مكافأة ، غير ان فكرة اكثر تعقلا راودته ، فطلب الاذن ان يسمح له بدقائق معدودات لكي يتفكر بهذا العرض السخي ـ واستحسن الملك هذه الفكرة كثيرا وقال من الافضل ألاّ يتعجل المرء هذا الشأن العظيم .

وفكر مايلز لحظات ثم قال في نفسه : اجل ، هذا هو الشيء الذي يترتب عمله ـ انها فرصة سعيدة انني لم اترك هذه المناسبة تفوتني .

ثم جثا على ركبةٍ واحدة وقال :

ـ ان خدمتي المتواضعة لا تتعدى حدود الواجب البسيط ، ولكن مادامت رغبة جلالتكم ان تعدّوا ذلك امرا يستحق المكافأة . فإنّ لي الشجاعة الكافية بفضلكم الجم لكي اعرض عليكم هذه الحقيقة : قبل قرابة اربع مئة عام ، كما يعلم جلالتكم ، شجر سوء تفاهم بين جون ملك انكلترة وبين ملك فرنسا ، فتقرر ان يتبارز بطلان ويحسما النزاع . وكان هذان الملكان وملك اسبانيا قد حضروا لمشاهدة المبارزة وابداء الحكم وظهر

البطـل الفرنسي رهيبا مروعا جدا فرفض فرسانا الانكليز ان يتقـارعـوا بالسـلاح معـه . وهكذا فان القضية المهمة كادت ان تكـون ضد العـاهل الانكليزي نتيجة التخلف عن الاشتـراك في المبـارزة . وكـان ، في ذلـك الحين، لورد دو كورسي سجينا في البرج ، وهو اقوى محارب في انكلتـرة ، يرسف في الاغلال ، مجردا من القاب الشرف والممتلكـات ، مدة طويلة ونـاشـدوه فوافق وتقـدم الى المعـركـة . مدججا بالسلاح . وما ان رأى الفرنسي جثته الضخمـة وسمـع باسمـه الشهيـر حتى ولى هاربـا . . .
وخسـر الملك الفرنسي قضيته فاعاد الملك جون الى دو كورسي القـابـه وممتلكـاتـه وقال : قل ما رغبتك ، سوف تنالها ، حتى ولو كلفت نصف مملكتي . فركع دو كورسي على ركبته ، كما افعل انا الآن ، واجاب : اطلب هذا اذن يا مولاي : ان اتمتـع انـا وورثتي بامتيـاز الحمـايـة في حضـرة : ملوك انكلترة ، مادام العرش باقيا : استحضرت هذا الحـدث السـابق ليكـون لي عونـا في ابتهالي الذي التمس فيـه الملك ان يمنحني وورثتي من لطفـه امتيـازا ابديا بالجلوس في حضرة جلالة ملك انكلترة!
ـ انهض ياسير مايلز هندن جعلناك فارسا .
قال الملك ذلـك بوقـار وهـو يمنحـه رتبـة فارس بوسـاطة سيف هندن ، واكمل قوله :

ـ انهض واتخـذ لك مقعـدا . لقـد حققنـا التمـاسـك . ومادامت انكلترة باقية والتاج مستمرا لن يزول هذا الامتياز .
وتمشى جلالتـه وهو يفكر ، والقى هندن نفسـه على كرسي المائدة وهو يقول في نفسه :
ـ لولم افكر بذلك لبقيت واقفا طوال اسابيع ، حتى يشفى الصبي المسكين ويعود اليه صوابه . ثم واصل قوله بعد قليـل ، وهـكـذا اصبحت فارس مملكـة الاحـلام والخيـالات : ما اغـربهـا من وظيفـة ومـا اعجبها ، حقا ، لشخص مثلي انـا . لن اضحـك ـ كلا ، لا سمـح الله ، لان هذا الشيء الـذي لا اســاس له عنـدي هو حقيقي عنده . وبالنسبة الي ايضا فانه ليس شيئا زائفا لانه يعكس في الحقيقة الروح الجميلة الكريمة التي يتحلى بها .

الفصل
(١٣)

اختفاء الامير

واخذ الاثنين توا نعاس ثقيل، فقال الملك:

ـ اخلع هذه الاسمال (ويعني ملابسه»

وخلع هندن ملابس الصبي من دون معارضة او ابداء اي ملاحظة، ووضعه في السرير وغطاه باقحام اطراف الغطاء تحت الفراش، وتلفت في ارجاء الغرفة قائلا في نفسه بشيء من الحزن:

ـ احتل فراشي مرة اخرى ـ فماذا سافعل؟

وانتبه الملك الصغير الى حيرته فبدد ذلك بقوله وهو نعسان:

ـ ستنام امام الباب بالعرض لتحرسه.

ثم غط بعد لحظة في نوم عميق بعيدا عن متاعبه.

ـ كأنه ولد ملكا»! تمتم هندن معجبا «فهويمثل الدور الى درجة مدهشة، معجزة.»

ثم تمدد عند الباب على الارض وقال قا: ـا:

ـ لقد نمت في اماكن اسوأ من هذا سبع سنين. ومن نكران الجميل الذي تفضل به الله الاعتراض على ذلك.

ثم استغرق في نومه عندما بزغ الفجر. ونهض عند الظهر وكشف الصبي النائم قليلا من الوقت وقاس طوله بخيط. فاستيقظ الملك عندما اتم عمله، وشكا له البرد وسأله عما كان يفعل.

ـ انتهى كل شيء يامولاي. لدي عمل بسيط في الخارج ساقضيه واعود فورا، فعد الى نومك ـ انك محتاج اليه. دعني اغطِّ رأسك ايضا ـ ستدفأ في الحال.

وعاد الملك الى ارض الاحلام قبل ان ينتهي كلامه. وتسلل مايلز خارجا، ثم عاد متسللا بعد ثلاثين او اربعين دقيقة ومعه بدلة مستعملة من ملابس الاولاد من قماش رخيص ويبدو عليها شيء من البلى، ولكنها تناسب زي ذلك العام. وجلس وبدأ يفحص ما اشتراه بدقة. وراح يتمتم في نفسه.

ـ كيس مال اكبر يشتري نوعا افضل، ولكن اذا لم يكن المرء يمتلك هذا الكيس الكبير، فعليه ان يقنع مايؤديه له كيس صغير. هذا الثوب جيد ـ بعد اصلاح قليل هنا واصلاح هناك. ولكن هذا افضل مع انه يحتاج الى نفذة او نفذتين لاصلاحه، ايضا... وهاتان جيدتان،

سالمتان، سوف تشيعان الدفء في قدميه الصغيرتين ـ انهما شيء جديد غريب بالنسبة اليه، وفي اغلب الظن انه امضى فصول الصيف والشتاء... حافي القدمين...

وتناول الابرة. وفعل كما فعل الرجال دوما، وكما سيفعلون دوما الى نهاية الزمان ـ مسك الابرة ساكنة وحاول ان يدخل الخيط في سمها (عينها) بعكس ما تفعل النساء.. وقد اخطأ الخيط مراراً فتارة يذهب الى هذه الجهة من الابرة وتارة الى تلك واحيانا الى الاعلى، ولكنه ظل صابرا نتيجة تجاربه السابقة عندما كان يخدم في الجندية. ونجح اخيرا، وتناول الثوب الذي كان في حضنه وبدأ العمل. «دفعت اجرة الفندق ـ وبضمنها ثمن الافطار الذي سيأتي ـ ويمكن لنا بما تبقى ان نشتري حمارين ونتلافى تكاليف اليومين او الثلاثة بين يومنا هذا والايام الكثيرة القادمة..

ـ لقد انتهى ـ عمل رائع، وتم بسرعة. والآن ساوقظه، والبسه البدلة، واصب له الطعام، واطعمه، وسنسرع الى السوق قرب فندق «تابارد» في ساوثورك ـ انهض يامولاي ـ ولا يجيبني ـ ولكنني سأدنس شخصه المقدس اذا لمسته ـ انه في نومه
لا يسمع الكلام. ماذا!

وكشف الغطاء ـ الصبي غير موجود!
ونظر حوله في دهشة وصمت لحظة، وانتبه الى ان
بدلته العسكرية لم تكن موجودة وراح يزبد ويرعد
ويصيح طالبا صاحب الفندق، فدخل في تلك اللحظة
خادم يحمل الطعام.

ـ قل لي ياضلع الشيطان والا فقد حانت نهايتك ابن
الولد!

وادلى الرجل بالمعلومات المطلوبة في جمل مرتعشة
غير مترابطة.

ـ ماكدت تخرج من هنا، ياصاحب السعادة، حتى جاء
شاب راكضا وقال ان سعادتك يطلب مجيء الولد في
الحال، الى رأس الجسر في جهة ساوثورك. فاخذته الى
غرفتك وعندما ايقظ الولد، تمتم الولد قائلا: انكم
تزعجونني في هذا الوقت البكر». ولبس ملابسه الرثة
وذهب مع الشاب قائلا كان من الاليق لوان سعادتك
اتيت اليه بنفسك ولم ترسل غريبا ـ وهكذا.

ـ وهكذا فانك غبي ـ احمق احتال عليك وخدعك ـ
عليك اللعنة والموت لاهلك جميعا! لعله لم يصبه
اذى. سأخرج للبحث عنه. اعد المائدة. ولكن توقف!
لقد رتبت الاغطية كأن احدا راقداً تحتها ـ هل حدث
هذا مصادفة؟

ـ لست ادري ياصاحب السعادة. رأيت الشاب يرتبها ـ
ذلك الذي جاء من أجل الصبي.

ـ الموت له! فعل ذلك ليخدعني ـ وليكسب الوقت
اسمع هل كان الشاب وحده؟

ـ وحده، ياصاحب السعادة.

ـ هل انت متأكد؟

ـ متأكد ياصاحب السعادة.

ـ استجمع افكارك ـ تذكر ـ تمهل يا رجل
فقال الخادم بعد لحظة من التفكير:

ـ عندما جاء كان وحده، ولكنني تذكرت الأن: عندما
سار الاثنان في زحام الجسر، خرج رجل جلف من مكان
قريب عندما التحق بهما ـــ

فصاح هندن وقد نفد صبره وقال مقاطعا:

ـ ثم ماذا؟ هيا قل!

ـ ابتلعهم الجمهور ولم اعد اراهم، وقد ناداني سيدي
الذي كان غاضبا لأن ـــ

ـ اغرب عني يا احمق! ثرثرتك تصيبني بالجنون! توقف
الى اين انت ذاهب؟ الا تستطيع ان تنتظر لحظة واحدة؟
هل ذهبوا نحو ساوثورك؟

ـ نعم ياصاحب السعادة ـ لأنه كما قلت سابقا ـــ

ـ مازلت هنا! وتثرثر ايضا؟ اغرب والا خنقتك!

وخـــرج الخـــادم وتبعـه هنـدن واجتـازه نازلاً السلم كل درجتين معا وهو يتمتم :

ـ انـه الـوغـد القـذر الـذي ادعى انـه ابنه . لقد فقدت، ياسيـدي المجنـون الصغير ـ انها فكرة حزينة مريرة ـ لقد احببتك كثيراً!

كلا! لن تضيع لأنني سافتش الارض جميعا حتى اجدك مرة اخرى .

ايها الطفل المسكين، هنالك فطوره ـ وفطوري، ولكنني لست جائعا الآن ـ فلتأكله الجرذان ـ اسرع، اسرع هذا هو المطلوب .

وعندما كان يشق طريقه بسرعة بين الحشود الصاخبة على الجسر، قال في نفسه مرات عديدة ـ متشبثا بالفكرة كأنها مسألة مريحة عمليا :

ـ تذمر، لكنه ذهب ـ ذهب اجل ذهب لانه ظن ان مايلز هو الـذي طلب اليـه ذلك، ايها الصبي الجميل ـ اعرف جيدا لوان شخصا غيري طلب ذلك لما استمع اليه . .

الفصل
(١٤)

مات الملك ـ يحيا الملك

عندما تنفس الصبح في ذلك اليوم نفسه، تململ توم كانتي من نوم ثقيـل وفتـح عينيه في الظلام، ظل مستلقياً من دون حراك لحظـات معـدودات وهو يحاول ان يحلل الافكـار والانطبـاعات المضطربة في رأسه، وان يمسك بشيء من معنى لها، ثم انفجر في صوت جذل مكتوم :

ـ عرفـت كل شيء، عرفت كل شيء! حمــدا لله، انني مستيقـظ، في حقيقـة الامر تعالي ايتها البهجة، واغربي ايتهـا الاحـزان! هيا، يانان! ويا بيت! القيا فراش القش وعجـلا اليّ حتى القي على مسمعيكمـا اغـرب حلم لا يصـدق ممـا استحضـرته الارواح الليلية! . . . هيا يانان وهيا يابيت! . . .

وظهر الى جانبه شبح باهت، وقال له صوت :

ـ هل لكم ان تتفضلوا باصدار اوامركم؟

ـ اوامر؟ . . وا أسفاه، عرفت صوتك! تحدث ـ من انا؟

- انت؟ مســاء امس كنت اميـر ويلز، واليـوم انت مولاي الجليل ادورد، ملك انكلترة.

وغطى توم راسه بوسائده وهو يتمتم كئيبا:

- اسفاه، انه ليس حلما! خذ راحتك ياسيدي - واتركني لاحـزاني وعـاد توم الى نومـه، وبعد مدة رأى هذا الحلم الجميل. كان الوقت صيفا. وكان يلعب وحيدا في مرج يدعى حقـول الـرجـل الطيب، فظهـر له قزم طولـه قدم واحـدة، له شاربـان طويلان وحدبة، وقال له: احفر عند تلك الجدعة.»

وحفر فوجد اثنتي عشرة قطعة نقود براقة من فئة بني واحد (اربعــة فلوس) انهــا ثروة طائلة! ولكن ذلــك لم يكن افضل شيء في الحلم لان القزم قال له:

- انـي اعــرفــك. انـت صبي طيب وتستحق العــون. ستنتهي محنتـك فقـد حان يوم مكـافأتك. احفر هنا كل يوم سابـع، ستجـد دائما الكنز نفسه، اثنتي عشرة قطعة جديدة مشرقة. لا تقل لاحد احفظه سراً.

ثم اختفى القزم، وطار توم الى قصر النفايات بجائزته قائلا في نفسه.

- ساعطـي ابي كل ليله بنيـا واحــدا (اربعــة فلوس)؛ وسيظن انني شحـذتهـا، وسيفرح بها، ولن يضربني بعد ذلـك. واعطي بنيـا واحدا للقس الطيب الذي علمني،

وسـاعطي الاربعـة البـاقيـات الى امي والى نان وبيت. وسنتـخـلص من الـجــوع والاسمــال، ونتخلص من المخاوف والضياع والمعاملة الوحشية.

ووصـل في احـلامه الى بيته القذر مقطوع الانفاس، وعيناه ترقصان فرحا، والقى اربعاً من القطع النقدية التي لديه في حجر امه وهتف قائلا:

- كلهـا لك! - كلهـا كل واحـد منهـا! لك ولنـان وبيت - كسبتها بشرف، ولم اشحذها ولم اسرقها!!

وضمته امه السعيدة المتوحشة الى صدرها وهتفت:

- لقد تأخر الوقت - يرجى من جلالتكم النهوض؟

لم يكن ذلك هو الجواب الذي يتوقعه. انقطع الحلم وانـفـصم - فاستيقـظ وفتــح عينيــه - كان اللورد الاول المسؤول عن حجـرة النوم في ثيـابـه الغـالية جاثيا على ركبتيـه عنـد السـريـر. وتـلاشى الحلم الكاذب - وادرك الصبي المسكين انـه مازال اسيـرا وملكا. كانت الحجرة مليئة برجال الحاشية لابسين معاطف ارجوانية - وهو لون الحـداد - معهم خدم العــاهــل النبلاء جلس توم في الفـراش وحـدق من وراء الستـائـر الحـريـرية في هؤلاء الرهط البديع.

وبـدأت عملية الباسه الملابس تلك العملية الثقيلة. وكـان افـراد الحاشية يجثون على ركبهم واحداً إثر اخر،

ويقدمون للملك الصغير تعازيهم عن مصابه الاليم، في اثناء القيام بعملية الالباس. تناول، في البدء المسؤول الكبير عن اصطبل الملك قميصا ثم ناوله الى اللورد الاول المسؤول عن كلاب صيد الغزلان، ناوله الى الرجل الثاني المسؤول عن حجرة النوم، الذي ناوله الى رئيس حراس غابة وندسور الذي ناوله الى المسؤول الثالث عن الثياب الذي ناوله الى المستشار الملكي لدوقية لانكستر الذي قدمه حامي خزانة الثياب الذي قدمه الى حامل سلاح الملك الذي ناوله الى حاكم البرج الذي ناوله الى قهرمان (مدير) المنزل الذي ناوله كبير مسؤولي المناشف الذي ناوله الى امير البحر الاكبر الذي ناوله الى رئيس اساقفة كنيسة كنتربري الذي ناوله الى اللورد الاول المسؤول عن حجرة النوم الذي تناول ماقدم اليه والبسه لتوم. تذكر الصبي المسكين المدهوش بعملية نقل دلاء الماء عندما يشب حريق.

كانت كل قطعة من ثياب تمر بالعملية الوقور نفسها، فاصبح توم بذلك ضجرا بهذه المراسيم، مرهقا جدا بحيث شعر بالشكران يتدفق من صدره عندما رأى اخيرا ان جواربه الحرير بدأت الرحلة في تلك المسيرة وعرف ان العملية قاربت الانتهاء. ولكن ابتهاجه كان قبل اوانه، اذ تلقى اللورد الاول المسؤول عن حجرة النوم

الجوارب وكاد على وشك ان يضع رجلي توم فيهما عندما تورد وجهه فجأة واعاد الجوارب بسرعة الى رئيس اساقفة كنتربري بنظرة مدهلة وهمس: «انظر ياسيدي!» مشيرا الى شيء في الجوارب فشحب رئيس الاساقفة ثم احمر وناول الجوارب الى امير البحر وهمس: انظر ياسيدي! وناول امير البحر الجوارب الى لورد المناشف الكبير الذي وجد صعوبة بالغة في لفظ: «انظر ياسيدي. !

وعادت الجوارب ادراجها من حيث اتت في ذلك الخط الطويل - يصحبها ذلك القول المدهش المرعوب: انظر! انظر! حتى وصلت اخيرا الى يدي المسؤول الكبير عن الاسطبل الذي حملق فيهما لحظة ليعرف السبب في ماحصل ثم همس بصوت اجش: يا الهي، مزقة حدثت في الكعب! ليسجن حافظ جوارب الملك في سجن البرج! - ثم مال الى كتف اللورد الاول المسؤول عن كلاب صيد الغزلان ليستعيد قواه المنهارة، عندها جيء بجوارب جديدة ليس فيهما خيوط مقطعة.

ولابد لكل شيء نهاية وكذلك الزمان. كان توم كانتي في حالة النهوض من السرير، فصب الموظف المختص الماء، ورتب الموظف المختص امر التغسيل، ووقف الموظف المختص حاملا منشفة وسارت امور نظافة توم

بهـدوء تدريجي وصـار متأهبـا لمـرحلة تصفيف الشعر الملكي . وعنـدمـا خرج من بين يدي الاستاذ المختص اخيرا بدا شخصا رائعا مثل فتاة فاتنة في معطفه وسرواله من الحرير الارجواني ، وقبعته الارجوانية ذات الريش .

وبعـد الافطـار سار في موكب ملكي يرافقـه ضبـاطه الكبـار وحـرسـه المكـون من خمسين متقـاعـدا حاملين فؤوس الحرب المذهبة ، واتجهوا الى غرفة العرش حيث شرع بالقيـام بامـور الـدولـة . واتخذ خاله لورد هيرتفورد مكانه بجانب العرش لاسداء المشورة الحكيمة لصاحب الفكر الملكي .

وظهـر جماعة الرجالات المشهورين اللامعين الذين عينهم الملك الـراحــل اوصيــاء عليـه ليطلبـوا من توم المـوافقة على بعض القرارات التي تخصهم وقدم رئيس اسـاقفـة كنيسـة كنتـربـري مرسـوم قرار مجلس الوصاية بخصوص مأتم صاحب الجلالة الملك الراحل ، وانتهى بقراءة تواقيع الاوصياء .

لم يكن توم مصغيـا ـ فقـد حيرته عبارة سابقة في هذه الوثيقة . التفت الى لورد هيرتفورد وهمس :

ـ اي يوم قال عيّن يوم الدفن؟

ـ السادس عشر من الشهر القادم يامولاي .

ـ حماقة غريبة . وهل سيبقى في حالة جيدة؟

كان الصبي المسكين جديـدا على التقاليد الملكية . اذ اعتـاد على رؤيـة المـوتى في قصـر النفايات يخرجون بسـرعـة بطـريقـة مختلفة تمام الاختلاف . على ان لورد هيرتفورد طمأن فكره بكلمة او كلمتين

وقـدم امين سر حكـومي امـر المجلس بتعيين يوم غد في السـاعـة الحـاديـة عشرة لاستقبال السفراء الاجانب ويطلب موافقــة الملك والتفت توم بنظــرة متسـائلة الى هيرتفورد الذي همس :

ـ بوقـع جلالتكم بالموافقة سيأتون ليظهروا شعور الحزن والأسى عن ملوكهم بالمصاب الجلل الذي الم بجنابكم وبالمملكة الانكليزية .

وقـام توم بمـا امـر به . وشـرع امين سر آخـر بقراءة تمهيد يتعلق بنفقـات منـزل الملك الـراحـل وظهـر ان خزينتـه كانت خاويـة تقـريباً . واصبح خدمه الاثنا عشر في ورطة ماليـة بسبب نقص الـرواتب التي يستحقون . وتكلم توم بفهم مثير :

ـ سنمضي الى حيــاة الكـلاب ، كمـا هو واضـح . فمن الضـروري ان نتخذ بيتا اصغر. ونسرح العدد الكبير من الخـدم . مادامـوا بغيـر نفـع سوى التأخير. اتذكرني في بيت صغير قائم قبالة السمك عند بلتكزكيت ـ

وحـانـت ضغطـة حادة على ذراع توم لتوقف لسانه من

هذا الكلام الاحمق فتورد وجهه خجلا، ولكن لم يظهر على ملامح الواقفين مايدل على ان هذا الكلام الغريب قد اثار اهتماما او قلقا.

والقى أمين سر اخر تقريرا انه بالنظر لا شتراط الملك الراحل في وصيته الانعام على ايرل اوف هيرتفورد بالدوقية وعلى اخيه سير توماس سيمور برتبة نبيل وعلى ابن هيرتفورد برتبة ايرل، وتبجيل خدم كبار آخرين للتاج بمكرمات مماثلة، قرر المجلس عقد جلسة في السادس عشر من شباط لتقديم هذه المكارم والمصادقةعليها مع قطع من الاراضي.

المناسبة لتلك الشخصيات التي لم يمنحها الملك الراحل تحريريا ولما كان المجلس عارفا برغباته الخاصة بهذا الخصوص فقد فكر ان يمنح سيمور ارضا قيمتها ٥٠٠ باون، وابن هيرتفورد ارضا قيمتها ٨٠٠ باون، وآخرين اراضي ثمنها ٣٠٠ باون ـ وهي بحسب ارادة الملك الحالي.

واوشك توم ان يفشي شيئا من غير تفكير عن مناسبة تسديد ديون الملك الراحل اولا قبل تبديد امواله جميعا، غير ان لمسة في حينها على ذراعه، من هيرتفورد النابه انقذته من حماقته وطيشه.

ولذلك ابدى موافقته الملكية من غير تعليق منطوق ولكن

بشيء كثير من الانزعاج الداخلي وخطرت بباله فكرة سعيدة عندما جلس يتأمل لحظة في ماكان يقوم به من معجزات غريبة متألقة: لماذا لا يجعل أمه دوقة قصر النفايات ويمنحها ضيعة؟ غير ان فكرة مؤلمة سرعان ماجرفت ذلك في الحال، فقد كان ملكا بالاسم فقط، هؤلاء الاشخاص المحنكون والنبلاء العظماء كانوا اسياده، وامه بالنسبة اليهم ليست الا مخلوقا مريض العقل؛ وسوف يستمعون الى اقتراحه باذان غير مصدقة، ثم يرسلون مستدعين الطبيب.

وسار العمل الثقيل بصورة مملة وقرئت التماسات وبيانات ومنحت امتيازات وبراءات، واوراق مطولة حافلة بالتكرار، مضجرة تتعلق بالامور العامة، ثم تنهد توم تنهدة مثيرة للشفقة. وتمتم في نفسه:

ماذا جنيت حتى يبعدني الله عن الحقول والهواء الطلق والشمس المشرقة، ويحبسني هاهنا ويجعلني ملكا ويبتليني بهذا البلاء؟»

وصار راسه المشوش ينوس من النعاس، ثم سرعان مامال على كتفه. ثم خيم صمت تام حول الطفل المهاجع في دنيا الكرى. وكف حكماء المملكة عن مشاوراتهم وتداولهم.

وامضى توم ساعة ممتعة، في ضحى ذلك اليوم

بترخيص من الموكلين بحمايته ـ هيرتفورد وسيمر
جون، قضاها مع ليدي اليزابيث وليدي جين كري
الصغيرة بالرغم من القهر الذي اصاب نفسي هاتين
الأميرتين نتيجة الضربة العنيفة التي حلت بالقصر
الملكي . وفي نهاية الزيارة كانت «اخته الكبرى» التي
اصبحت فيما بعد «ميري السفاكة» في التاريخ قد
اصابت قلبه بقشعريرة عندما قابلته مقابلة وقور ليس فيها
الا حسنة واحدة، بنظره، هي ايجازها ثم خلى لنفسه
لحظات قليلة ثم ادخل عليه صبي نحيف في حوالي
الثانية عشرة من عمره، في ملابس سود ـ سترته وسرواله
وكل شيء، عدا الياقة البيضاء والاكمام عند الرسغين.
ولم يكن يحمل شارة حداد الا عقدة من شريط ارجواني
على كتفه . وتقدم مترددا وراسه منحنيا وحاسرا، وجثا
على ركبة واحدة امام توم .

جلس توم ساكتاً وتأمله برزانة ووقار لحظة واحدة. ثم
قال :

ـ انهض ايها الغلام . من أنت؟ وماذا تريد؟

نهض الولد ووقف ممشوقا في وضع الاستراحة ولكن
تلوح على وجهه مخايل القلق . وقال :

ـ لا ريب انكم تتذكرونني، ياسيدي، انا كبش فدائكم
(صبي يعاقب بالسوط عن اغلاط الامير)

ـ كبش فدائي؟

ـ نعم، ياصاحب الجلالة . انا همفري ـ همفري مارلو

وادرك توم ان امامه شخصا عينه له الموكلون
بحمايته . كان الموقف حرجا ماذا عليه ان يفعل؟ ـ
يتظاهر انه يعرف هذا الغلام ثم ينكشف بكلامه انه لم
يسمع به من قبل؟ كلا، هذا لا ينفع واسعفته فكرة :
احداث مثل هذه قد تتكرر وعند الضرورة الملحة يمكن
ان يستدعي هيرتفورد وجون بعيدا عنه، لانهما عضوان
في مجلس الوصاية، فلعل من الخير له استنباط خطة
بنفسه لمعالجة المتطلبات والضرورات . اجل انها
طريقة حكيمة ـ فليجرب، أمره على هذا الولد ويرُ مدى
النجاح الذي قد يحققه ومسد جبينه متحيرا، لحظة
واحدة او لحظتين، وقال فورا :

ـ يبدو اني تذكرت الان قليلا ـ ولكن ذاكرتي اخذت
تخونني جراء المعاناة . ـــ

ـ اسفاه ياسيدي المسكين !

قال كبش الفداء متأثرا، واضاف في نفسه قائلا . انه
في الحقيقة كما يقولون ـ ذهب عقله ـ اسفاه عليه،
ولكن لتحل بي النكبات ـ كيف نسيت ! قالوا لي يجب
الا يظهر علي اني لاحظت اي خلل فيه .

ـ من الغريب ان ذاكرتي اخذت تعبث بي هذه الايام .

ولكن لا يهمك ذلك ـ سأغذ السير ـ كلمة صغيرة قد تخدم مفتاحا لحل لغز وتعيد لي الاشياء والاسماء التي ضاعت مني فهات ما عندك من قول.

ـ انها مسألة قليلة الاهمية، يا مولاي، وسوف المع اليها. قبل يومين عندما اخطأ جلالتكم ثلاث مرات في اليونانية ـ في الدروس الصباحية ـ اتذكر ذلك؟

ـ نـ. . .ـعم ـ اظن اني اتذكر. [لا يعدو ذلك اكثر من كذبة ـ اذ انني لم ادرس اليونانية مطلقا، فلم اخطيء ثلاثا، بل اربعين مرة].

نعم، اتذكر ذلك الآن ـ واصل كلامك.

ـ عاهد الاستاذ الذي غضب، على ما اسماه عملا غبياً قذراً، ان يجلدني عن ذلك وـــ

ـ يجلدك! ولماذا يجلدك عن اخطائي؟

قال توم مدهوشاً:

ـ لقد نسي جلالتكم مرة اخرى. انه يجلدني دائما عندما تخطيء في دروسك.

ـ صحيح، صحيح ـ نسيت ذلك. علمني انت بصورة خاصة، واذا فشلت فسيقول انك خبت في مهمتك وـــ

ـ اوه، يامولاي، ماهذا الكلام؟ انا اصغر خدمك، اتجرأ على تعليمك؟

ـ وما وجه اللوم في ذلك؟ وما اللغز؟ هل اصابني الجنون



حقا، ام انت المجنون؟ اشرح لي ذلك ـ هيا تكلم.
ـ ولكن يا جلالة الملك الطيب، ذلك لايحتاج الى تفسير. لا يمكن لاي احد ان يزور شخص اميرويلز المقدس بضربات العصا، فاذا ما اخطأ، انا اتلقى الضربات بدله، فهي وظيفتي واسباب رزقي.

وحملق توم في الولد الهادىء قائلا في نفسه: انه لشيء عجيب ـ اغرب مهنة واعجبها. واني اتعجب لماذا لم يستأجروا صبيا ليمشطوا له شعره ويصففوه بدلا عني. اتمنى من الله ان يقوموا بذلك! ـ واذا ماقاموا بذلك، فاني ساتلقى جلداتي بنفسي، واحمد الله على هذا التبديل.

ثم قال بصوت مسموع:
ـ وهل ضربت ياصديقي المسكين بناء على هذا العهد؟
ـ لا، ياصاحب الجلالة الطيب، حددوا هذا اليوم لعقوبتي، ولعلها ستلغى، لانها لا تليق بالحداد الذي المّ بنا. وانا لا ادري، لذلك تجرأت وأتيت الى هنا لاذكر جلالتكم بعهدكم لتشفعوا لي —
ـ لدى الاستاذ؟ لانقاذك من الجلد.
ـ آه، انك تتذكر!

ـ ذاكرتي اخذت بالتحسن، كما ترى. فليطمئن فكرك.

ولن يجلد ظهرك ـ سوف اوليه عنايتي.
ـ شكرا، يا مولاي الطيب! لعلي تماديت كثيرا الآن، ولكن ـ قال الولد ذلك وركع على ركبته مرة اخرى.

ولما رأى همفري يتلكأ شجعه ان يواصل كلامه قائلا له: انه الآن في حالة تدعو الى الكرم.
ـ اذن سوف ابوح بما في صدري قريباً الى قلبي. ولماذا لم تعد اميرويلز، بل الملك، فانك تستطيع ان تصدر الاوامر كما تشاء، ولن يقول لك احد: لا فليس من المعقول ان تكرر نفسك بالمدرسة المزعجة، بل ان تحرق كتبك وتوجه فكرك نحو اشياء اقل ضجراً. وعند ذلك سوف اتحطم، وكذلك اخواتي اليتيمات معي!
ـ تتحطم؟ وكيف؟
ـ ظهري هو مصدر رزقي، يا جلالة الملك المعظم! فلو تعطل عن ذلك فانني ساهلك جوعا. واذا انقطعت عن الدراسة، فان وظيفتي ستلغى، اذ لن تحتاج الى كبش الفداء. لا تطردني!

تأثر توم بهذا الوضع المؤلم وقال بشيء كثير من الكرم الملكي الحق:
ـ لا تكدر نفسك بعد هذا. ستكون وظيفتك دائمة لك ولنسلك، الى الابد.

ثم لمس الصبي على كتفه بصفحة سيفه وهتف به:

انهض ياهمغري مارلو، ستكون لك وظيفة كبش الفداء في البيت الملكي الانكليزي! فاطرح الحزن جانبا. سوف اعود الى كتبي وادرس دراسة سيئة لكي تتضاعف اجورك ثلاثة اضعاف عن حق وتزداد مهمات وظيفتك كثيرا .

واجاب همفري بحماسة :

ـ شكرا يا انبل الأسياد، هذا السخاء الملكي يفوق كثيرا احلامي عن الثروة . سأكون سعيدا طوال حياتي، وكذلك بيت مارلو بعدي .

كان توم ذكيا جدا فادرك ان امامه صبيا يمكن ان يكون نافعا له ، فشجع همفري على الحديث ولن يكون مكرها على ذلك وكان مسرورا في اعتقاده انه يساعد توم في «شفائه»، لانه ما ان ينتهي من تذكير توم بالاشياء الخاصة من تجاربه ومغامراته في صف الدراسة الملكي وفي اماكن اخرى في القصر، فانه يلاحظ ان توم كان قادرا على «استذكار» الظروف بصورة واضحة جدا . وبعد ساعة من الزمان وجد توم نفسه مزودا بمعلومات مفيدة جدا بخصوص شخصيات وقضايا تتعلق بالبلاط ، لذلك قرر ان يستخلص المعلومات والارشادات من هذا المصدر يوميا . واصدر امرا بالسماح لهمفري بالدخول عليه في صالة المقابلات الخاصة ، بشرط ألاّ يكون

جلالته مشغولا مع اناس آخرين .

وما ان خرج همفري حتى وصل هيرتفورد يحمل قلقاً جديدا لتوم وقال ان لوردات المجلس يخشون ان تكون الحالة الصحية المرهقة ـ للملك قد تسللت الى الخارج فقرروا ان من الحكمة والخير ان يبدأ جلالته تناول طعامه علنا بعد يوم اويومين ، فيطمن مظهره الصحي العام ومشيه النشيط مصحوبا بالهدوء ورباطة الجأش في السلوك والتصرف الممتازين ، سيبعث الطمأنينة في نفوس الجمهور ـ في ما اذا تسربت اية شائعات شريرة الى الخارج ـ وذلك افضل من اي خطة يمكن التفكير فيها واستنباطها .

ثم تقدم الرجل بشكل رقيق جدا ليرشد توم بخصوص العادات والطقوس الملائمة ، للمناسبة الحكومية تحت ستار تذكيره بخصوص الاشياء المعروفة لديه ولكن ظهر ان توم لم يكن محتاجا الا لمساعدة طفيفة بهذا الخصوص مما ابهجه كثيرا ـ اذ افاد من همفري في هذه الناحية ، لان همفري ذكر انه سوف يتناول طعامه علنا بعد أيام قلائل . مما سمعه مما يسري بسرعة البرق في البلاط . على ان توم احتفظ في نفسه لهذه المعلومات . ولما رأى اللورد ان الذاكرة الملكية قد تحسنت كثيرا ، غامر بالقيام باجراء اختبارات قليلة

عليها، بطريقة عرضية، لكي يجد مدى التحسن الذي طرأ في سبيل تقدمها. وكانت النتائج مفُرحة، هنا وهناك، في مواضع ـ مواضع ظلت مؤثرات همفري باقية ـ وكان اللورد، مسرورا فرحا، على العموم، فتشجع ان يقول بصوت مفعم بالامل:

ـ هل لي يا صاحب الجلالة ان اقتنع لو ان جلالتكم يستحث ذاكرته قليلا، وبذلك سيحل معضلة.. . «الختم الاعظم». . الذي كان فقدانه ذا اهمية بالأمس ولم يعد كذلك اليوم، مادام انتهى نفعه مع حياة مولانا الملك الراحل. فهل لجلالتكم ان تحاولوا التذكر؟

وذهل توم ـ الختم الاعظم شيء لم يكن مطلقا وعارفا به اطلاقا. وبعد تردد قصير، رفع بصره ببراءة وسأل:

ـ وما شكله ايها اللورد؟

واخذ اللورد، دونما وعي منه، يتمتم في نفسه: «اسفاه، لقد طارت ذاكرته مرة اخرى! ـ ولم يكن من الحكمة دفعه الى حالة من الاجهاد والتوتر.» ثم غير الموضوع برشاقة وخفة الى مسائل اخرى، من اجل ابعاد «الختم» المشؤوم عن تفكير توم ـ وقد نجح في مسعاه بيسر.

الفصل
(١٥)

توم ملكا

حضر في اليوم التالي السفراء الاجانب مع حاشياتهم الرائعة. واستقبلهم توم وهو جالس على العرش في حالة رهيبة. وقد ابهجته ابهة المنظر والهبت خياله اول الامر، ولكن صف المستقبلين كان طويلا وكئيبا وكذلك كانت اغلب الخطابات. وكان توم يقول الكلمات التي يضعها هيرتفورد في فمه بين حين وآخر. وحاول توم جاهداً ان يبلي بلاء حسناً غير أنه كان جديداً على مثل هذه الاشياء، ومنزعجاً جدا فلم يحقق الا نجاحا جيدا نوعا ما. كان يبدو مثل ملك تماما، غير انه كان عاجزا على الشعور بشعوره. كان مسرورا من صميم قلبه عندما انتهت المراسيم.

ضاع القسم الاكبر من النهار ـ كما قال في فكره ـ في اعمال تتعلق بوظيفته الملكية. على انه، تمتع بساعة

مع الصبي كبش الفداء التي عدّها مكسباً صافياً، مادام قد حصل فيها على تسليته ومعلومات نافعة .

وحل اليوم الثالث من تنصيب توم ملكا وانقضى مثل بقية الايام ولكن انقشعت سحب الاكفهرار في طريقة من الطرق ـ فقد تعود قليلا على ظروفه ومحيطه . ولولا شيء واحد بغيض لرأى اليوم الرابع يأتي دونما مضايقة مهمة ـ تناول الغداء علنا الذي سيبدأ في ذلك اليوم .

كان البرنامج حافلا بامور اعظم ـ عليه في ذلك اليوم ان يترأس مجلسا سوف يتلقى اراءه واوامره بخصوص السياسة التي ستتبع تجاه امم مختلفة اجنبية منتشرة قريبا وبعيدا في ارجاء الكرة الارضية؛ وفي ذلك اليوم ايضا سيتم اختيار هيرتفورد رسميا الى وظيفة الوصي على العرش. وعينت اشياء اخرى ذات اهمية في اليوم الرابع ايضا، غير انها جميعا لم تكن ذات اعتبار لدى توم قياسا الى محنة تناوله الغداء وحده وجمهور كبير، وعيون كثيرة مركزة عليه، ومجموعة كبيرة من الافواه تهمس بالتعليقات على تصرفاته وعلى اغلاطه، اذا ما أصابه النحس فارتكب شيئا منها .

وعلى اي حال، فلم يكن ثمة شيء يستطيع ان يمنع اليوم الرابع، وهكذا جاء فوجد توم خائرا، ذاهلاً، واستمرت تلك الحال، ولم يكن بوسعه ابعاده عنه .

ومضت واجبات الصباح الاعتيادية بطيئة عليه فارهقته . وعاوده الشعور بالسجن ثقيلاً عليه .

وفي أواخر الضحى كان في قاعة مقابلات واسعة، يتحدث مع اللورد هيرتفورد وينتظر ازوف الساعة الموعودة لاداء مراسيم زيارة يقوم بها عدد معتبر من كبار الموظفين والحاشية .

وبعد برهة وجيزة سار توم الى احد الشبابيك فاعجبته الحياة والحركة على الطريق العام وراء ابواب القصر ـ ولم ذلك اعجابا عاطلا بل لهفة من صميم القلب ان يشارك فيها شخصيا في حركتها وحريتهاعندما رأى طليعة غوغاء يصيحون ويسخرون كانوا خليطا من رجال ونساء واطفال من اوطأ الفئات واشدها فقرا يسيرون في ذلك الطريق .

فهتف بكل الفضول التي تمتلك صبيا في مثل هذه الاحداث وقال :

ـ ليتني اعرف ما الأمر!

فاجاب اللورد باحترام شديدووقار:

ـ انتم الملك! هل لجلالتكم ان تسمحوا لي بالتصرف؟

ـ اوه، بكل بهجة، نعم، بكل سرور، نعم!

هتف توم منفعلا واضاف قائلا في نفسه بشعور من الرضا

الحيوي :

ـ ليست الملكية، في الحقيقة، كلها امرا كئيبا ـ بل فيها مايعوض ذلك وفيها، ماهو نافع مريح .

واستدعى اللورد غلاما وارسله الى رئيس الحرس بالامر الآتي :

ـ ليتوقف الرعاع ويجري تحقيق بخصوص مناسبة حركتهم هذه . بامر الملك!

وبعد لحظات معدودات خرج صف طويل من الحرس الملكي مدججين بالسلاح البراق عند الابواب واصطفوا امام الجمهور على الطريق العام وعاد مراسل ليقدم تقريرا ان الحشد كانوا يتبعون رجلا وامرأة وفتاة مساقين الى حكم الاعدام عن جرائم اقترفت بحق السلم وهيبة البلاد وأمنها .

الموت ـ الموت البشع ـ لهؤلاء المنكوبين الفقراء قطعت الفكرة نياط قلبه . وهيمنت عليه روح العاطفة، بالرغم من جميع الاعتبارات . ولم يفكر بالقوانين المنتهكة، اوبالحزن او الخسارة التي سددها هؤلاء المجرمون الى ضحاياهم، ولم يستطع ان يفكر بشيء سوى المشنقة والمصير الرهيب المعلق فوق رؤوس المحكومين .

وجعله همه ينسى لحظة انه لم يكن الا ظل ملك، وقبل

ان يعرف ذلك، اصدر امرا من غير تفكير:

ـ اجلبوهم الى هنا!

واحمر وجهه كثيرا واراد ان يعتذر بشيء عما بدر منه، غير انه لا حظ ان امره لم يؤد الى دهشة في نفس اللورد او الغلام، فكبت الكلمات التي اوشك التلفظ بها . وادى الخادم انحناءة احترام بطريقة طبيعية جدا وتراجع الى الخلف وخرج من الحجرة لنقل الامر . ووجد توم في نفسه شعاعا متوهجا من الاعتداد بالنفس وشعورا متجددا من الحسنات المكافئة في الوظيفة الملكية . فقال في نفسه: حقا انه يشبه ما اعتدت ان اشعر به عندما كنت اقرأ حكاية القس العجوز، واتصور نفسي اميرا يصدر الاوامر للجميع قائلا: افعل هذا، افعل ذلك . » في الوقت الذي لم يجرؤ احد ان يمتنع او يتلكأ في اداء ارادتي .

وسمع بعد برهة وجيزة مشي الرجال العسكريين النظامي يقترب ودخل المتهمون إلى حضرته تحت مسؤولية نائب عمدة ويرافقه ضابط منتخب من الحرس الملكي . وركع الموظف المدني امام توم ثم وقف جانبا، وركع المتهمون الثلاثة ايضا . وظلوا راكعين واتخذ الحرس موقعا وراء عرش توم . وتفحص توم المتهمين بكثير من الفضول وحب الاستطلاع . واثار شيء في ملابس

الـرجـل او مظهـره ذكـرى غامضـة في نفسه : «اظن اني رأيت هذا الـرجـل قبـل هذا . . . ولكن لا ادري متى واين . . » هكـذا فكـر في نفسـه . . ورفـع الـرجـل عينيه سريعا واطرق سريعا ، اذ لم يتحمل مهابة السلطة العب الـرهيبـة ، ولكن اللمحـة الكـاملة التي القـاهـا توم على وجهــه كانت كافيــة . وقــال في نفســه : المسألـة الآن واضحة . هذا هو الغريب الذي انتشل كايلز ويت من نهر التيمز وانقذ حياته في ذلك اليوم العاصف القارس ، اليوم الاول من السنـة الجـديـدة ـ عمـل طيب وشجـاع ـ كان يعطف على الضعفاء ويتلقى هذا المصير المحزن .

وامـر توم ان تبعـد المـرأة والفتـاة عن حضـرته قليلا ؛ ثم خاطب نائب العمدة قائلا :

ـ ايها السيد الطيب ، ماذا اقترف هذا الرجل؟

وجثا الموظف على ركبتيه واجاب قائلا :

ـ مولاي صاحب الجلالة ، قضى على حياة شخص بالسم .

وكـان عطف توم على المتهم واعجابه به لعمله الجريء بانقاذ ولد من الغرق قد اصابه بصدمة مدمرة .

فسأله : وهل ثبت الشيء عليه؟

ـ اجل ياسيدي بكل وضوح .

وتنهد توم وقال :

ـ خذوه ـ انـه يستحق المـوت . وممـا يؤسف له انـه كان شجاعا ـ لا ، بل اقصد انه يبدو كذلك!

وشبـك المتهم يديـه معـا بحركة مفاجئة وعصرهما يائساً وهو يبتهل متوسلا الى «الملك» بعبارات مكسرة مرتعبة :

ـ يا مولاي الملك ، لا يمكنـك التحسـر على مافـات ، ولكن اشفق عليّ! اني بريء ـ ولم يكن ما وجه اليّ من اتهـام قد ثبتت حقيقتـه ـ ومـع ذلك فاني لا اتحدث عن ذلك . لقد صدر الحكم ضدي ولعله لا يحتمل التغيير ، وانني في لجـة يأسي التمس عطيـة من نعمـائـك لان حكمي اعظم مما اطيق .

نعمة منك وبركة يا مولاي الملك! ارجو عطفك الملكي ان تقبل صلاتي ـ وتصدر امرا بشنقي!

ذهل توم اذ لم تكن تلك النتيجة التي كان يبحث عنها .

ـ ماذا جرى؟ عطية غريبة! الم يكن ذلك هو الحكم المطلوب؟

ـ لا يا مولاي الطيب ، لم يكن كذلـك! صدر الامـر ان أسلق حيا!

وكادت المفاجأة الرهيبة البشعة في سماع هذه الكلمات ان تجعـل توم يثب من عرشـه . ومـا ان تمالـك اعصابه حتى صاح :

ـ لك رغبتـك ايتهـا النفس المسكينـة ! وحتى لو سممت

مئة انسان فلن تقاسي من هذا الموت التعيس.
واحنى المتهم راســه الى الارض وتـدفقت كلمـات الشكر ـ وانتهى بما يلي :
ـ اذا اصابتك مصيبة ـ لا سمح الله ـ فعسى الله ان يتذكر عطفك عليّ هذا اليوم ويعوضك خيرا.
فالتفت توم الى هيرتفورد وقال :
ـ ايعقـل ، ياسيـدي اللورد، ان يكـون ثمة مبرر للحكم البشع على هذا الرجل؟
ـ بحكم القانون، يا صاحب الجلالة، على المتهمين.
ـ كفى، ارجوك ياسيدي، لا استطيع تحمل ذلك!
صاح توم وغطى عينيه بيديه ليحجب الصورة. واضاف قائلا :
ـ التمس سيـادتـك ان يؤمـر بتبـديـل هذا القـانون ـ وألاّ يحكم على المخلوقات البائسة بمصائبه.
وبـانت علامـات الرضا العميق على وجه اللورد لانه كان رجـلا رؤوفـا كريمـا ـ وهو امر لـم يكن شائعا بين ابناء طبقته في ذلك العهد الرهيب. وقال :
ـ كلمات جلالتكم النبيلة حتمت هذا الحكم. سيذكرها التاريخ منسوبة الى شرف بيتكم الملكي.
وكـان نائب العمـدة على وشـك اخذ المتهم، عندما اشار توم بالانتظار، ثم قال :

ـ سيــدي الطيب، اود أن اتمعن في القضيـة اكثـر. قال الرجل ان عمله لم يجرِ تحريه جيدا.
قل لي ماذا تعرف.

ـ ياصاحب الجلالة، ظهر عند المحاكمة ان هذا الرجل دخل بيتا في قرية ازلنكتن حيث كان يرقد احد المرضى ـ وشهـد ثلاثـة قائلين:ان ذلـك كان في السـاعـة العـاشرة صبـاحـا، وقال اثنان كان ذلك بعدها ببضع دقائق ـ كان المـريض وحيـدا انـذاك ونائما ـ وخرج الرجل فوراً وسار في طريقه. مات المريض بعد ساعة وقد مزقه التشنج والتقيوء.
ـ هل رآه احد يعطيه السم؟ وهل وجد السم؟
ـ لا والله يا مولاي.
ـ اذن كيف يعرف المرء انه اعطي سما؟
ـ يا صاحب الجلالة، شهد الاطباء ان الانسان لا يموت بمثل هذه الاعراض الا بالسم.
هذه شهادة لها وزنها في ذلك العصر الساذج. وادرك توم طبيعتها المرعبة، فقال :
ـ الطبيب يعـرف مهنتـه ـ وفي الأغلب هو مصيب. ولكن المسألة فيها سوء نظر بخصوص هذا الرجل المسكين.
ـ ومـع ذلـك ليس هذا كل شيء، ياصـاحب الجـلالة.

هناك ماهو اكثر واسوأ . فقد شهد كثيرون ان ساحرة مرت بالقرية ولا يعلم احد اين ذهبت قد تكهنت وقالت لهم بصورة خاصة ان المريض سوف يموت بالسم - بل اكثر من ذلك ، ان غريبا سوف يقدمه له - غريب له شعر بني ، ملابسه ممزقة وزيه اعتيادي . وان هذا المتهم تنطبق عليه تلك الصفات تماما . ومما اعطى تلك القضية وزنها المعتبر، يا جلالة الملك ، هو التكهن بها :

كانت محاورة ذات قوة هائلة في ذلك اليوم الخرافي .

شعر توم ان الشيء قد انتهى ، لو كانت الشهادة تستحق شيئا ، وقد ثبتت جريمة الرجل ، ومع ذلك منح المتهم فرصة للكلام :

- اذا كنت تعرف شيئا لمصلحتك فتكلم .

- ذلك لا ينفع شيئا ، يامليكي . اني بريء ، ولكنني لا استطيع اظهاره ليس لدي اصدقاء ، وإلا لاستطعت ان اثبت انني لم اكن في ازلنكتن في ذلك اليوم ، ويمكنني ايضا ان أبين انهم في تلك الساعة يستطيعون تحديد مكاني على بعد اكثر من اربعة اميال عنها ، في ووبنك اولد ستيرز .

وثمة شيء آخر يا مليكي ، فاني استطيع ان اقول انني انقذت صبيا من الغرق بينما هم يقولون انني اخذت روح انسان - انقذت صبيا من الغرق ـــ

- كفى ! ايها العمدة ، بين لي اليوم الذي وقعت فيه الحادثة !

- في الساعة العاشرة أو بعدها بدقائق قليلة من اليوم الاول للسنة الجديدة ، الشهير جدا .

- ليطلق سراح المتهم - هذه ارادة الملك . !

وسرت حمرة الخجل بعد تلك الصيحة فصار يداري قلة احتشامه بقوله :

- انه ليغيضني ان يشنق رجل بشهادة عاطلة تافهة ، رعناء .

وسرت همهمة اعجاب في الحشد الحافل بالذكاء والشجاعة اللتين ابداهما توم . وفي الوقت الذي امتلأ الجو بالاستحسان ، لم يسمع توم من ذلك الا قليلا .

وكان لذلك تأثير جيد فيه مما جعله في راحة عظيمة وتوجيه نظامه بشيء كثير من الاحساس السار.

على انه كان متلهفا لمعرفة نوع الاثم الذي اقترفته المرأة والفتاة الصغيرة وجلبت المرأتان المرعوبتان الباكيتان بامر منه امامه فاستعلم من العمدة :

- ماذا فعلت هاتان المرأتان؟

- جلالة الملك ، لقد اتهمتا باقتراف جريمة سوداء ، وقد ثبت ذلك بصورة واضحة ، فقرر القضاة بناء على ذلك ووفق القانون ان تشنقا ، اذ انهما باعتا نفسيهما الى

الشيطان ـ هذه هي جريمتها .

سرت رعـدة في جسـد توم . فقد علموه ان يمقـ

النـاس الـذين يقومون بمثل هذه الاشياء الشريرة . ولكـ

لم يحرم نفسه من الاستمتاع باشباع فضوله لمعرفة الا

كله . فسأل :

ـ اين وقع ذلك؟ ومتى؟

ـ في منتصف ليلة من كانـون الاول ـ في كنيسـة مهد

ياصاحب الجلالة .

وسرت رعدة اخرى في جسد توم .

ـ ومن كان حاضرا؟

ـ هاتان الاثنتان فقط! ياصاحب الجلالة ـ وذلك الآخر

ـ وهل اعترف هؤلاء؟

ـ لا ، لم يعترفوا يا مولاي ـ انهم ينكرون ذلك .

ـ اذن ، ارجوك كيف عرف ذلك؟

ـ رآهم بعض الشهـود يتسكعـون هنـاك ، ياصـاحب الجـلالـة . فأثار ذلـك الشكـوك وعززتها حقائق رهيبة واثبتتهـا ، وخصـوصـاً ، مايتعلق بالشهـادة انهمـا بما تمتلكـان من قوة شريـرة استطـاعتـا ان تستحضـرا وتثير عاصفـة اتلفت المنطقة المحيطة جميعا . وقد شهد اكثر من اربعين شاهدا على العاصفة . ويمكن للمرء ان يجد الفا لأن الجميع يتذكرون ذلك لأنهم جميعا عانوا من

ويلاتها .

ـ لا ريب انها مسألة خطيرة .

وراح توم يقلب هذه النذالة السوداء في ذهنه برهة ثم سأل :

ـ وهل عانت المرأة ايضا من العاصفة؟

واومأت رؤوس رجـال مسنين عديـدة علامـة الاعتـراف بحكمة السـؤال .

ولكن العمـدة لم يرُ في السؤال شيئـا ذا شأن فاجـاب ببساطة مباشرة :

ـ نعم ، بكـل تأكيـد يا صاحب الجـلالـة وكمـا هو ثابت للجميع . اكتسحت العاصفة بيتها وتركتها وابنتها بلا مأوى .

ـ اظن ان القـوة التي تؤدي الى ايـذاء نفسهـا ثمنها باهظ فقد خدعت اذا كانت قد دفعت لذلك فلسا واحدا . فاذا دفعت نفسهـا وطفلتهـا ثمنـا لذلـك فهي مجنـونـة ، واذا كانت مجنونة فهي لا تعرف ما تفعله ، فهي لذلك غير مذنبة .

وكفت المتهمـة الكبـرى عن النشيـج وكـانت تتـابـع كلمـات توم باهتمـام وانفعـال وامـل متزايد . ولاحظ توم ذلـك ، فازداد عطفـه عليهـا في حالتهـا هذه المحفـوفـة بالخطر، وهي بلا اصدقاء . وسأل فورا :

- ماذا فعلتا لجلب العاصفة؟
- بخلع جواربهما، يا مولاي.
ادهش ذلك توم والهب حب استطلاعه فسأل متلهفا
- امر عجيب! وهل لذلك هذا التأثير المرعب دائما؟
- دائما يا مولاي - في الاقل اذا رغبت المرأة في ذلك وتلفظت بالكلمات المطلوبة اما في فكرها او بلسانها.
والتفت توم الى المرأة وقال بحماسة متهورة:
- استعملي قوتك - اود ان ارى عاصفة!
وسرى الشحوب فجأة في وجوه المجتمعين المؤمنين بالخرافات، وعمت رغبة عامة غير معلنة في الخروج من المكان - وقد غاب كل ذلك عن توم الذي لم يكن ملتفتا الى شيء سوى الجائحة المقترحة. ولما رأى نظرة حائرة مدهشة على وجه المرأة اضاف قائلا بانفعال:
لا تخافي فلا لوم عليك، بل سيطلق سراحك ولن يمسك بك احد. فاستعملي قوتك.
- يامولاي الملك، اني لا امتلك اي قوة - لقد اتهمت اتهاما باطلاً.
- مخاوفك تمنعك. فليطمئن فؤادك، ولن يصيبك اي اذى فاثيري عاصفة - ولا يهم مهما كانت صغيرة - ولا اطلب عاصفة كبيرة او ضارة، بل افضل العكس - افعلي ذلك وحياتك في امان - ستخرجين حرة، مع ابنتك،

تحملين عفوا من الملك آمنة من الاذى والحقد من اي شخص في المملكة.

وسجدت المرأة، واحتجت دامعة العينين، قائلة انها لا تمتلك اي قوة للقيام بهذه المعجزة، والا لكانت مسرورة لانقاذ حياة ابنتها وحدها، راضية ان تفقد حياتها، طاعة لامر الملك الذي يعد هبة نفيسة حلت بنا.

والح توم وظلت المرأة متمسكة برأيها. ثم قال اخيرا:
- اظن ان المرأة قالت صدقا. ولو كانت امي في مكانها ووهبها الشيطان وسائله فانه لن تبقى لحظة واحدة من دون استدعاء عاصفة وتقلب الارض جميعا خراباً.. في سبيل انقاذ حياتي المصادرة ثمنا لذلك! والنساء الاخريات لا يختلفن عن ذلك. انت حرة ايتها الام الصالحة - انت وابنتك - لانني اظنك بريئة. فاذهبي في سبيلك بسلام.

الفصل
(١٦)

الغداء الرسمي

ازفت ساعة الغداء ـ ومن الغريب ان الفكرة لم تسبب الا قلقاً طفيفاً لدى توم. ولم يكن ذلك مصحوباً باي شيء من الرعب. فقد عززت تجارب الصباح الثقة في نفسه بصورة رائعة.

لنسرع نحن ذوي الامتياز الى بهو المآدب الكبير ونلقِ نظرة على الامور الجارية فيه حيث يتأهب توم الى المناسبة الجليلة، البهو فسيح ذو اعمدة مذهبة واخرى ذات تيجان وقواعد ناتئة من الجدران، وجدرانه وسقوفه مزينة بالرسوم. يقف عند الباب حراس طوال كأنهم التماثيل، في ثياب نفيسة وبدلات بديعة، يحملون الرماح.

وفي شرفة عالية تدور حول البهو جميعا فرقة موسيقية وجمهور من المدنيين من كلا الجنسين في ملابس فاخرة مزخرفة بهية. ، وفي وسط البهو، على منصة مرتفعة،

نصبت مائدة توم .

ونسمع في الممرات التي يتردد فيها الصدى صوت بوق وصيحة غير واضحة : «المجال للملك ! طريق لجلالة لملك المعظم ! » . وكانت هذه الأصوات تكرر باستمرار ـ وصارت تقترب اكثر فاكثر ـ وصدحت في وجوهنا انغام العزف العسكري ودوت الصيحة : افسحوا في المجال للملك ! » وظهر في تلك اللحظ الموكب المتألق ودخل من الباب في مسيرة نظامية واليك وصفه :

دخل في المقدمة شخصيات وبارونات وايرلات وفرسان ربطة الساق ، في ملابس نفيسة ، حاسرين ، ثم جاء بعدهم المستشار بين اثنين ، احدهما يحمل الصولجان الملكي ، والآخر يحمل سيف الدولة في غمد احمر ، مرصّعاً بزهور الزنبق الذهبية ، راسه نحو الاعلى . ثم جاء الملك نفسه بعدهم ـ الذي صدح اثنا عشر بوق وقرعت كثير من الطبول تحية ترحيب به لدى ظهوره ، ونهض كل من كان في الشرفات وهتفوا : «حفظ الله الملك ! » وجاء بعده نبلاء لهم علاقة شخصية به ، ويس على يمينه وعلى يساره حرس الشرف حاملين فؤوس الحرب المذهبة .

كان كل شيء رائعا بهيجا . وتعالى نبض توم ، واشرق

نور سعيد في عينيه . وسار برشاقة ذلك لانه لم يكن يفكر كيف يتصرف ، فقد كان مسحورا وعقله مشغولا بالانوار البهيجة والاصوات السعيدة المحيطة به ـ وفضلا عن ذلك ، لا يمكن لاحد ألّا يكون رشيقا في ملابس جميلة بعد ان اصبح معتادا عليها . وتذكر توم التعليمات وعليه ان يرد التحية بانحناءة طفيفة من راسه وقوله : اشكركم ياشعبي الطيب .

وجلس الى منضدة من دون ان يخلع قبعته . ولم يصبه اي ارتباك لأن لبس القبعة في اثناء الاكل هي العادة الملكية الوحيدة التي يلتقي فيها الملوك وعائلة كانتي في الاماكن العامة ، وليس لطرف فيها ميزة على الآخر. وانقسم الموكب وتجمعوا بصورة رائعة وظلوا حاسرين .

ودخل الحرس الملكي على انغام موسيقي مرحة ، حاسرين ، في بدلات قرمزية وورود ذهبية على ظهورهم وصاروا يروحون ويجيئون يحملون في كل دورة لونا من طعام في صحن . كان احد الرجال يتلقى الصحون بالترتيب نفسه الذي تجلب فيه ويضعها على المائدة وكان ذائق الطعام يعطي كل فرد من افراد الحرس لقمة ليأكلها من الصحن الذي جلبه بنفسه ، خشية وجود السم .

وتناول توم غداء ممتازا، بالرغم من معرفته ان مئات العيون كانت تتبع كل لقمة يتناول حتى تصل فمه ويتفرجون عليه وهو يأكلها برغبة شديدة. وكان حذرا ألا يسرع وحذراً أيضاً ان لا يقوم باي شيء من ذاته بل ينتظر حتى يجثو الموظف المناسب ويقوم بذلك من أجله. وسار من غير خطأ ـ بلا نقص وبنجاح عظيم انيق.

وعندما انتهى من تناول الطعام اخيرا وسار خارجا في وسط موكبه المتألق واصوات الابواق المدوية بانغام سعيدة في اذنيه وقرع طبول وهتافات عالية، شعر انه لو رأى اسوأ شيء في الغداء امام الجمهور، فانها محنة سيكون مسرورا ان يتحملها مرات عديدة في اليوم الواحد لو انه بذلك لا يستطيع الا شراء حريته من بعض المتطلبات المرعبة في وظيفته الملكية.

الفصل
(١٧)

فوفو الاول

اسرع مايلز هندن الى طرف الجسر في ساوثورك، متطلعا بانتباه شديد الى الاشخاص الذين يبحث عنهم، آملا ومتوقعا ان يباغتهم. واستطاع اقتفاء اثرهم من الطريق في ساوثورك بعد توجيه اسئلة الى الناس، ثم انقطعت جميع الاثار واحتار كيف يواصل البحث. وتعبت رجلاه عند هبوط المساء وكاد ان يهلك من الجوع، ولم يفلح في مسعاه، لذلك تناول العشاء في فندق «تبارد» ثم توجه للنوم، عازما ان يقوم بالبحث في الصباح الباكر في جميع ارجاء المدينة. وما ان استلقى وهو يفكر ويخطط حتى صار يحاور نفسه كما يلي: سينجو الصبي من الوغد، والده الدعي، اذا استطاع. فهل يذهب الى لندن ويبحث في الاماكن التي كان يكثر التردد عليها سابقا؟ لا، لن يفعل ذلك لانه سيتجنب القاء القبض عليه ثانية. ماذا سيفعل اذن؟

ولما لم يكن لديه صديق في هذه الدنيا ولا من يحميه حتى صادف مايلز هندن، فانه سيحاول بطبيعة الحال ان يجد ذلك الصديق ثانية، بشرط ألاّ تتطلب جهوده الذهاب الى لندن حيث الخطر.

سيذهب الى منطقة هندن هول. هذا ما سيفعله لان يعرف ان هندن كان متعلقا ببيته هناك، ولعله سيجده هناك، اجل، توضحت الامور أمام هندن ـ وعليه ألا يضيع الوقت في ساوثورك، بل ان يسرع في الحال مخترقا «كينت» نحو مونكس هولم، باحثا في الغابة وهو يسأل عنه، في اثناء الطريق، دعنا الآن نعد الى الملك الصغير الذي اختفى.

الرجل الوغد المتوحش الذي رآه خادم فندق الجسر على وشك ان يلتحق بالشاب والملك، في الواقع لم يتصل بهما مباشرة، بل ظل قريبا منهما يقتفي خطاهما. ولم يقل شيئا. كانت ذراعه اليسرى معلقة بحمالة الى عنقه ويضع رقعة خضراء على عينه اليسرى، ويضلع قليلا، ويستعمل عكازا من البلوط يتوكأ عليها.

وقاد الشاب الملك في طريق ملتو في ساوثورك ثم وصلا الطريق العام خارج المنطقة وغضب توم هناك وقال انه سيتوقف في ذلك المكان ـ اذ كان على هندن ان يأتي اليه، لا ان يذهب هو الى هندن. انه لن يتحمل هذه

الغطرسة والاهانة، وسيتوقف في مكانه هذا. فقال الشاب:

ـ هل تتوقف هاهنا وصديقك يرقد جريحا في الغابة هناك؟ فليكن اذن ماتريد.

وتغير سلوك الملك في الحال وصرخ قائلا:

ـ جريح؟ ومن جرؤ ان يفعل ذلك؟ ولكن هذا شيء آخر. تقدم، هيا تقدم! اسرع، هل انت مثقل بالرصاص؟ أهو جريح؟ وحتى اذا كان الفاعل ابن دوق فانه سيندم على فعلته!

كانت الغابة على مسافة غير قليلة ولكنهما قطعاها بسرعة. وكان الشاب يتلفت حوله فرأى غصنا مغروسا في الارض وقد ربطت فيه خرقة صغيرة، تشير الى طريق الغابة فسلكاه، وظل الشاب منتبها الى وجود اغصان مشابهة في فترات، كانت تدل على نقطة يقصدها. ووصلا تدريجا الى فسحة مكشوفة. حيث بقايا بيت ريفي محروق وقربه مخزن حبوب مهدم ولم يكن مايدل على وجود علامة من علامات الحياة في اي مكان، وقد ساد سكون مطلق. دخل الشاب المخزن، وتبعه الملك متلهفا على اثره. ولم يكن ثمة احد! والقى الملك نظرة شك وتعجب الى الشاب وسأله:

ـ اين هو؟
وكـان الجـواب ضحكـة ساخـرة. فاغتاظ الملك في الحـال. ومسـك قطعـة خشب وهجم على الشـاب وانطلقت ضحكـة ساخـرة اخـرى الى اذنيـه جاءتـه من الـوغـد الاعـرج الـذي كان يتبعهما على مسافة. فالتفت الملك وقال مغضبا:
ـ من انت؟ وماذا تعمل هنا؟
فقال الرجل:
ـ اتـرك حماقتك واهدأ ليس تنكري بدرجة جيدة يمنعك من معرفة ابيك من خلاله.
ـ انت لست ابي، ولا اعـرفـك. انـا الملك. واذا كنت اخفيت خادمي، فعليـك ان تجـده لي وإلا لتجـرعت الاحزان على مافعلت
فاجاب جون كانتي بصوت متزن حازم:
ـ من الـواضـح انك مجنون وانا لا اريد عقابك، ولكنك اذا اغضبتني، فلابـد من ذلـك. ثرثـرتـك لا تنفعك هنا شيئا حيث لا تحتاج اذن الى الاهتمام بحماقاتك. ومع ذلـك فمن الافضـل ان تعـوّد لسانك على الاحتراس في الكلام، لئلا يصيبنا اذى اذا ما غيرنا مأوانا. لقد اقترفت جريمـة قتـل ولن امكث في بيتنـا ولا انت ايضا. لاني احتـاج الى خدمـاتـك. غيرت اسمي لاسباب حكيمة،

فصـار هوبـز ـ جون هوبـز، واسمـك جاك ـ فوجـه فكرك بموجب ذلـك. والآن تكلم: اين امك؟ واين اخواتك؟ لم يأتين الى المكان المعين ـ اتعرف اين ذهبن؟
فاجاب الملك مغضبا متجهم الوجه:
ـ لا تزعجني بمثـل هذه الاحـاجي. امي ميتة. واخواتي في القصـر. وانفجـر الشـاب القـريب منهما في ضحكة ساخرة. واراد الملك الهجوم عليه ولكن كانتي ـ او هوبز كما صار يدعو نفسه الآن ـ منعه وقال:
ـ اهدأ ياهوكو، لا تثره، لقد تاه عقله، وانت بهذا تقلقه. اجلس ياجاك واهدأ. ستتناول لقمة طعام حالا.
وصـار هوبـز وهـوكـو يتحـدثـان معا بصوت واطيء. وابتعـد الملك عن صحبتهمـا الكـريهة قدر المستطاع. تراجـع الى ظلمـة الطـرف الاقصى من المخـزن حيث الارض مفـروشـة بالقش بارتفـاع يبلغ قدمـا واحـدة. فاستـلقى هنـاك! والقى على نفسـه قشـا يتغطى به، وسـرعان ما انغمر في التفكير وانتابته احزان كثيرة، ولكن اغلبهـا انجـرفت الى طي النسيـان بفعل الحزن الاعظم الا وهو موت ابيه. كان اسم هنري الثامن يجلب الرعب للنـاس، ويـوحي لهم بغـول ينفث الخـراب من منخريه وتجلب يداه الكـوارث والمـوت، غيـر ان الصـورة التي يستحضرها الصبي عنه تحمل سيماء تنم عن رقة وعاطفة

لطيفة . واستذكر الصبي فترات حب طويلة بينه وبين
ابيه . وبقي في رفقتها الحنون ، وافصحت دموعه
المنهمرة بغزارة عن مدى عمق الحزن وصدقه الذي
امتلك فؤاده . ولما انصرم عصر ذلك اليوم ، ارهقته
الهموم الصبي فغرق في حالة من الهدوء التدريجي
وسبات شاف .

وبعد فترة لا بأس بها ـ لا يعرف مداها ـ عادت
مشاعره الى شيء من وعيها ـ وعندما كان مستلقيا وعيناه
مغلقتان تتساءلان اين كان وماذا يجري ، سمع خريرا
ضربات المطر الكثيبة على السقف ، وسيطر عليه
احساس بالراحة ، الذي سرعان ما حطمته بفظاظة بعد
لحظة عاصفة من قهقهات حادة وضحكات جشاء ،
اجفلته بصورة كريهة ، فكشف عن رأسه لكي يرى من
اين جاء هذا الذي قطع عليه سلسلة صوره . فصادفت
عينيه صورة كالحة بشعة مقيتة . كانت نار متأججة تشتعل
في وسط الارض عند نهاية المخزن الاخرى . وظهر
حولها ، وقد انارهم لهيبها الاحمر الساطع ، اناس من
حثالة المجتمع والاوغاد في ثياب رثة من كلا الجنسين
في جلسة متراخية اومتمددين ، لم يقرأ اويحلم بامثالهم
ابدا . كان ثمة رجال ضخام اقوياء البنية سمر الوجوه من
كثرة التعرض للعوامل الجوية ، شعرهم طويل ملابسهم

اسمال بالية ، وشباب مربوعون ملامحهم قاسية ،
وملابسهم متشابهة ، ومتسولون عميان عيونهم معصوبة او
عليها لصوق» واشخاص كسحاء لهم سيقان من خشب
وعكازات ، وبائع متجول جلف مع كيسه ، وحداد
سكاكين ، وسمكري ، وحلاق ، جراح معهم ادوات
مهنهم ، وكان بعض الاناث فتيات صغيرات واخريات
ناضجات ، وغيرهن عجائز شمطاوات مجعدات الوجوه ،
يتكلمون جميعا باصوات عالية بصفاقة وقلة ادب ،
جميعهم ملوثون قذرون وكان ايضا ثلاثة اطفال رضع
وجوههم متقرحة ، ، وكلبان هزيلان مربوطان من الرقبة
بحبلين وظيفتهما قيادة العميان .

وجاء الليل وانتهت العصابة من طعامها توا ، وبدأ اللهو
والعربدة وانتقلت صفيحة الشراب من فم الى فم آخر
وانطلقت صيحة عامة تقول :

ـ اغنية ، اغنية من الخفاش ومن دك الخفيف

ونهض احد الرجال العميان وتأهب برفع اللصوق عن
عينيه السليمتين ، واراح دك نفسه من ساقه الخشبية
واحتل مكانه واقفا على رجلين صحيحتين سليمتين الى
جانب زميله وهدرا باغنية مرحة ، يصاحبهما كل
الحاضرين عند نهاية كل مقطع ، وعندما بلغا المقطع
الاخير اخذ الجميع السكارى يغنون معها من البداية

بصوت هادر جعل اخشاب السقف تهتز .

ثم تبع ذلك حديث ليس بلهجة اللصوص كما في الاغنية ، لانها لهجة تستعمل في حديث خشية ان تستمع اليه اذان غير ودودة . وتبين في اثناء الحديث ان جون هوبز لم يكن عضواً جداً في هذه العصابة ، اذ انه تدرب فيها في زمن سابق واستذكر تاريخه اللاحق ، وعندما قال إنه قتل رجلاً من غير قصد عبر الحاضرون عن رضاهم ، وعندما اضاف ان الرجل كان قساً ، استحسنوا ذلك بصراحة وطلب الجميع ان يشرب الانخاب معهم .

ورحب به الاصدقاء القدامى مبتهجين ، وافتخر معارفه الجدد بمصافحته وسئل لماذا مكث بعيدا عنهم شهورا كثيرة فاجاب :

ـ لندن افضل من الريف واكثر امانا في السنوات الاخيرة ، حيث القوانين اشد قسوة واحكاما . ولولم تحدث لي تلك الحادثة لبقيت هناك .

وسألهم عن عدد اعضاء العصابة فاجاب رئيسهم :

ـ خمسة وعشرون فردا من اللصوص والشحاذين والمشردين وخليلاتهم . اغلبهم موجودون هنا . والباقون يتسكعون في الموقع الشتوي في الجهة الشرقية . وستتبعهم عند الفجر

ـ انا لا ارى «الكيس الذهبي» بين هؤلاء الاشراف حولي . فاين هو؟

ـ الغلام المسكين ، قتل في مشاجرة في مكان ماعند منتصف الصيف .

ـ يؤسفني ان اسمع ذلك . كان رجلا قديرا وشجاعا .

ـ كان حقا كذلك . وبلاك بيس خليلته ، واحدة من جماعتنا الى حد الآن ، لكنها غائبة في رحلة تسول في المنطقة الشرقية ، فتاة جميلة ، ذات سلوك طيب ولم يرها احد تسكر اكثر من اربعة ايام في الاسبوع .

ـ كانت متزمتة دائماً ـ اتذكر ذلك جيداً ـ غانية رائعة تستحق كل ثناء واطراء . وكانت امها اكثر تحرراً واقل استغلالاً ، عجوز مزعجة ، مشاكسة ، سيئة الطبع ، غير انها تتمتع بذكاء يفوق المعتاد .

ـ لقد فقدناها بسبب ذلك . وقد جلبت لها موهبتها في قراءة الكف والانواع الاخرى في قراءة الغيب في نهاية الامر اسم الساحرة وشهرتها . وقد سلقت بموجب القانون على نار هادئة وتنهد كبيرهم وتنهد المستمعون مشاركة وجدانية ، وخيم جو كئيب على الجماعة لحظة لأن المنبوذين امثال هؤلاء لم يمت الاحساس فيهم بصورة كلية . على ان جرعة عميقة من شراب دارت حولهم اعادت نفوس المبتئسين . وسأل هوبز:

ـ وهل قاسى احد من اصدقائنا!

ـ نعم ـ بعضهم ـ وبخاصة الجدد ـ كالمزارعين الصغار الذين تحولوا الى العطالة والجوع في هذه الدنيا لأن مزارعهم أخذت منهم لتصبح مراعي للاغنام. فتسولوا وجلدوا بعد ان شدوا الى مؤخرة العربات ، عراة من الحزام فما فوق، حتى سالت دماؤهم ؛ ثم وضعوا في الفلقات ليجلدوا مرة اخرى. وعادوا الى التسول، وصلمت احدى اذانهم ؛ وعادوا ثالثة للتسول. المساكين، ماذا بوسعهم ان يفعلوا غير ذلك؟ ـ ثم وسموا على خدودهم بحديد احمر من النار، ثم بيعوا عبيداً ارقاء، وهربوا، وطوردوا وشنقوا. حكاية موجزة، سردتها بسرعة. وقد قاسى الاخرون منا اقل من ذلك. تقدم يا يوكل وبيرنز، وهوج ـ ارونا زينتكم!

ووقف هؤلاء وخلعوا بعض اسمالهم، كاشفين ظهورهم المشطبة بآثار قديمة خلفها ضرب السياط الجلدية. ورفع احدهم شعره وكشف عن مكان اذنه اليسرى التي قطعت، واظهر آخر علامة ـ ٧ ـ على كتفه، وأذاناً مبتورة. وقال الثالث:

ـ انا يوكل ، كنت فلاحا ذات يوم في حالة من الرخاء ولي زوجة محبة واطفال ـ والآن انا في حالة مغايرة من التملك والعمل ، وفقدت زوجتي واطفالي ، لعلهم ذهبوا

الى الجنة ، اولعلهم في مكان آخر ـ ولكن حمداً لله انهم لا يقطنون انكلترة الآن! وجاهدت امي الطيبة على كسب عيشها بتمريض المرضى ومات احدهم ولم يعرف الاطباء لماذا ، لذلك حرقت والدتي متهمة بالسحر ، وكان اطفالي ينظرون اليها ويعولون. القانون الانكليزي ! ـ ارفعوا جميعاً كؤوسكم ! ـ كلكم مرة واحدة وابتهجوا ! ـ واشربوا نخب القانون الانكليزي الرحيم الذي انقذها من الجحيم الانكليزي ! شكراً لكم قاطبة يارفاق ! تسولت من بيت الى بيت ـ انا وزوجتي ـ حاملين معنا اطفالنا الجياع ـ ولكن كان الجوع جريمة في انكلترة ـ لذلك جرودنا من ملابسنا وجلدونا في ثلاث مدن. فاشربوا جميعاً مرة اخرى من اجل القانون الانكليزي الرحيم! ـ لأن جلداته شربت عميقاً من دماء ميري وجاء الخلاص منه سريعاً. انها ترقد في حقل الفخار ، آمنة من كل أذى. اما الاطفال ـ فبما اني صرت اجلد باسم القانون من مدينة الى اخرى ، فانهم هلكوا جوعاً. اشربوا يا اولاد ـ جرعة واحدة فقط ـ جرعة واحدة من اجل الاطفال المساكين الذين لم يؤذوا مخلوقاً ابداً. وتسولت مرة اخرى ـ تسولت من اجل كسرة خبز ووضعوني في الفلقة وفقدت اذناً ـ انظر هذا اصلها. وتسولت مرة اخرى، وهذا اصل الاذن الاخرى لكي

اظل ذاكراً ذلك. وبقيت اتسول مع كل هذا وباعوني عبداً ـ وهنا على خدي تحت هذه اللطخة، اذا ما غسلتها، ترون الحرف (ع) الاحمر الذي خلفه وسم الحديد! عبد! اتفهمون معنى الكلمة! عبد انكليزي! هذا الذي يقف امامكم. هربت من سيدي، واذا ما وجدوني ـ حلت اللعنة على ذلك القانون الذي شرعته هذه البلاد وامر بذلك! ـ فاني سوف اشنق!

وجاء صوت مجلجل خلال الهواء المضبب:

ـ لن تشنق! ـ لقد جاءت نهاية ذلك القانون في هذا اليوم! والتفت الجميع ورأوا شبح الملك الصغير يتقدم اليهم مسرعاً ولما ظهر في نطاق النور وبان شكله جيد اندفع سيل من الاستفسارات:

ـ من هو؟ من هذا؟ من انت ايها القزم؟

ووقف الصبي غير مضطرب في وسط هؤلاء المدهوشين والعيون المتسائلة واجاب بابهة ملكية:

ـ انا ادورد، ملك انكلترة:

وتلا ذلك عاصفة من الضحك، بعضه ساخر وبعضه مبتهج ببراعة النكتة. وتألم الملك. وقال محتداً:

ـ ايها المتشردون الاجلاف، هل هذا هو اعترافكم بالهبة الملكية التي اعاهدكم بها؟

وتكلم كلاماً آخر بصوت غاضب وحركات منفعلة

ولكنه ضاع في عاصفة من الضحك والصياح الساخر. وحاول جون هوبز مرات عديدة ان يعلو صوته فوق الجلبة، ونجح في النهاية فقال:

ـ يا رفاق، انه انه وهو حالم احمق بل مجنون ـ فلا تأبهوا له ـ يظن نفسه هو الملك.

فقال ادورد ملتفتاً اليه:

ـ اني الملك، وستعلم ذلك جيداً وتدفع ثمن ذلك في الوقت المناسب لقد اعترفت باقتراف جريمة قتل، سوف تشنق من أجل ذلك.

ـ انت نخونني ! ـ انت ؟ اذا مسكتك ـ

ـ كفى، كفى !

قال كبيرهم الضخم الجثة وهو يقف بينه وبين الملك في الوقت المناسب، وطرح هوبز ارضاً بلكمة، ثم قال لجلالته :

ـ يجب ألاّ تهدد رفاقك، ايها الغلام، ويجب ان تصون لسانك من قول الفاحشة بحقهم. كن ملكاً، اذا شاء مزاجك المجنون ذلك، ولكن لا تكن مؤذياً في ذلك، اترك اللقب الذي تلفظت به ـ انها خيانة عظمى. اننا اناس سيئون في بعض الامور التافهة، . ولكن ليس فينا احد وضيع فيكون خائناً لمليكه.

انا محبون وقلوبنا مخلصة، بهذا الخصوص. اتلاحظ

انني اقـول الحقيقـة . والآن ـ كلكم معـا : يعيش ادورد ملك انكلترة!

ـ يعيش ادورد ملك انكلترة!

وجاء الجواب كالعصف الراعد من الجمع المتنافر فهتز المبنى البـائس من الصوت . واشرق وجه الملك الصغير فرحاً لحظة واحدة، ثم احنى رأسه قليلاً وقال ببساطة رزينة :

ـ شكراً لكم ياشعبي الطيب :

وجعلهم هذا الجـواب غير المتوقع ينغمرون في نوبة من الضحـك فتر ضحكهم قليـلاً، قال كبيـرهم بحزم وبلهجة ذات طبيعة خيرة :

ـ كف عن هذا ، ياغـلام فليـس ذلـك من العقـل ولا من الخير. تفكه ان شئت ولكن اتخذ لك لقباً آخر.

واقترح السمكري صائحاً:

ـ فوفو الاول، ملك المغفلين!

ومشى اللقب في الحل ورددت كل حنجرة هتافا عالياً:

ـ يعيش فوفو الاول، ملك المغفلين!

ثم تلا ذلك صياح استهجان وسخرية ومواء وضحكات مجلجلة .

ـ اسحبوه وتوجوه!

ـ البسوه رداء!

ـ اعطوه صولجانا!

ـ اجلسوه على العرش!

انفجـرت تلك الهتـافات وعشرون غيرها مرة واحدة . وقبـل ان يستطيـع المسكين الصغيـر ان يستنشق نفسـاً واحـداً توجـوه بطاس من صفيح ، والبسوه رداء من بطانية ممزقة واجلسوه على عرش من برميل واعطوه صولجاناً هو عصـا لحيم السمكـري . ثم جثـا الجميـع على ركبهم حولـه وانطلقوا جميعاً في ابتهال تهكمي وتضرع ساخر، وهم يمسحون عيونهم باردانهم القذرة البالية وبثيابهم قائلين :

ـ كن لطيفاً بنا، يامليكنا الطيب!

ـ ولا تسحق بقـدميـك المخلوقـات الضعيفـة المتضرعة اليك، ياصاحب الجلالة والنبل .

ـ أرحم عبيدك، وارحهم بركلة ملكية منك!

واغرورقت عينا العاهل الصغير بدموع الخجل والنقمة . وفكر في نفسه : لو انني ابديت لهم ما يدل على خطأ كبير لما كانوا اشد قسوة من هذا ـ ولكنني لم اظهر لهم سوى اللطف ـ وتراهم هكذا يعاملونني مقابل ذلك!

الفصل
(١٨)

الامير مع المتسولين

خرج رهط المتشردين في الفجر الباكر وتقدموا في مسيرتهم كانت السماء مكفهرة فوقهم والارض موحلة تحت اقدامهم. وبرد الشتاء قارساً. وتبددت روح المرح لدى الجماعة. وتجهمت وجوه بعضهم وسكتوا، وكان بعضهم نزقاً شكساً، ولم يكن أي منهم رقيق الطبع لطيفا، كانوا جميعاً متعطشين.

ووضع كبيرهم الصبي «جاك» في عهدة هوكو مع بعض التوجيهات وامر جون كانتي ان يبتعد عنه ويتركه وحيداً، وحذر هوكو ايضاً ألاّ يكون شديد الفظاظة مع الصبي.

وبعد فترة اصبح الجو اكثر اعتدالا، وانقشعت الغيوم وكف الرهط عن الارتجاف وتحسنت نفسياتهم، وغدوا بالتدريج اكثر مرحاً، وطفقوا في النهاية يمازح بعضهم



بعضاً ويوجهون الاهانات للمسافرين على الشارع العام.

ثم غزوا بيتاً ريفياً صغيراً، واخذوا حريتهم في البيت، وراح الفلاح المرتجف واهل بيته ينظفون المكان لاعداد الافطار لهم. وربتوا بلطف تحت ذقون ربة البيت وبناتها وهم يتناولون الطعام من ايديهم. وكانوا يعلقون بملاحظات ساخرة رديئة حولهن، ويرمون العظام والخضراوات، على الفلاح واولاده، الذين صاروا يتفادون ذلك بالمراوغة. ويهتفون عالياً مستحسنين اذا ما اصابوا احدهم. وانتهوا بدهن رأس احدى البنات اللائي كن يمتعضن من قلة ادبهم واحتشامهم. وعندما خرجوا هددوا بانهم سيعودون لحرق البيت على رؤوس اهله اذا ماقدموا اي شكوى عن افعالهم الى السلطات المسؤولة.

وتوقفت العصابة وراء وشيع (سياج نباتات) عند اطراف قرية معتبرة، عند الظهر، بعد مسيرة طويلة مضنية. واتفقوا على ساعة من الزمان للراحة، ثم تفرق الجماعة اشتاتاً ليدخلوا القرية من نقاط مختلفة للقيام بمهماتهم المتنوعة. وارسل «جاك» مع هوكو. وتجولا هنا وهناك مدة من الزمن. وكان هوكو يترقب فرصة من الفرص للقيام بامر من الامور غير انه لم يواته شيء من ذلك فقال

اخيراً:

- لا اجد شيئاً يمكن ان يسرق، انه مكان حقير، لذلك سوف نستجدي.

- انحن، حقاً، هذه شغلتك وفيها مصلحتك. ولكنني لن استجدي. فهتف هوكو وهو يحدق في الملك مدهوشاً:

- لن تستجدي! رجاء، متى اصلحت نفسك؟

- ماذا تقصد؟

- اقصد؟ ألم تستجدِ في شوارع لندن طوال حياتك؟

- انا؟ ايها الابله!

- كفى مديحاً - سيطول عذابك. يقول ابوك انك كنت تشحذ طوال نهارك امامك. لعله يكذب. ولعلك ستجرؤ بالقول انه يكذب قال هوكو ذلك ساخراً.

- الذي تدعوه ابي؟ نعم. هو يكذب.

واجابه هوكو محتداً:

- اسمع، الآن ياصاحبي. انت لن تستجدي ولن تسرق، ليكن الامر كذلك. ولكن اقول لك ماذا تفعل. ستقوم انت بايقاع الآخرين في الشرك عندما اقوم انا بالاستجداء. هل تتجرأ ان ترفض؟

وكاد الملك ان يرد عليه مزدرياً، ولكن هوكو قاطعه قائلاً:

- اسكت! جاء رجل ذو وجه حنون. سأقع في نوبة من مرض. وعندما يركض الرجل الغريب الي، ابدأ انت بالنحيب واجثُ على ركبتيك وتظاهر بالبكاء، واصرخ كأن شياطين البؤس تمزق احشاءك وقل: «ياسيدي هذا اخي المريض المبتلى ونحن لا احد لنا. بالله عليك ان تلقي نظرة مشفقة من عين تغمرها الرحمة على مريض بائس منبوذ. ارجوك ان تهبه اربعة فلوس مما اثراك الله به، وتتكرم على شخص مبتلى يوشك ان يهلك.» وتذكر ان تواصل النحيب ولا تتوقف حتى نحتال في الحصول على المال منه والا ستندم.

وشرع هوكو على الفور يئن ويتأوه، ويحرك عينيه يمينا وشمالاً، ويتمايل ويترنح. وعندما اقترب الغريب، انبطح امامه وهو يصرخ، واخذ يتلوى ويتمرغ في الاوساخ متظاهراً بالألم.

وصاح الرجل الكريم الخيّر: يا ويلي عليه! يا ويلي يا للمسكين، ما اشد المه، اسمع - دعني اساعدك على الوقوف.

- ياسيدي النبيل، تجمل بالصبر، ورضي الله عنك من رجل طيب الشمائل - ولكن ذلك يؤلمني اذا لمسني احد

عندما تنتابني هذه النوبات. ياسيدي العزيز. اعطني اربعة فلوس لاشتري بها طعاماً قليلاً، واتركني بعد ذلك لآلامي.

- اربعة فلوس، ساعطيك ثلاثة، ياقليل الحظ.

وبحث الرجل في جيبه على عجل واخرجها وقال:

- هاك، يا مسكين، خذها واهلاً بك. تعال يا ولدي وساعدني في حمل اخيك المصاب الى بيتكم حيث —

فقاطعه الملك قائلاً:

- لست اخاه.

- ماذا؟ لست اخاه؟

وزمجر هوكو قائلاً:

- اسمعه!.

ثم صر على اسنانه وهو يقول:

- ينكر اخاه الذي احدى رجليه في القبر!

- انت، يا ولد، قاسي القلب حقاً، اذا كان هذا اخاك. عار عليك! - وهو لا يكاد يستطيع ان يحرك يداً او رجلاً. ان لم يكن اخاك، فمن هو اذن؟

- شحاذ ولص! اخذ فلوسك ونشل محفظتك ايضاً. اذا اردت ان تشفيه فاضربه بهراوتك على كتفيه واترك الباقي

ولكن هوكولم يلبث لتلقي العلاج الشافي، فنهض في الحال وولى هارباً كالريح، وهبّ الرجل وراءه يطلق صيحاته في اثر اللص الهارب. وتنفس الملك الصعداء واطلق شكره لله الذي خلصه، فهرب في الجهة المعاكسة ولم يخفف جريه حتى اضحى بعيداً عن منال الاذى. وسلك اول سبيل وجده وسرعان ماصارت القرية وراءه. وظل يجري مسرعاً قدر استطاعته، ساعات عديدة، وهو يراقب من فوق كتفه لعل احداً يتبعه. وزايلته مخاوفه اخيراً وحل محلها شعور بالامان. وادرك انه جائع ومرهق جداً. فتوقف عند بيت ريفي. ولكنه عندما اوشك ان يتكلم اسكت وطرد بعيداً، اذ كانت ملابسه ضده.

وحل الليل ببرده وظلامه، وظل العاهل المتقرح القدمين يمشي وئيداً. واضطر على المشي لانه كلما جلس للراحة كان البرد ينفذ حتى عظمه. وكان كل شيء من مشاعره وتجاربه، وهو يسير في عتمة الليل البهيم ووحشته المترامية، جديداً عليه وغريباً. وكان يسمع في فترات متقطعة اصواتاً تقترب ثم تمر به وتتلاشى في اعماق الصمت والسكون. ولما لم يرَ شيئاً من الاجسام التي تعود اليها غير نوع من ضباب لاشكل له تذروه الرياح، كأنه الاشباح الغريبة، سرت في جسمه رعدة

من جراء ذلك. وكان بين حين وآخر يلمح وميض نور - بعيد دائماً - يكاد يكون في عالم آخر. واذا سمع رنين جرس نعجة، فقد كان مبهماً، بعيداً، غير واضح وأتى اليه خوار ماشية مكتوم حملته ريح الليل في ايقاع متلاشٍ، كأنه نحيب حزين. وكان يصل اليه بين آن وآخر عواء كلب متشكٍ فوق الغابة والحقول المترامية التي لا يراها. كانت الاصوات كلها نائية. وجعلت الملك الصغير يشعر ان الحياة وكل نشاطاتها قد اقصيت عنه، وانه ظل واقفاً في عزلة، لا رفيق له، في وسط وحشة بلا حدود.

وسار في طريقه متعثراً، يجفله بين حين وآخر حفيف الاوراق الجافة فوق راسه، كأنه همس كائنات بشرية ثم وصل بغتة الى ضوء فانوس ذي كلف. فتراجع في الظل وانتظر. كان الفانوس موضوعاً لدى باب مستودع. انتظر الملك برهة - لم يسمع نأمة ولا احد يتحرك. وشعر بالبرد الشديد وظل ساكناً، وكان المستودع الحسن الضيافة مغرياً فقرر في نهاية الامر ان يغامر بالدخول. فاسرع وتسلل خلسة. وما ان اجتاز العتبة حتى سمع اصواتاً تتحدث وراءه، فاسرع وراء برميل خشبي في داخل المستودع، وطأطأ رأسه. ثم دخل عاملان زراعيان يحملان الفانوس واخذ يعملان ويتحدثان في اثناء

ذلـك. وعنـدمـا كانا ينتقلان بالمصباح نظرا الملك مليا فرأى حظيـرة في الطـرف البعيـد من المكـان، ونوى ان يتلمس طريقه اليها عندما يترك وحده ولاحظ ايضاً مكان كومة من ملاحف خيل.

ثم انتهى الـرجـلان من العمل وخرجا، واقفلا الباب وراءهما واخذا الفانوس معهما. واتجه الملك المرتعش نحـو البطـانيات في الظلام، وحملها وتلمس طريقه نحو المـربـط. وجعـل من بطـانيتين فراشـاً ومن الاثنتين الاخـريين غطاءاً. كان عاهلا سعيداً الآن بالرغم من ان البطـانيـات كانت عتيقـة خفيفـة، ولم تكن دافئة تماماً وتفوح فضلاً عن ذلك، برائحة خيل حادة تكاد ان تكون خانقة.

ومـع ان الملك كان يشعـر بالجـوع والبـرد، فقد كان متعباً ونعسـان فغلبه النعاس وراح على الفور في حالة من التهـويم. ولمـا اوشـك ان يغـط في نومـه شعـر أن شيئاً يلمسـه. فاستيقـظ في الحـال مبهور الانفاس. وجعلت تلك اللمسـة الغـامضـة في الظـلام قلبه يكاد يتوقف من الـرعب. وظـل يتسمـع وينتظـر فترة بدت له طويلة جداً ولكن لم يتحـرك شيء، ولم يسمـع صوت، ثم عاد الى التهـويم مرة اخـرى. ثم شعـر مرة اخرى بتلك اللمسة! كانت شيئاً رهيباً. تلك اللمسـة الخفيفة من كائن خفي لا

صوت له. فشعـر الصبي برعب قاتـل من الاشباح. ماذا يفعـل؟ هل يتـرك هذا المكـان المريح نوعاً ما ويفر: من هذا الفزع المبهم؟ ولكن اين المفر؟ لا يستطيع الخروج من المستودع. وكانت لا تطاق فكرة الهروب متخبطاً هنا وهنـاك في الظـلام حبيس جدران اربعة. والشبح يجري خلفـه يمسـه مساً مرعباً خفيفاً على خده او كتفه عند كل دورة ولكن البقـاء حيث كان وتحمـل المـوت حيـاً طوال الليل ـ أهو افضل من ذلك؟ كلا. ماذا اذن بقي له لكي يقـوم به؟ لا شيء سوى امـر واحـد ـ وهـو يعـرفـه جيداً ـ يجب ان يمد يده ويجد ذلك الشيء!

كان التفكيـر بذلـك شيئـاً هينـاً، ولكن ان يستجمـع قواه، ويحـاول ذلـك، فأمـر عسيـر. مد يده ثلاث مرات قليـلاً في الظـلام وبحيـويـة ثم ارجعهـا فجأة وهو يلهث ليس لانـه وجـد شيئـاً بل لأنه ايقن انه سيجد شيئاً، وفي المـرة الـرابعـة تلمّس ابعد من ذلك قليلاً. فمست يده شيئاً ناعماً ودافئاً مساً خفيفاً فصعقه ذلك رعباً ـ فتصور ان ذلـك الشيء لم يكن سوى جثـة مات صاحبها حديثاً وما زالت دافئـة. وفكـر انـه يفضـل المـوت على لمسها مرة اخـرى. ولكن يده راحت تتحسس بعـد وقت قصير وهي ترتـجـف ـ ضد قراره الـذي اتخـذه ومن دون رغبتـه ـ وواصل التلمس كالسابق. فوجد خصلة من شعر طويل،

وارتعش، ولكنـه تتبـع الشعـر نحو الاعلى فوجد مابداله حبـلاً دافئـاً، وتتبع الحبل فوجد عجلاً بريئاً! لأنّ الحبل لم يكن حبلاً قط بل ذيل العجل .

وخجـل الملك من صميم قلبـه من نفسـه لخـوفه من شيء تافـه كهـذا العجـل النائم . ولكن لم تكن به حاجة ان يشعـر كذلـك في هذا الشأن، لانـه لم يخف من العجل بل من شيء مرعب غير موجود الذي حل العجل محله، وان اي صبي اخر في تلك الايـام القـديمة التي تؤمن بالخرافات سيتصرف ويعاني الخوف كما فعل هو بالذات .

ولم يسـر الملك معـرفة ان ذلك المخلوق كان عجلا حسب بل فرح بصحبة العجل، لأنّه كان يشعر بالوحشة والـوحـدة فكـانت تلك الصحبة والرفقة مع هذا الحيوان المتواضع امراً رحب به كثيراً .

وعنـدما كان يمسد ظهر العجل الاملس الدافىء لأنّه راقـد قربـه خطـرت بباله فكرة ان العجل يمكن ان يكون نافعـاً في اكثر من طريقـة واحـدة . فاعاد ترتيب فراشه، ووضعـه قريبـاً جداً من العجـل واحتضن ظهـر العجل، وسحب الغطـاء فوقـه وفـوق صديقـه وشعـر بالدفـء بعد دقيقـة اودقيقتين وارتـاح كأنـه في فراشـه الـوثير في قصر ويستمنستر الملكي .

واتت اليـه في الحـال افكـار سارة وبـدت الحياة اكثر بهجة . وكانت رياح الليل تعصف وهي تئن وتعوي حول اركان المبنى وبروزاته غير انها كانت كالموسيقى للملك بعد ان نعم بالرحة والدفـء .

ودنـا من صديقـه اكثـر التمـاسـاً للدفـء وراح في منتهى السعادة في نوم عميق بلا احلام .

الفصل
(١٩)

الامير مع الفلاحين

عنـدما استيقظ الامير في الصباح الباكر وجد ان جرذاً مبللاً حذراً قد زحف الى المكان في اثناء الليل واتخذ له فراشـاً دافئاً مريحاً في صدر الملك. ولما عكر عليه نومه فانـه ولى هاربـاً. وابتسم الصبي وقـال: ايهـا الاحمق المسكين، لمـاذا تخـاف؟ من الخـزي علي ان اوذي الضعفاء البائسين مثلي من الذين لاعون لهم.

ونهض وخرج من المربط فسمع صوت اطفال. وفتح باب المستـودع ودخلت طفلتـان صغيـرتان. وما ان رأت البنتـان الصبي حتى توقفتـا عن الكـلام والضحك وبقيتا ساكـنتين في محلهمـا، تنظـران بشيء كثيـر من حب الاستطـلاع واخـذتا في الحال تتهامسـان، ثم اقتربتا منه وتـوقفتـا لتحملقـا فيـه وتتهـامسا. ثم استجمعتا قوتيهما وشجاعتيهما وصارتا تحاورانه بصوت مسموع: قالت

احداهما :

ـ له وجه جميل

وقالت الاخرى :

ـ وشعر لطيف .

ـ ولكنه رديء الثياب

ـ ويبدو جائعاً

ثم تقدمتا اكثر ودارتا حوله خجلتين ، وهما تتفحصانه بدقة من جميع الجهات ، كأنه حيوان من نوع غريب وجديد . ثم توقفتا امامه وقد تماسكت يداهما خوفا وحماية ، واستجمعت احداهما كلما تملك من شجاعة وسألت بصراحة صادقة :

ـ من انت ايها الولد؟

وجاء الجواب وقورا

ـ انا الملك .

وجفلت الطفلتان قليلاً واتسعت عينا كلّ منهما وظلتا كذلك نصف دقيقة من الصمت . ثم حطم الفضول ذلك الصمت :

ـ الملك؟ اي ملك؟

ـ ملك انكلترة .

ونظرت الطفلتان إحداهما الى الاخرى ، ثم اليه ، ثم إحداهما الى الاخرى مرة اخرى مدهوشتين ، حائرتين

ثم قالت احداهما :

ـ هل سمعته يا ماكري؟ ـ يقول انه الملك . هل هذا صحيح ؟

ـ كيف يكون ذلك غير الصدق يا بريسي ؟ ايقول كذباً؟ انظري يابريسي ، اذا لم يكن صحيحاً ، فانه كذب . لا ريب من ذلك . والآنَ فكري فيها . لأن كل الأشياء غير الصحيحة هي كذب ـ انك لا تستطيعين ان تفهمي منها غير ذلك .

كانت حجة طيبة محكمة ليس فيها اي خرق ولم تترك لانصاف شكوك بريسي مايمكن ان تقف عليه . وفكرت لحظة ـ ثم وضعت الملك امام شرفه بهذه الملاحظة البسيطة :

ـ إذا كنت انت الملك حقاً فانني اصدقك .

ـ انا الملك حقاً .

وحسم الامر بذلك وقبلت ملكية جلالته دونما مزيد من الاسئلة والنقاش . وبدأت البنتان الصغيرتان الاستعلام منه في الحال كيف وصل الى هناك وكيف اصبح في تلك الملابس غير الملكية ، والى اين هو ذاهب ، وعن جميع شؤونه الاخرى . وقد خفف عنه كثيراً الافضاء بهمومه الى من لا يسخر بها اويشك بامرها ، فسرد حكايته بانفعال ناسياً حتى جوعه فترة من الزمن ،

وقد تلقت الفتاتان ذلك باعمق التعاطف والحنان وعندما بلغ الى آخر الاحداث وعلمتا انه لم يذق الطعام مدة طويلة، قاطعتاه واخذتاه الى البيت الريفي لتقديم افطارٍ له.

كان الملك سعيداً مبتهجاً وقال في نفسه: عندما اعود الى مكاني مرة اخرى، ساكرم الاطفال الصغار متذكراً كيف وثقت هاتان الصغيرتان بي وصدقتاني في وقت محنتي، في الوقت الذي سخر بي من هم اكبر ويظنون انفسهم اكثر حكمة واعتبروني كاذباً.

واستقبلته ام الطفلتين بلطف وكثير من الشفقة لأن حالته اليائسة وعقله المخبول بصورة واضحة قد اثرا في قلبها النسائي. كانت ارملة فقيرة، ولذلك فانها رأت من الهموم مايمكنها ان تتعاطف مع البائسين. وتصورت ان الولد المعتوه هذا قد هرب من أصدقائه او الموكلين على حمايته. وحاولت ان تجد من اين جاء، لكي تتخذ الاجراءات لإعادته، غير ان جميع اشاراتها الى المدن والقرى المجاورة؛ وكل استعلاماتها في الخط نفسه ذهبت ادراج الرياح ـ فقد اظهر وجه الصبي واجوبته ايضا ان الاشياء التي كانت تتحدث عنها لم تكن مألوفة لديه تكلم بجد وببساطة عن مسائل البلاط، وانهار اكثر من مرة عندما تحدث عن الملك الراحل «ابيه». ولكن

عندما كان الحديث يتناول موضوعات اقل من ذلك مكانة، كان يفقد اهتمامه حيث يلوذ الصمت.

واحتارت المرأة كثيراً ولكنها لم تيأس ولم تستسلم. وكانت في اثناء الطبخ تفكر باستنباط وسائل لمفاجأة الصبي لكي يفضي بسره.

تحدثت عن الماشية ولم يبد اهتماماً ثم عن الاغنام وكانت النتيجة نفسها. فكان ظنها انه راعي غنم لم يجانبه الصواب. وتحدثت عن الطواحين وعن النساجين والحدادين وعن المهن واصحابها من كل صنف، وعن مستشفى المجانين والسجون وملاجيء الاحسان، ولكن بلا جدوى، اذا كان يصدها عائق في جميع النقاط. ولكنها أيضاً لم تيأس فقد فكرت في نفسها أنها قد حددت الأمر ضمن نطاق الخدمة المنزلية اجل، لا ريب انها كانت على السبيل السوي الصحيح هذه المرة - لابد انه خادم في منزل. فوجهت الحديث بصورة غير مباشرة الى ذلك ولكن النتيجة لم تكن مشجعة، اذ ظهر ان موضوع الكنس مغمر له. وفشلت في اثارته بمسألة شعل النار، ولم يوقظ في نفسه اية حماسة قضية التنظيف وجلي الاواني، ثم المعت السيدة الفاضلة، يحدوها امل فانٍ، الى موضوع الطبخ. فاشرق وجه الملك في الحال فدهشت وسرت كثيراً. آه، لقد وقعت

على حقيقتـه اخيـراً، كما ظنت وشعرت بالفخر ببراعتها الملتوية والدهاء الذي اتمت به ذلك.
فواتت لسـانهـا المتعب فرصـة للراحـة عنـد ذلـك. اما الملك فقـد اوحى له الجـوع الشـديـد والروائح الفواحة الطيبة الآتية من القدور والاواني التي يبقبق فيها الطبيخ. واخـذ حريتـه في القـاء كلمـة فصيحـة بليغة في اكلات معينة لذيذة، مما جعل المرأة تقول في نفسها بعد ثلاث دقائق: «في الحقيقة، كنت على صواب ـ عمل مساعداً في مطبـخ!» ثم توسـع في قائمـة الطعـام، ونـاقشها باعجـاب وحيـوية شديدين مما دفع السيدة الفاضلة الى القـول في نفسهـا: «بـالله، انى له ان يعـرف هذا العدد الكبير من الاكلات، الطيبة كذلك؟ اذ هي تخص موائد الاغنياء والعـظماء فقط. اه، لقـد عرفت! بما انه مشرد باسمـال باليـة فلابـد انـه خدم في القصـر قبـل ان يفقد عقله. اجـل، لابـد انـه كان مسـاعـداً في قصـر الملك نفسه! ساختبره.

وكـانت المـرأة شديـدة اللهفـة في اثبات حصـافتها فطلبت الى الملك ان ينتبه الى امر الطبيخ لحظة واحدة ـ ملمحة له ان باستطاعته ان يقوم بعمل او اضافة اكلة او اكلتين اذا شاء ذلـك ـ ثم خرجت من الحجـرة واشـارت

لبنتيها ان تتبعاها. فتمتم الملك:
ـ كان لملك آخـر انكليـزي مهمـة كلف بها مثل هذه في غابـر الـزمـان ـ وليس في هذا ضيـر على منـزلتي للقيـام بالمهمـة التي تنـازل الفـريـد العظيم بادائهـا. ولكنني ساحـاول ان اكـون بارعـاً في اداء هذه الخـدمة الموكولة الي افضل منه، لأنه احرق الكيك.
كانت النية طيبة، ولكن الاداء لم يكن ملائماً لذلك، لأن هذا الملك، مثـل الملك الآخـر، استغرق في تفكير عميق بخصوص شؤونه الكثيرة، وحصلت الكارثة نفسها ـ احترق الطبيخ فعادت المرأة في الوقت المناسب لانقاذ الافطار من التلف الكلي.
واخـرجت الملك من احلامه فوراً بكلام حنون فيه شيء من الحـدة. ولمـا ادركت مدى اضطـرابه رقّ صوتها في الحال وعاملته بمنتهى الطيبة واللطف.
وتناول الصبي وجبة طعام لذيذة وافية بالشبع، فارتاح كثيـراً وسـر بذلـك. كانت وجبـة طعـام قد تميزت بصفة غريبة هي ان المنزلة طرحت جانباً من كلا الطرفين، ولم ينتبه الى ذلك الفضل اي منهما. وقررت المرأة الفاضلة ان تقـدم الطعام الى المشرد الصغير في زاوية من الزوايا مثـل اي مشـرد آخـر اومثـل كلب، ولكنهـا ندمت على اهـانتهـا له، فقـامت بالتكفير عن ذلـك بالسمـاح له

بالجلوس الى مائدة العائلة والاكل مع من هم افضل منه . اما الملك فانه اعترافاً بجميل العائلة قرر التواضع الى مستوى العائلة وبدلاً من ان يطالب المرأة وطفلتيها بالوقوف والانتظار في خدمته لدى اشغاله مائدتهن وفق ما تقتضيه اصول مكانته ومولده .

وعندما انتهى الافطار طلبت ربة البيت الى الملك ان يغسل الاواني وتلكأ لحظة في تنفيذ الامر وكاد الملك ان يتمرد، ولكنه قال في نفسه :

راقب الفريد العظيم الطبيخ وبلا ريب فانه غسل الاواني ايضاً ـ لذلك ساحاول ذلك .

ولم يحسن العمل . وقد بدا تنظيف الملاعق الخشبية والصواني شيئاً سهلاً . ولكنه كان عملاً مضجراً مزعجاً ومع ذلك فانه اتمه في نهاية الامر. ونفد صبره لأنه سيواصل رحلته الآن، ولكنه لن يترك صحبة هذه المرأة المغترة بهذه السهولة التي يتصورها، فكلفته بامور اخرى من العمل، التي اتمها بشكل جيد وثقة لا بأس بها. ثم اعطته واعطت الطفلتين بعض التفاح الشتوي ليقشره ولكنه لم يحسن ذلك العمل فاعفته منه واعطته سكينا وطلبت منه ان يشحذها . ثم جعلته ينفش الصوف ويمشطه حتى لم يكد يتذمر. وبعد طعام الغداء اعطته المرأة الفاضلة سلة فيها قطيطات لكي يغرقها واذعن

وعندما اوشك ان ياخذ السلة قاطعه احدهم ـ كانت المقاطعة من جون كانتي، وهويحمل كيس بائع متجول على ظهره، ومع هوكو.

اكتشف الملك هذين الوغدين يقتربان من الباب الامامي قبل ان تواتيهما الفرصة لرؤيته فلم يقل شيئاً وتناول سلة القطيطات وخرج بهدوء من الطريق الخلفية دونما كلمة . وترك الرجلين في ساحة البيت الخارجية ، واسرع في زقاق ضيق في الخلف .

الفصل
(٢٠)

الامير والناسك

اخفاه الآن سياج الشجيرات عن البيت فاطلق كل قواه واسرع نحو الغابة على بعد. ولم يلتفت الى الوراء حتى بلغ ملاذه في الغابة، ثم التفت فلمح شخصين على بعد. كان هذا كافياً له فلم ينتظر ليتبين من هما بصورة ممحصة، بل اسرع ولم يخفف من سرعته حتى اصبح بعيداً في اعماق غبش الغابة. ثم توقف بعد ان وثق انه صار في امان. واصغى بانتباه غير ان السكون كان عميقاً وجليلاً ـ مخيفاً، شاملاً، يبعث الكآبة في النفس.

نوى في البدء، ان يمكث حيث كان، بقية نهاره، غير ان البرد القارس سرعان ما غزا جسمه الناضح بالعرق فاضطر في النهاية ان يستأنف سيره لكي يحصل على الدفء. فتوغل في الغابة آملاً ان يجد منفذاً في الحال

الى الطريق العام، ولكنه خاب امله في ذلك، اذ ظل يسير ويسير، وكلما ابتعد اكثر اصبحت الغابة اشد كثافة. واخذ الظلام يشتد ثم لاحظ الملك ان الليل اخذ يهبط مما جعل يرتعش لفكرة قضائه في ذلك المكان الغريب، فحاول ان يسرع ولكنه لم يستطع زيادة سرعته بسبب تعثره بالجذور وتعلقت ملابسه بالنباتات المعترشة والاغصان الشائكة.

وكم كانت سعادته عظيمة عندما لمح اخيراً وميض نور! وتقدم نحوه محترساً، ويتوقف بين حين وآخر ليتطلع حوله ويصغي. كان النور يأتي من نافذة غير مزججة في كوخ صغير. وسمع صوتاً فشعر بميل الى الركض والاختباء. غير انه غير رأيه في الحال، لأن الصوت كان كلمات ابتهال وصلاة. فتسلل الى النافذة الوحيدة في الكوخ ورفع نفسه على اطراف اصابع قدميه واختلس نظرة الى الداخل. كانت الحجرة صغيرة، وارضيتها ارضاً طبيعية تصلبت بالاستعمال وكان في احدى الزوايا فراش من قش ولحاف او لحافان ممزقان وقربه سطل وكوب وطست وقدران وإناءان او ثلاثة. وثمة مصطبة قصيرة ومقعد ذو ثلاث ارجل. وفي الموقد بقايا نار حطب داخنة من غير لهب، وامام مقام مقدس تضيئه شمعة واحدة ركع رجل عجوز، وكان الى جانبه صندوق خشبي

عليه كتاب مفتوح وجمجمة بشرية. كان الرجل ضخم الجثة بادي العظام طويل الشعر والشوارب بلون الثلج، يرتدي ثوباً من جلد الاغنام من رقبته حتى عقبيه.

وقال الملك في نفسه:

ـ ناسك مقدس. اني الآن موفور الحظ في الحقيقة.

ونهض الناسك من على ركبتيه، وطرق الملك الباب واجاب صوت عميق.

ـ ادخل، ولكن اترك الاثام خلفك، لأن الارض التي ستقف عليها مقدسة!

دخل الملك وتوقف. وادار الناسك اليه عينين مشرقتين قلقتين، وقال:

ـ من أنت؟

وجاء الجواب بهدوء رابط الجأش.

ـ انا الملك.

ـ اهلاً بالملك!

صاح الناسك بحماسة ثم انطلق بانفعال وحيوية وهو يردد:

«اهلاً بالملك، اهلاً!» ورتب المصطبة واجلس الملك عليها، عند المصطلى والقى قطعاً من الخشب على النار ثم راح يذرع ارض الكوخ بخطى عصبية.

ـ اهلاً بكم: كثيرون هم الذين التمسوا ملاذهم هنا،

ولكنهم لم يكونوا يستحقون ذلك، وطردوا ، غيران الملك الذي يتخلى عن تاجه ويحتقر الابهة الفارغة لمقامه، ويكسو نفسه بالخرق الرثة ويكرس نفسه الى حياة الوحدة ويكبح شهوات البدن ـ لهو جدير بالتقدير ومرحباً به! سيمكث هاهنا طوال ايامه حتى الممات.

واسرع الملك يقاطعه ويشرح له الامر ولكن الناسك لم يأبه به ـ ولم يسمعه بحسب الظاهر واستمر بحديثه رافعاً صوته متكلماً بنشاط متزايد قائلا:

ـ وستكون هادئاً مطمئناً هاهنا. وسوف تقيم الصلاة وتدرس الكتاب . وسوف تتأمل في حماقات هذه الدنيا وضلالها ورفعة العالم القادم. سوف تقتات كسراً من الخبز اليابس والاعشاب، وتجلد بدنك بالسياط يومياً، من صفاء الروح. سوف تلبس ثوباً من صوف على جسدك مباشرة، وسوف تشرب الماء وحده، وستكون في سلام، اجل في سلام تام. وان من سيأتي للبحث عنك سوف يعود ادراجه بلا طائل، فلن يجدك ولن يضايقك

وكان الرجل مايزال يمشي جيئة وذهاباً وكف عن الكلام بصوت مسموع واخذ يتمتم. وانتهز الملك هذه الفرصة ليبين حالته، وقد فعل ذلك بفصاحة املتها عليه خشيته واضطرابه، ولكن الناسك الذي ظل يتمتم تقدم الى الملك وقال بلهجة مؤثرة:

ـ شش! سأقول لك سراً!.

وانحنى عليه ليفضي به، ولكن امسك عن ذلك، وتظاهر بالانصات. وبعد لحظة او لحظتين ذهب على اطراف قدميه الى النافذة واخرج راسه وتطلع حوله في الظلام، ثم عاد على اطراف اصابعه ووضع وجهه قريباً من وجه الملك وهمس:

ـ انا من الملائكة الكبار!

فجفل الملك جفلة عنيفة وقال في نفسه: «ياليتني كنت مع الخارجين على القانون مرة اخرى، لأنني الآن سجين رجل مجنون» وزادت مخاوفه وظهرت على وجهه بوضوح . فقال الناسك بصوت خافت:

ـ ارى انك تحس بالجو، ويبدو الرعب في وجهك! لا يكون احد في هذا الجو ولا يتأثر بهذا الشكل لانه جو الجنة نفسه. انا اذهب الى هناك واعود في لمح البصر. صرت ملاكاً في هذه البقعة نفسها، قبل خمس سنوات، بامر نقلته ملائكة مرسلة من السماء للتباحث في امر ذلك المنصب الرفيع الرهيب. وملأ حضورهم هذا المكان بنور مشرق لا يطاق. وركعوا لي، ايها الملك! ركعوا لي! لانني كنت اعظم منهم. وتمشيت في جنبات الجنة وعقدت اجتماعات مع البطاركة. المس يدي ـ لا تخف ـ المس يدي. وها انت تلمس يدي التي

صافحها ابراهيم واسحق ويعقوب! وبما اني سرت في ابهاء ذهبية فاني رأيت المعبود وجهاً لوجه!

وتوقف ليعطي هذا الكلام اثره. ثم سرعان ما تغير وجهه، ثم راح يتمشى مرة اخرى قائلاً، بقوة غاضبة: اجل اني كبير الملائكة. كبير الملائكة! انا الذي كان من الممكن ان اصبح البابا! هذا امر صحيح جدا لقد اخبرت من السماء بذلك في احد الاحلام، قبل عشرين سنة. آه نعم، كنت ساصبح بابا! وكان من الواجب ان اكون، لأن السماء قالت ذلك ـ ولكن الملك الغى بيتي الديني فالقوابي انا الراهب المسكين المغمور في هذه الدنيا مشرداً بلا مأوى ولا اصدقاء، وسلبوني قدري العظيم.

ثم راح يتمتم مرة اخرى ويضرب جبينه بقبضته في غضب لا طائل تحته، وكان يطلق بين آن وآخر لعنة، ثم كلاماً مثيراً للشفقة:

وهكذا لم اعد سوى ملاك ـ ان الذي كان من الواجب ان اصبح بابا!

واستمر على هذا المنوال ساعة والملك الصغير جالس يقاسي الامرين. وسرعان مازال سعار الرجل العجوز وتحول الى لطف. ورق صوته وهبط من عالمه العلوي وراح يثرثر ببساطة وبروح انسانية فكسب بذلك

فؤاد الملك في الحال. ونقل الصبي قريباً الى النار وجعله مرتاحاً وداوى كدماته وسحجاته برقة وحنان. ثم شرع في تحضير العشاء، وهو يتحدث بلطفٍ طوال الوقت ويلاطف خد الملك او يربت على رأسه، بوداعة فزايل الصبي بعد برهة قصيرة خوفه ومقته اللذين اوحى بهما الملاك وتحولا الى احترام وميل للرجل.

وظلت هذه الحال السعيدة في اثناء تناول الاثنين طعام العشاء؛ وبعد اداء الصلاة امام المقام اخذ الناسك الصبي الى الفراش في حجرة صغيرة مجاورة، وغطاه بحنو ومحبة كما تفعل الام، ثم لاطفه على خده وتركه وجلس بجانب النار واخذ يحرك الجمرات بطريقة عشوائية ودونما تفكير. ثم توقف فجأة، وربت على جبينه عدة مرات باصابعه كأنه يحاول ان يستذكر فكرة هربت من خاطره. ونهض سريعاً ودخل حجرة الضيف وقال: ـ أأنت ملك؟

وكان الجواب بكلام ناعس:

ـ نعم.

ـ واي ملك؟

ـ ملك انكلترة.

ـ انكلترة. اذن مات هنري!

ـ اسفاه، هذا ماحصل. وانا ابنه.

وهبط على وجه الناسك تجهم قاتم، وعصر يديه العظمية. بحقد شديد وحب للانتقام. ووقف لحظات قليلة، سريع التنفس يبتلع ريقه مراراً، ثم قال بصوت اجش:

- اتعرف انه هو الذي طردنا وشردنا في هذه الدنيا بلا مأوى ولا بيت؟

ولم يتلق جواباً، وانحنى العجوز وتملى في وجه الصبي الهادىء واصغى الى تنفسه المنتظم. «هو نائم. نوماً عميقاً». وتلاشى التجهم وحل محله تعبير شرير. وطافت ابتسامة على وجه الصبي وتمتم الناسك «وهكذا فان قلبه سعيد.» وابتعد عنه، وسار متلصصاً هنا وهناك يبحث عن شيء، ويتوقف بين حين وآخر ينصت ويلتفت بين حين واخر حوله ويلقي نظرة عجلى الى الفراش، وهو يتمتم دائماً ويغمغم. واخيراً وجد ماكان يبدو انه يبحث عنه - سكين قصاب صدئة قديمة ومسناً، ثم تسلل الى مكانه قرب النار وجلس وبدأ يشحذ السكين بهدوء على حجر المسن وهو يتمتم ويغمغم ويهتف. وكانت الريح تئن حول الكوخ الوحيد واصوات الليل تحوم آتية من بعيد. وكانت عيون الجرذان والفئران المغامرة تتطلع الى العجوز من الشقوق والمكامن، غير انه استمر في عمله، مستغرقاً في فكره، سابحاً في عالم

آخر.

وكان في فترات متباعدة يضع ابهامه على حافة السكين، ويهز راسه بقناعة ويقول: اصبحت اكثر حدة، نعم اصبحت اكثر حدة.

ولم ينتبه الى مرور الزمن السريع، بل ظل يعمل بهدوء وهو يتسلى بافكاره التي تتدفق احياناً في كلام منطوق:

- ابوه هو الذي فعل ذلك كله. لست إلاّ ملاكاً، ولولاه لأصبحت بابا!

وتحرك الملك. وقفز الناسك بهدوء الى جانب الفراش، وجثا على ركبتيه وانحنى على الشخص المستلقي رافعاً سكينه. وتحرك الصبي مرة اخرى. وفتح عينيه لحظة، ولكنهما لم تريا شيئاً. وبيّن تنفسه الهادىء بعد لحظة انه عاد الى نومه العميق مرة اخرى.

راقب الناسك واستمع برهة، باقياً في مكانه يكاد لا يتنفس. ثم خفض يده ببطء، وغادر المكان في الحال، وهو يقول:

- لقد مر وقت طويل على منتصف الليل - وليس من الخير ان يصرخ لئلا يسمع احد المارة بالمصادفة.

وانسل في ارجاء كوخه يجمع خرقة من هنا وسيراً جلدياً من هناك، وآخر في مكان آخر، ثم عاد واستطاع يربط

كاحلي الملك معاً بكل حذر وهدوء من دون ان يوقظه، ثم حاول ان يربط رسغيه، وحاول مرات عديدة ان يجمعهما، ولكن الصبي كان دائماً يبعد احدى يديه عن الأخرى، كلما كان الحبل حاضراً للاستعمال، ولكن عندما كاد الملاك ان يصيبه اليأس، قارب الصبي يديه بنفسه، فربطهما الرجل. ومرر رباطاً تحت ذقن النائم وربطه فوق رأسه بسرعة وبلطف وشدت العقد بصورة مضبوطة، ونام الصبي بهدوء وهو في تلك الحال من دون ان يتحرك.

الفصل
(٢١)

هندن يخف لنجدته

انسل العجوز بعيداً، وانحنى خلسة كالقط وجلب المصطبة الواطئة. وجلس عليها وكان نصف جسمه في الضوء المرتعش والنصف الآخر في الظل. وانحنى على الصبي النائم بعينيه النهمتين، وظل ساهراً يراقب، غير ملتفت الى مرور الوقت السريع وكان يحد السكين ويتمتم ويضحك بينه وبين نفسه.

لاحظ العجوز، بعد فترة طويلة، ان عيني الصبي مفتوحتان ومحملقتان الى الاعلى في رعب شديد بالسكين. فطافت على وجه العجوز ابتسامة شيطان مسرور، وقال دونما تغيير اتجاهه او وضعيته:

يا ابن هنري الثامن هل صليت؟

وحاول الصبي عبثاً التخلص من اربطته واخرج في الوقت نفسه صيحة مكتومة من بين فكيه المغلقين،

فسرها الناسك جواباً على سؤاله بالايجاب .
ـ اذن صلِّ مرة اخرى . صلِّ صلاة الموتى !
وهـزت رعـدة كيان الصبي وشحب وجهه . ثم جاهد مرة
اخـــرى للتخلص ـ يتلوى ويتقلب بهـذا الاتجـاه وذاك،
ويسحب بقوة وشدة ويأس ـ ولكن عبثاً يحاول ـ من أجل
ان يفك قيوده . وكان الشيطان العجوز طوال الوقت يبتسم
فوقـه ويهـز رأسـه ويحـد السكين بهدوء ويتمتم بين حين
وآخر: اللحظات ثمينة ـ انها قليلة وثمينة ـ صلِّ صلاة
المحتضرين .
واطلق الصبي أنةً يائسة ثم كف عن الكفاح وهو يلهث،
ثم فاضت الدموع وجرت واحدة بعد اخرى على وجهه،
غير ان هذا المنظر لم يؤثر في العجوز المتوحش تأثيراً
طيباً .
الفجـر يبزغ الآن وقد لاحظه العجوز وتكلم بحدة بشيء
من العصبية في صوته :
ـ لن ارجيء هذه النشوة الغامرة فترة اخرى! لقد انقضى
الليل . ويبدو انه لم تبقَ إلا لحظة ، لحظة واحدة . كأنها
سنـــة . يا بذرة تدنيس الكنيسـة ، اغلق عينيـك اذا كنت
تخشى النظر إليّ .
وضـاع الكـلام البـاقي في تمتمـات . وهبـط العجوز
على ركبتيه والسكين في يده وانحنى على الصبي

المنتحب .
واصاخ السمع! اصوات تقترب من الكوخ ـ وسقطت
السكين من يد النـاسـك والقى جلد خروف على الصبي
وانتصب واقفاً وهو يرتعش . وزادت الاصوات وسرعان ما
اصبحت خشنـة غاضبـة ، ثم جاءت ضربات وصرخات
وصيـاح بطلب النجـدة ، ثم وقـع اقدام سريعة تتراجع .
وفجأة جاءت قرعات مدوية على باب الكوخ ، وصيحة :
ـ ياهذا! افتح! وبسرعة باسم جميع الشياطين اوه، هذا
هو الصـوت المبـارك الذي كثيراً مانزل كالموسيقى على
اسماع الملك، لأنه كان صوت مايلز هندن!
وصـرف الناسـك على اسنانه وخرج مسرعاً من حجرة
النـــوم ، غالقـاً البـاب وراءه ، وسمـع الملك حديثـاً في
صالحه يأتي من «المصلى» :
ـ تحية واجلالاً ايها السيد المبجل! اين الولد ـ ولدي؟
ـ اي ولد، يا صديقي؟
ـ اي ولـد! لا تكـذب عليّ اي كذبة، ايها السيد القس،
ولا اريـد خداعـاً، فلست مستعداً لتقبل ذلك . امسكت
قريباً من هذا المكان السفلة الاوغاد الذين تأكدت انهم
سرقـوه مني وجعلتهم يعتـرفون وقالوا انه هرب مرة اخرى
واقتفوا اثره الى بابك . واروني اثار اقدامه . فلا تراوغ بعد
هذا، لأنك ايها السيد المقدس اذا لم تخرجه ـ فأين

هو؟

- ايها السيد الطيب، لعلك تقصد المتشرد الملكي في الاسمال البالية الذي قضى الليل هاهنا. اذا كنت مهتماً بذلك فاعلم اذن انني ارسلته في مهمة. وسرعان ما سيعود.

- متى؟ متى؟ هيا، لا تضيع وقتي - هل يمكن ان الحق به؟ متى سيعود؟

- لا تتأثر ياسيدي، سيرجع سريعاً.

- هكذا اذن، ساحاول ان انتظر، ولكن اسمع! - هل ارسلته في مهمة؟ - انت تكذب - انه لن يذهب - يجر لحيتك اذا اقدمت على مثل هذه الاهانة. انت تكذب، ياصاحبي، حقاً انك كاذب! انه لن يذهب لك ولا لغيرك من الناس.

- لغيري - لا، لعله لا يذهب. ولكنني لست من الناس.

- ماذا! ماذا انت اذن بحق الله؟

- انه سر - فانتبه ألاّ تفشي السر لاحد، انا كبير الملائكة!

وخرجت صيحة قذفٍ عظيمة من مايلز هندن - ولكنه لم ينتهك حرمة المقدسات - تلاه:

- وهذا ما يعلل لين عريكته وكياسته. اني اعرف جيداً انه لا يحرك يداً ولا قدماً في خدمة حقيرة لأيّ انسان. ولكن ياسيدي حتى الملك يجب ان ينصاع عندما يأمر

الملاك! دعني - اشش ماهذا الصوت؟

كان الملك طوال ذلك الوقت يرتجف من الرعب ويرتعش على امل.

وكان طوال الوقت ايضاً قد القى جميع قواه في أنينه المكروب، متوقعاً باستمرار ان يصل الى اسماع هندن. ولكنه ادرك بحرارة انه لم يصله، اولم يؤثر فيه. وهكذا وصلت هذه الملاحظة الاخيرة كما يصل نفس منعش من عبير الحقول الى شخص محتضر. فاجهد نفسه مرة اخرى وبجميع مايملك من قوة في الوقت الذي كان الناسك يقول:

- صوت؟ لا اسمع سوى صوت الريح.

- لعله كذلك. اجل لا ريب في ذلك. لقد سمعت ذلك بصورة خافته طوال - ولكن ها هوذا مرة اخرى! انه ليس الريح!

ياله من صوت غريب! هيا، نبحث عنه في الخارج!

وكاد امل الملك وفرحه ان ينهار فلم يعد يحتمل.

واجهد رئتيه المتعبتين، مفعماً بالامل، ولكن فكيه المكممين وجلد الخروف الذي كبحه وكتم صوته، قد شل جميع جهوده. ثم غاص قلب الصبي الصغير عندما سمع الناسك يقول:

- آه، انه يأتي من الخارج - واظن انه من الأيك البعيد.

تعال سوف ادلك على الطريق.

وسمع الملك الاثنين يخرجان ويتحدثان وسمع وقع اقدامهما تضمحل سريعاً وظل وحيداً يلفه صمت يجثم فوقه وينذر بشر رهيب.

ومر وقت كأنه دهر حتى سمع وقع خطى واصوات تقترب مرة اخرى - سمع هذه المرة صوت حوافر، فضلاً عن ذلك. ثم سمع هندن يقول:

- لن انتظر اكثر من هذا - لا استطيع الانتظار اكثر من هذا. لقد ضل طريقه في هذه الغابة الكثيفة. في اي اتجاه سار؟ اسرع - بيّن لي ذلك.

- هو- ولكن انتظر. سوف اذهب معك.

- حسن.. حسن! انك حقاً افضل مما تبدو. لا اظن ان ثمة ملاكاً آخر له قلب افضل من قلبك. هل تركب؟ خذ هذا الحمار الصغير الذي جلبته لولدي، ام تريد ان تركب هذا البغل غير المريح الذي جهزته لنفسي؟

- لا، اركب بغلك، ولا حمارك. واني افضل السير على قدمي.

- اذن ارجوك امسك الحيوان الصغير لكي اركب الآخر الكبير.

وتلا ذلك فوضى من رفسات وصفعات ووطء وضرب

يصحبها لعنات هادرة، توجيه كلام مر في النهاية الى البغل الذي سكن اخيراً هياجه لان الاعتداء يبدو قد انتهى من تلك اللحظة.

وسمع الملك الصغير المكبل بالاغلال في بؤسه المكتوم الاصوات ووقع الاقدام تضمحل وتتلاشى، وجفاه الامل: لقد خدعوا صديقي الوحيد وتخلصوا منه. وسيعود الناسك —

ثم سكت لاهثاً واخذ يصارع بقوة للخلاص من قيوده، فالقى جلد الخروف الذي كتم على انفاسه.

وسمع الآن الباب يفتح! وجعل الصوت رعدة باردة تسري فيه حتى نخاع العظم - وشعر كأن السكين توضع على بلعومه. وجعله الرعب يغلق عينيه، وجعله الرعب يفتحهما مرة اخرى - فرأى امامه جون كانتي وهوكو واقفين!

ولو كان فكاه طليقين، لقال «الحمد لله!»

وبعد لحظة او لحظتين كانت اطرافه حرة وامسك كل من اسريه بذراع واسرعا به سريعاً خلال الغابة.

الفصل
(٢٢)

ضحية الخديعة

وراح «الملك فوفو الاول» مرة اخرى يضرب في الارض مع المتشردين الخارجين على القانون اضحوكة لنكاتهم السمجة ومزاحهم البليد، وضحية مكايدات صغيرة على ايدي كانتي وهوكو عندما يلتفت عنهم رئيسهم. لم يكن في الحقيقة احد يكرهه سوى كانتي وهوكو. كان بعض منهم يحبه، وكان الجميع معجبين بشجاعته وشخصيته. وعمل هوكو الذي كان مسؤولاً عن حراسة الملك وحمايته خلال يومين او ثلاثة، كل ما استطاع في سبيل ايذاء الملك خفية. داس مرتين على اصابع رجل الملك ـ مصادفة ـ ولكن الملك، كما يليق بجلالته، ازدرى ذلك ولم يكترث له، غير انه عندما اقدم هوكو يسلي نفسه بالفعلة ذاتها للمرة الثالثة، طرحه الملك ارضا بهراوة، مما كان موضع سرور مذهل



للجمـــاعــة . فوثب هوكـــو واختطف هراوة وهجم على خصمه الصغير غاضبا . وسرعان ماتشكلت حلقة حول المتقاتلين، وبدأ الرهان والابتهاج، غير ان هوكو المسكين لم يستطع ان يرد اي ضربة من يد تدربت على ايدي اساتذة بارعين في اوربا سواء بالعصا ام بالسيف . ووقف الملك الصغير يقظا ولكن في راحة مطمئنة ورشاقة وتلقى السيل المنهمر من الضربات وصدها بيسر ودقة، فاثار اعجاب المتفرجين الى حد الوحشية وكان بين حين وآخر كلما اقتنصت عينه الخبيرة ثغرة اتبعها بضربة خاطفة كالبرق على راس هوكو. ونتيجة ذلك عاصفة من هتاف الابتهاج والضحك الذي يجتاح المكان بشكل يبعث على العجب. وبعد نهاية خمس عشرة دقيقة. انسل هوكو من الميدان وقد شبع ضربا عنيفا ورضوضا وسخرية لا ترحم. واخذوا البطل السالم من الاذى وحملوه عاليا على اكتافهم مبتهجين ونقلوه الى مكان الشرف بجانب كبيرهم حيث توج باحتفال عظيم وتوج ملكا لديكة العراك .

وباءت كل المحاولات في دفع الملك الى القيام بخدمات للجماعة، رفض باصرار ان يستجيب لهم وفضلا عن ذلك، كان يحاول دائما النجاة. فاقتحم في اليوم الاول من عودته الى مطبخ لم يكن فيه احد، ولم

يخرج منه خالي اليدين حسب، بل حاول يثير انتباه اهل البيت. وارسلوه مع سمكري ليساعده في عمله، ولكنه لم يشتغل، بل هدد السمكري بقضيب اللحيم الحديدي. ووجد كل من هوكو والسمكري ايديهما مليئة بما يمنعه من الهرب.

وهكذا مرت ايام عديدة، واصبح شقاء حياة التشرد هذه وبؤسها، وعناؤها وقذارتها امرا لايطاق بالنسبة الى الاسير الذي بدأ اخيرا يشعر ان خلاصه من سكين الناسك لم يكن إلا حكما بالموت مؤجلا لفترة موقتة في خير الاقوال.

ولكن هذه الاشياء، كان ينساها ليلا في احلامه، وكان يعود الى عرشه سيدا. وكان ذلك يزيد، بطبيعة الحال، آلام اليقظة ـ ويشتد عذاب الصباح التالي قسوة على قسوة مما يصعب تحمله.

ونهض هوكو في صباح اليوم التالي للمبارزة وقلبه مفعم باغراض انتقامية من الملك، وكان لديه خطتان بصورة مخصوصة. احداهما ان يوجه للصبي اهانة لكبريائه وجلالته «الموهومة» واذا فشل في تحقيق ذلك، فان خطته الاخرى هي تلبيس الملك بجريمة وافشاء امرها وابلاغها الى قبضة القانون.

من أجل متابعة الخطة الاولى، اقترح في نفسه ان

يضع «لبخة» على ساق الملك مما سيجرح مشاعر ويخزيه الى ابعد حد. وما ان تبدأ اللبخة تفعل فعلها، فانه سيستعين بكانتي ويجبر الملك على عرض ساقه في الطريق العام وطلب الصدقات. اللبخة تؤدي الى تقرح اصطناعي ومن اجل عمل اللبخة يقوم الشخص بعمل عجينة او كمادة من الكلس غير المطفأ، وصابون وصدأ حديد قديم، وينشر ذلك على قطعة جلد الذي يلف باحكام على الساق. ويؤدي ذلك في الحال الى تغضير الجلد وتآكله ويجعل اللحم طريا مثير المنظر، ثم يُفرك عليه دم مجفف تماما فيأخذ لونا غامضا كريهاً مثيراً للاشمئزاز، ثم توضع ضمادة من خرق متربة قذرة بطريقة تبدو مهملة مما تجعل التقرح البشع واضحا مرئياً وتثير شفقة عابر السبيل.

استعان هوكو بالسمكري الذي روعه الملك بالتهديد بحديدة اللحيم. واخذا الصبي في جولة عمل. وما ان خرجا من المخيم حتى القياه ارضا ومسكه السمكري ولف هوكو اللبخة بصورة محكمة وقوية على ساقه.

وغضب الملك وهاج وهدد بشنق الاثنين في اول لحظة يتسلم فيها الصولجان مرة اخرى. ولكنهما امسكاه بقوة وسخرا من تهديداته وبقيا كذلك حتى بدأت

العجينة تلسعه ولولا اعتراض المتدخلين لتم العمل في وقت قصير. في ذلك الوقت ظهر «العبد» الذي القى خطبة يشجب فيها القانون الانكليزي، ووضع نهاية لعملهما وفك اللصقة والضماد.

واراد الملك ان يستعير هراوة مخلصه ويضرب الوغدين ولكن الرجل لم يوافق، لان ذلك يجلب المشاكل - اترك المسألة حتى الليل.

سوف تلتقي الجماعة، ولن يكون ثمة احد من الناس الخارجين من يغامر بالتدخل والاعتراض. واخذ الجماعة الى المخيم وقدم تقريرا يخبر كبيرهم بفعلتهم، فاصغى وتفكر وقرر ان الملك لن يخرج للتسول مرة اخرى، اذ انه يبدو عليه انه جدير بشيء اسمى وافضل - فرقاه في الحال من رتبة المتسولين وعينه مع السارقين.

وفرح هوكو كثيرا، اذ هو حاول ان يدفع الملك الى السرقة ولكنه فشل. ولكن هذه المرة لن تكون ثمة مشكلة - من ذلك النوع، لان الملك لن يحلم بطبيعة الحال بتحدي امر صريح واضح القي اليه مباشرة من كبيرهم. فرسم خطة للقيام بغارة في عصر ذلك اليوم بالذات هادفا منها القاء الملك في قبضة القانون بسببها. ولاجل القيام بذلك ايضا بشكل بارع قرر ان يبدو الامر كأنه وقع مصادفة ومن غير عمد.

حسنـــا . خرج هوكـــو يتمشى الى قريـة مجـاورة مع ضحيتـه ، وسـار الاثنـان على مهل ذهابا وايابا من شارع الى آخـر، . وكـان احـدهما يراقب بحدة من اجل فرصة لانجـاز غرضـه الشـرير، وكان الآخر يراقب منتظراً فرصة للهرب والتخلص من هذا الاسر الشأن الى الابد .

ووضع كل منهما فرصة محتملة مواتية ـ للخلاص من الآخـر. وقرر الاثنان في سرّيهما القيام بعمل اكيد هذه المـرة ولم يسمـح اي منهمـا لرغبـاتـه الخاصة ان تغويه للقيـام باي مغـامرة غير مأمونة الجانب ولكن فرصة هوكو جاءت اولا . فقـد اقتـربت امـرأة تحمـل رزمـة كبيرة في سلة . والتمعت عين هوكـــو بفـرح شريـر وهـو يقـول في نفسـه : «تنفسي الصعـداء ياحيـاتي ، انني الآن استطيع القي ذلـك على رأسـه . انه وكر جيد حفظك الله ياملك ديكـة العـراك !» وانتظـر وراقب ـ في الظـاهر يبدو صابرا هادئـا ولكنه في الباطن يحترق من الانفعال ـ حتى مـرت المـرأة بهمـا وحان الوقت فقال في صوت خفيض : « ابق هنا حتى اعود ثانية . . واندفع كالسهـم وراء فريسته متلصلصا .

وامتلأ قلب الملك بهجـة ـ انـه يستطيـع النجاة الآن ،لو ان ما يقوم به هوكو سيبعد به كثيرا .

غيـر انـه لم يواتـه مثـل ذلـك الحظ، فسار هوكو وراء

المـرأة وخطف الـرزمـة وعـاد يركض وقـد لفها في خرقة قديمـــة كان يحملهـــا على ذراعـــه . وارتفـــع الصيـــاح بالمطاردة في الحال من المرأة التي عرفت بما سرق منها من خفـة الحمـل ولـو انها لم تر عملية الاختلاس . القى هوكو الرزمة في يدي الملك دونما توقف قائلا :

اركض ورائـي مع الآخـــريـن واصـــرخ : امـسكـــوه! حرامي !» ولكن رواغهم وضللهم .

وبعد لحظة استدار هوكو حول ركن من شارع وانطلق كالسهم في زقـاق متعـرج ـ وبعـد لحظـة اولحظتين عاد للظهـور ثانيـة تبـدو عليـه البـراءة وعـدم الاهتمام واتخذ موقف المتفرج على النتائج من وراء عمود .

والقى الملك المهان الرزمة على الارض، وانفتحت الخـرقة عنها عندما وصلت المرأة قربه يتبعها جمهور من الناس المتجادلين .

وقبضت على رسغ الملك بيد وخطفت الرزمة بالاخرى . واخـذت تكيـل التقـريـع للصبي عن سوء تربيتـه ، وهـو يحاول جاهدا الخلاص من قبضتها من دون طائل .

رأى هوكـو ان خصمـه قد القي القبض عليـه وسوف يناله القانون هذه المرة ، فانسل مبتعدا جذلا مقهقها ، ومضى في سبيله نحـو المخيم ، وهـو يلفق حكـاية معقـولة عن المسألة يقدمها لجماعته وكبيرهم في اثناء سيره في

الطريق .

وواصـل الملك صراعـه للتخلص من قبضـة المرأة وكان يصرخ بين حين وآخر في غيظ :

ـ فكي يدي ، ايتها الحمقاء . لم اكن انا الذي نهب منك اشياءك الحقيرة التافهة .

وتحلق النـاس حولهمـا يهـددون الملك ويشتمـونه وتقـدم اليـه حداد مفتـول العضل يضع صدرية من جلد وقـد شمـر عن اردانـه حتى مرفقيه وقال انه سيعاقبه جيدا لاعطـائـه درسـا ، ولكن في تلك اللحظـة التمـع سيف طويـل في الهـواء وهبـط بقـوة شديـدة على ذراع الرجل بالعرض وقال صاحبه بصوت لطيف في الوقت نفسه :

ـ ايهـا النـاس الاخيار، دعونا نعمل بلطف وليس بالدماء والكلمـات غيـر الـرحيمـة . هذه مسألـة متـروكـة لحكم القـانـون وليس لاعمال القرصنة غير القانونية . اتركي يد الصبي ايتها المرأة الفاضلة .

ورمق الحـداد الجنـدي القـوي بنظـرة ، ثم ولى وهو يتمتم ويفـرك ذراعـه ، واطلقت المـرأة رسغ الصبي على مضض ، ونظــر الحشــد الى الغـريب كارهين وسكتوا محتـرسين من عواقب الامـور . ووثب الملك الى جانب منقذه ، بخدين محمرين وعينين لامعتين ، وقال هاتفا :

ـ لقـد تأخـرت كثيـرا ولكنك اتيت في الوقت المناسب ياسير مايلز مزق لي هؤلاء الرعاع اربا .

الفصل (٢٣)

الامير سجينا

كتم هندن ابتسامة وانحنى وهمس في اذن الامير:

بلطـف ، يا اميـــري ، بلطف . تكلم باحتـــراس ـ أو لا تتكلم اطـلاقـاً . ثق بي وسوف تجري الامور على مايرام حتى النهاية .

ثم اضاف قائلاً في نفسه:

ـ سير مايلز! يا الهي! لقد نسيت تماماً انني صرت فارساً ياربي ، مااروع ما تبدعه مخيلته الغريبة المخبولة!

وانفـرج الحشد ليسمحوا لشرطي بالمرور جاء ليلقي القبض على الملك واوشك ان يضع يده على كتفه فقال له هندن :

ـ ترفق ياصديقي الطبيب واسحب يدك عنه ـ سيذهب بهدوء .

أنا مسؤول عن ذلك ، سنأتي وراءك .

وسار الشرطي امامهم والمرأة ومعها الرزمة ومايلز والملك وراءهم، وعلى اعقابهم حشد من الناس. وكاد الملك ان يتمرد ولكن هندن قال له بصوت خفيض:

ـ تذكر يامولاي ـ ان قوانينكم هي روح الحكمة النابعة من ملكيتكم فهل يجوز ان يقاومها من هو اصلها ويطلب من الفروع احترامها؟

ـ انت على حق، ولا تقل غير هذا. سوف ترى أن كل مايطلبه ملك انكلترة من رعاياه ان يتحملوه، سوف يتحمله هو نفسه مادام هو في موضع الرعايا.

وعندما استدعيت المرأة للادلاء بافادتها امام ممثل العدالة والسلام، اقسمت ان المتهم الصغير الماثل في قفص الاتهام هو الذي قام بالسرقة. ولم يكن ثمة أحد قادراً على ابداء عكس ذلك لذلك وقف الملك مداناً ثم فتحت الرزمة وعندما تبين ان محتوياتها كان خنزيراً صغيرا سمينا محشواً، اضطرب القاضي، وشحب هندن وارتجف بدنه من الفزع الشديد. ولكن الملك ظل واقفاً لم يتأثر، نتيجة لجهله. وتأمل القاضي وبعد فترة صمت تنذر بالشؤم، التفت الى المرأة وسألها:

ـ بماذا تقدرين ثمن هذا الشيء؟

انحنت المرأة احتراما واجابت:

ـ ثلاثة شلنات وثمانية بنسات، ياصاحب السعادة ـ لم انقص بنيا واحدا وقلت لكم الثمن الحقيقي بامانة.

تلفت الحاكم حوله والقى نظرة مضطربة الى الجمهور، واشار برأسه الى الشرطي وقال:

ـ اخرج الحاضرين في المحكمة واغلق الابواب.

وفعل ذلك، ولم يبق غير الموظفين والمتهم، والمشتكية ومايلز هندن الذي تخشب وشحب وتجمعت على جبينه قطرات عرق بارد كبيرة تتصل ببعضها ثم تسيل على وجهه. والتفت القاضي الى المرأة مرة اخرى وقال بصوتٍ عطوف:

ـ انه صبي مسكين جاهل ولعل الجوع دفعه الى ذلك في هذا الزمن العصيب، الثقيل على البائسين. وارى انك لا تمتلكين وجها شريرا ـ ولكن عندما يدفع الجوع الانسان ـ ايتها المرأة الفاضلة! هل تعرفين انه اذا سرق الانسان شيئا يزيد ثمنه على ثلاثة عشر بنسا فان القانون يقول انه يشنق بسبب ذلك؟

وجفل الملك الصغير واتسعت عيناه رعبا ولكنه سيطر على نفسه وتمالك هدوءه ولكن المرأة لم تستطع ذلك. فوثبت واقفة، ترتعش من الرعب وصاحت.

ـ رحماك يارب، ماذا فعلت؟ لن اكون سببا في شنق الولد المسكين من اجل العالم كله! انقذوني من هذا يا

صاحب السعادة ـ ماذا افعل ماذا استطيع أن افعل؟
واستعاد القاضي هدوءه القضائي وقال ببساطة :
ـ يمكـن بلا ريـب مراجعــة الثمن مادام لم يكتب في السجل لحد الآن .
ـ اذن بالله ليكن ثمنـه ثمـانيـة بنسـات، وليبارك الله اليوم الذي حررت فيه ضميري من هذا الشيء المخيف!
ونسي مايلز هنـدن اصـول اللياقة من فرح، وفاجأ الملك والقى ذراعيـه حوله وهو يعانقه. . وودعتهم المرأة شاكرة وخرجت بخنزيرها. وعندما فتح الشرطي لها الباب تبعها الى الصـالـة الضيقـة. وراح القاضي يكتب في سجله واراد هنـدن النـابـه دائمـا ان يعرف لماذا خرج الشرطي وراء المرأة. فتسلل بخفة الى الصالة المعتمة واصغى. فسمع الحديث يجري كما يلي :
ـ انه خنزير سمين واكله لا ريب لذيذ. ساشتريه منك هذه ثمانية بنسات.
ـ ثمــانيـة بنسـات! احق ماتقـول ؟ لا ، لن تفعـل ذلـك كلفني ثلاثـة شلنات وثمانية بنسات، من النقد الصحيح غير المزيف من ايام الحكم الماضي. بئست بنساتك الثمانية!
ـ أتقـرين بذلـك؟ لقـد اقسمت وكان قسمك كذبا عندما قلت ان ثمنـه ثمـانيـة بنسـات. تعالي ارجعي معي الى

سعادة القاضي، واجيبي عن الجريمة! ـ وسوف يشنق الصبي.
ـ لا، لا ياقلبي، كفى لا تقـل شيئـا آخـر. لقد رضيت. هات الثمانية بنسات واسكت عن المسألة.
وذهبت المـرأة باكيـة، وعـاد هنـدن متسللا الى قاعة المحـاكمـة، وتبعـه الشـرطي في الحـال بعـد ان اخفى ماحصـل عليه في مكان امين، وظل الحاكم يكتب، ثم القى على الملك محـاضـرة حكيمة رقيقة واصدر حكما بالسجن مدة قصيـرة في سجن عمـومي، ثم يتبـع ذلـك عقاب بالفلقة علنا امام الجمهور. وفغر الملك المذهول فاه ولعله اراد ان يأمـر القـاضي الطيب ان تقطع رقبته في الحـال. غيـر انـه تلقي اشارة تحذير من هندن ونجح في غلق فمـه قبـل ان يخرج منه اي شيء. واقتاده هندن من يده، وانحنى للقاضي وغادر الاثنان في حراسة الشرطي الى السجن. ومـا ان وصـلا الشـارع حتى توقف الملك الغاضب وانتزع يده وصاح :
ـ ايها الابله، هل تتصور اني سادخل سجنا عموميا وانا حي؟
وانحنى هندن وقال شيئا بحدة :
ـ هل تثق بي؟ اهــدأ ارجـوك وتحمـل لئـلا تسـوء حالنـا وفـرصـة النجـاة من جراء كلام خطيـر. لن يحدث الا ما

شاء الله . ولا يمكن التعجيل في ذلك ولا يمكنك تغييره . لذلك انتظر وكن صبورا ـ وسيكون لديك الوقت الكافي لتشجب او تفرح اذا حدث مايجب ان يحدث .

الفصل (٢٤)

النجاة

اوشك نهار الشتاء ان ينقضي ، وكانت الشوارع خالية لولا بعض المتشردين القلائل بين حين وآخر، المسرعين في مشيهم ، الذين يبدون متلهفين لانجاز مهماتهم باسرع ما يمكن ليسكنوا في بيوتهم من الريح التي بدأت تهب ومن الظلام الذي اخذ يشتد . وتساءل ادورد السادس في نفسه فيما اذا كان منظر ملك يقاد في طريقه الى السجن قد شهد يوما مثل هذه اللامبالاة في الماضي . ثم وصل الشرطي الى ساحة سوق خالية واستمر في مشيه من اجل اجتيازها وعندما بلغ منتصفها ، وضع هندن يده على ذراع الشرطي وقال بصوت خفيض .

ـ توقف لحظة ياسيدي ، ليس ثمة احد يسمعنا فاني اريد ان اقول لك كلمة .

- واجبي يمنع ذلك ياسيدي . ارجوك لا تؤخرني ، فالليل يتقدم .
- توقف ، ذلك لايهم ، لان المسألة تخصك انت بالذات فأدر ظهرك لحظة وتظاهر انك لا ترى شيئا : دع هذا الصبي المسكين يهرب .
- اتقول هذا لي ياسيدي! اني القى القبض عليك -
- كلا ، لا تتعجل كثيرا، وكن حذرا من اقتراف عمل خاطيء .
ثم خفض صوته وصار يهمس في اذن الرجل :
- الخنزير الذي اشتريته بثماني بنسات قد يكلفك رقبتك يارجل!

وفوجيء الشرطي المسكين وظل ساكنا اول الامر ثم استطاع ان يتكلم وراح يهدد ويتوعد ولكن هندن كان هادئا وانتظر صابرا حتى انتهى الشرطي ، فقال له :
- انا اودك ياصديقي ولا ارغب ان اراك تصاب باذى انتبه الي ، لقد سمعت كل شيء - كل كلمة . وسأثبت لك ذلك .
ثم كرر عليه الحديث الذي دار بينه وبين المرأة في الصالة الضيقة كلمة كلمة وانهى قوله :
- ها - ألم اقل كل شيء بصورة مضبوطة؟ الا استطيع ان

ادلي بذلك بصورة صحيحة امام القاضي ، اذا تطلب الامر؟
وصعق الرجل وظل ساكتا من خوف وقلق لحظة واحدة ، ثم استجمع قوته وقال بمرح مفتعل :
- كان هذا الامر الخطير مجرد مزاح . سألت المرأة من اجل تسلية نفسي .
- وهل احتفظت بخنزير المرأة للتسلية؟
فاجاب الرجيل محتدا :
- كلا ياسيدي الطيب - اقول لك : لم يكن ذلك الا مزاحا
فقال هندن بشيء من السخرية المحيرة وشيء من الثقة في لهجته .
- لقد بدأت اصدقك ، ولكن انتظر لحظة حتى اذهب راكضا لأسأل سعادته لأنه ، رجل خبير في القانون وفي المزاح وفي —
وابتعد عنه وهو يتكلم وتردد الشرطي وقلق ، واطلق شتيمة او اثنتين ، ثم صاح :
- توقف ، ارجوك ، توقف - انتظر قليلا - الحاكم رجل لا يعرف شيئا من المزاح كالميت! فاستمع الى منطق العقل ياصاحب السعادة الطيب ، ماذا تريد مني؟
- كن أعمى وأُخرسَ وأشلّ

قال هندن ذلك بتعبير رجل يطلب معروفا معقولا ولكنه صغير جدا .

فقال الشرطي بائسا :

ـ في ذلك دماري ، فكن متعقلا ياسيدي الطيب وانظر الى هذه المسألة من جميع جوانبها ـ سترى مدى المزاح فيها ـ بصورة واضحة وجلية .

واجاب هندن بوقار ابرد من الهواء الذي حوله :

ـ لمزاحك هذا اسم في القانون ـ اتعرف ماهو؟

ـ لا اعرفه ! لعلي لم اكن حكيما عالما ولم احلم مطلقا ان لذلك اسما ـ يا الهي كنت اظن ان ذلك شيء اصيل .

ـ نعم ، ان له اسما ، وتدعى هذه الجريمة في القانون : لن كومبس مينتس ليكس تاليونس سيك ترانسيت كلوريا موندي .

ـ آه ، يالهي !

ـ وعقوبتها الموت !

ـ ارحمني يا ربي على اثمي !

ـ اذا استغللت شخصا في موقف خطر وهو تحت رحمتك ، ووضعت يدك على بضاعة تقدر باكثر من ثلاثة عشر بنيا ، ودفعت مبلغا تافها بدلها ، فان ذلك بنظر القانون اهمال متعمد وخيانة عظمى وسوء استغلال

الوظيفة ـ وعقوبة ذلك الموت شنقا ، ولا تقبل الفدية او تخفيف العقوبة ، او توسط رجال الكنيسة .

ـ احملني ، احملني ، ياسيدي الطيب، ساقاي تخونانني . كن رحيما ـ وخلصني من هذا الحكم ، وسوف ادير ظهري ولا ارى ما يحدث .

ـ حسناً ، انت الآن حكيم وصائب التفكير . وهل ستعيد الخنزير

ـ نعم ، نعم سأعيده فعلا ـ ولن امس غيره ، حتى ولو أرسلته السماء وجلبه كبير الملائكة . امش ـ فانا اعمى لأجلك ـ لا ارى شيئا . ساقول انهم اقتحموا وخطفوا السجين من يدي بالقوة . انها باب عتيقة متداعية ـ سأكسرها بنفسي بين منتصف الليل والصباح .

ـ افعل ذلك ايها الرجل الطيب ولن ينالك ضير من جرائه.

شعر القاضي بالمحبة الانسانية والرحمة على هذا الطفل المسكين ولن يذرف دمعة ولن يكسر عظام السجان لهربه .

الفصل
(٢٥)

قصر هندن

ما ان ابتعد هندن والملك عن انظار الشرطي ، طلب الى جلالتـه ان يغـذ السيـر الى مكـان معين خارج المـدينـة وينتظـر هنـاك ، حتى يذهبُ هنـدن الى الفندق ويصفي حساباته . وكان الصديقان بعد نصف ساعة يسيران شرقا مبتهجين على حصـانين بائسين عائـدين لهنـدن . كان الملك يشعـر بالـدفء والـراحـة لانه القى اسماله البالية وليس بدلة مستعملة اشتراها هندن على جسر لندن .

ورغب هندن في وقاية الصبي من الارهاق فقد فكر ان الملك الرحلات الشاقة والطعام غير المنتظم والنوم القليل ستسيء الى عقله المـريض ، بينمـا الـراحـة والنظـام والاعتـدال في الجهـد البـدني تستعجـل بلا ريب في شفـائـه ، لذلك قرر السفر على مراحل مريحة الى البيت الذي طرد منه منذ زمن طويل ، بدل الاسراع ليلا ونهارا .

وقطع هو والملك قرابة عشرة اميال، ووصلا قرية معتبرة وتوقفا هناك لقضاء الليل في فندق جيد واستؤنفت العلاقات السابقة بينهما بشكل رسمي فوقف هندن وراء كرسي الملك وهو يتعشى وراح ينتظر اوامره، وخلع له ملابسه عندما حان موعد النوم على السرير ونام هو على الارض امام الباب متدثرا ببطانية

وفي اليوم التالي واليوم الذي بعده، سار الاثنان على مهل، وهما يتحدثان عن المغامرات التي صادفاها منذ فراقهما. وفصل هندن في حديثه عن تجواله الواسع بحثاً عن الملك، ووصف له كيف قاده الناسك، في مسيرة مضللة في ارجاء الغابة، ثم اعاده الى الكوخ في نهاية الامر، لما لم يستطع الخلاص منه. ثم قال ان العجوز ذهب الى غرفة النوم وعاد مترنحا كسير القلب ويقول أنه كان يتوقع ان يجد ان الصبي قد عاد واستلقى في السرير ليرتاح، ولكن لم يكن الامر كذلك. انتظر هندن في الكوخ طوال النهار، وتلاشى امله في عودة الملك وغادر المكان بحثا عنه مرة اخرى.

ـ وكان قدس الاقداس متأسفا حقا ان سموكم لم يرجع وقد رأيت ذلك في وجهه.

ـ لا أشك في ذلك ابدا.

قال الملك ذلك ـ ثم سرد حكايته معه. وبعدها أسف

هندن انه لم يحطم الناسك.

وفي اليوم الاخير من الرحلة، سمت نفس هندن وحلقت في الاعالي. وانطلق لسانه باستمرار، فتحدث عن ابيه العجوز واخيه ارثر، واخبره عن اشياء كثيرة صورت شخصيتيهما الراقيتين الكريمتين. وتحدث عن حبه المجنون لا يدث وكان مسرورا انه استطاع ان يتحدث عن اشياء لطيفة واخوية بشأن اخيه هيو. وعوّل كثيرا على اللقاء القادم في قصر هندن. وما اشد المفاجأة التي سيصاب بها الجميع!

وما اعظم الحمد والسرور الذي سيعمّ المكان!

كانت المنطقة جميلة تزينها الاكواخ والبساتين وكان الطريق يمتد بين مراع مترامية الاطراف، فسحاتها الخلفية تتميز بالوهاد والنجاد، ويخيل للمرء كأنها تموجات البحر بمنخفضاتها ومرتفعاتها. وكان العائد الكريم، في عصر ذلك اليوم، يروغ عن طريقه مرات عديدة لكي يرى اذا كان بمستطاعه، اذا ارتقى رابية، ان يلمح شيئا من بيته، وتكلل مسعاه بالنجاح في نهاية الامر، وهتف منفعلا فرحاً:

ـ تلك هي القرية يا اميري، وذلك هو القصر قريب منها! يمكنك ان ترى الابراج من هنا. وتلك الغابة التي هناك

ـ هي متنــزه والــدي . انـك الآن تعـرف مدى الفخـامـة والجـلال! تصـوّر ـ بيت بسبعين غرفـة! وسبعة وعشرين خادمـا . مسكن رائـع لانـاس مثلنا، اليس كذلك؟ هيا، دعنا نسرع ـ لم يعد صبري يطيق اي تاخير.

وغذا السير قدر المستطاع ، ومع ذلك لم يصلا القرية الا بعـد السـاعـة الثـالثـة . وصـار الاثنـان يجريان . ولم يتـوقف لسـان هنـدن طوال الـوقت : هذه هي الكنيسـة ـ تغطيهـا زهـور اللبـلاب نفسها ـ لم تزد ولم تنقص شيئا . وهنـاك هو فنـدق «الاسـد العجـوز الاحمـر» . وهنـالـك السـوق . وهنا سارية آذار المزينة بالاشرطة والازهار التي يرقص حولهـا النـاس في يوم العيـد ، وهنا المضخة ـ لم يتغيـر شيء ، لاشيء الا النـاس ، على اي حال . عشر سنـوات غيـرت الناس . يبدو اني اعرف بعضهم ولكن لا يعرفني احد .

واستمـر على ذلـك المنـوال في حديثـه حتى بلغـا طرف القـريـة ، ثم عرّج الاثنـان في طريق ضيق متعرج مسيج بوشيـع نبـاتـات عاليـة ، واسرعا فيه مسافة نصف ميل ثم دلفـا الى حديقـة زهـور فسيحـة من باب مهيب تحمـل اعمـدتـه الحجرية شعارات نبالة منحوتة . وتجلى امامها قصر منيف .

وهتف مايلز:

ـ اهـلا بك في قصـر هنـدن يامليكي! انـه ليـوم عظيم . سيجن ابي واخي وليـدي ايدث من الفرح عندما يرونني في اول اللقاء ، وسيبدو لقاؤهـم واستقبالهم لك باردا فلا تأبه لذلك ، لان الامر سيبدو غير ذلك في الحال . لأنني اذا قلت لهم انك تحت وصايتي ، واخبرتهم مدى محبتي لك سترى كيف سيضمـونك الى صدورهم لاجل مايلز هنـدن ، ويجعلون من البيت ومن قلوبهم بيتـا ابـديا لك بعد ذلك!

ثم وثب هندن على الارض امام الباب الكبير وساعد الملك ان ينزل ، وقاده وانطلقا الى الداخل . ووصلا بعد خطـوات قليلة الى بيت واسـع . ودخـلا واجلس الملك على خجـل دونمـا مراسيم ، ثم ركض نحو شاب جالس الى منضدة كتابة امام نار عامرة من الخشب .

وصاح :

ـ احتضني وعـانقني ياهيـو وقل انك مسرور بعودتي ! وناد ابانا لان البيت لن يكون بيتا حتى المس يده وارى وجهه واسمع صوته مرة اخرى!

ولكن هيو تراجع بعد ابداء شيء من الدهشة والقى نظرة جافـة على هذا الـدخيـل ـ نظـرة تدل على من مس احساسه ، اول الامر ، ثم تغيرت الى استجابة الى تفكير او غرض باطني والى تعبير من حب الاستطلاع المذهل ،

الممـزوج بعـاطفـة حقيقية او مفتعلة . ثم قال في الحال بصوت رقيق :

ـ يبـدو ان في عقلك مسّـاً ، ايهـا الغـريب المسكين ، لا ريب لأنـك عانيت كثـيراً من الحـرمـان وصـدود الناس ويدل منظرك وملابسك على ذلك . من تظنني ؟

ـ اظنك؟ من انت غير أنت؟ انك هيو هندن .

واستمر الشخص الآخر بصوته الهادىء نفسه :

ـ ومن تظن نفسك؟

ـ التصـور لا ينفـع في ذلـك؟ تتظاهر انك لا تعرف أخاك مايلز هندن؟

وطـاف على وجـه هيـو تعبيـر من الـدهشـة المسرور وهتف قائلا :

ـ ماذا؟ لا اظنك تمزح؟ هل يمكن للميت ان يعود الى الحياة؟

نحمـد الله اذا كان الامـر كذلك! يعود اخونا المفقود الينا بعـد كل هذه السنين القـاسيـة! آه، يبـدو ان الامر عظيم بحيث لا يصـــدق ، عظيم لا يصـدق، اطلب منك الاّ تسخر بي وان ترحمني هيا اسرع الى النور دعني أرك جيداً

وقبض على دراع مايلز وسحبـه إلى اتـجاهـه وهـو يلتهمـه بنظـراتـه من راسـه الى قدميـه، وهـويديره بهذا

الاتجـاه وذاك وينتقـل حولـه بسرعه وخفة لكي يتثبت منه من جميـع الجهـات، بينما ابتهج السخي العائد واشرق وجهه وابتسم وظل يومىء برأسه ويقول :

ـ استمر ياأخي ، استمر ولا تخف ستجد ان كل اعضائي وسمـــاتي ومـلامحي تستجيب للاختبـار فقلّب وافحص حسب رضـــاك وراحتـك ياأخي هيـو ـ اني فعـلا اخـوك مايلز، مايلز نفسـه ، اخـوك المفقـود، اليس كذلك؟ آه، انـه يوم عظيم ـ اقـول انـه يوم عظيـم! هات يدك، وهات خدك ـ ياسيدي ، كأني ساموت من الفرح!

واوشك ان يلقي نفسه على اخيه، ولكن هيو رفع يده معارضا، ثم القى ذقنه على صدره حزنا وهويقول متأثرا :

آه يا ربي هبني من رحمتك قوة لا تحمل هذه الخيبة الاليمة!

ودهش مايلز ولم يستطـع الكـلام لحظـة، ثم وجد لسانه فصاح قائلا :

ـاية خيبة؟ الست اخاك؟

وهز هيو رأسه حزنا وقال :

ارجـــو من الله ان يكـــون الامـــر كذلـك، وان يستطيـع الاخرون ان يجدوا الشبه الذي خفي علي . واخشى ان الرسالة لم تقل الا الحقيقة .

اي رسالة؟

ـ رسالة جاءت من وراء البحار، قبل ست أو سبع سنوات، تقول ان اخي مات في المعركة.
ـ انها كذب! ادع اباك يعرفني.
ـ لا يمكن للمرء ان يدعو الموتى.
ـ مات؟
وخفت صوت مايلز وارتعشت شفتاه، واكمل قوله:
ـ ابي مات؟ اواه، انه لخبر رهيب. لقد ذوى نصف بهجتي الجديدة الآن. ارجوك دعني أرَ اخي أرثر سيعرفني، سيعرفني ويواسيني.
ـ مات هو ايضا.
ـ رحماك يارب، فاني رجل مبتلى! رحل الاثنان ـ الجدير راح وبقي غير الجدير في نفسي انا! آه! اني ألتمس رحمتك! ولا تقل ان ليدي ايدث ـــ
ـ ميتة؟ كلا، انها ماتزال تعيش.
ـ اذن حمداً لله، فقد عادت بهجتي كاملة مرة اخرى! اسرع يا أخي ـ ودعها تأتي الي! واذا قالت انني لست أنا ـ ولكنها لن تقول ذلك، كلا، كلا، كلا، ستعرفني. من الحماقة ان اشك في ذلك. اجلبها ـ واجلب الخدم العجائز. سيعرفنني ايضا.

ذهب الجميع ماعدا خمسة ـ بيتر وهولسي وديفيد

وبرنارد وماركريت.
قال هيو ذلك وغادر الحجرة، وظل مايلز واقفا يتأمل ثم راح يتمشى ويتمتم:
ـ خلف خمسة اوغاد خبثاء الاثنين والعشرين المخلصين الشرفاء ـ شيء غريب.
وظل يتمشى جيئة وذهابا وهو يتمتم في نفسه وقد نسي الملك تماما، ثم قال الملك بوقار وبلهجة تشوبها العاطفة الاصيلة، ولو ان الكلمات يمكن تفسيرها تفسيرا ساخراً:
ـ لا تهتم بما اصابك من بلاء ايها الرجل الطيب، فثمة ناس اخرون في هذه الدنيا من انكرت عليهم هويتهم وكانت ادعاءاتهم موضع سخرية. فانت اذن لك صاحب.
وصاح هندن وقد عاد اليه لونه قليلا:
ـ آه يامليكي لاتلمني ـ انتظر وسوف ترى. انا لست دجالاً. سوف تقول هي ذلك. ستسمع ذلك من احلى شفتين في انكلترة. انا دجال؟ لماذا؟ انا اعرف هذا البهو، وهذه الصور لاجدادي، وكل هذه الاشياء التي حولنا، كما يعرف الطفل مربيته ومرضعته. هنا ولدت وترعرعت يامولاي. انا اقول الحقيقة ولن اخدعك. ولا تصدق بأحدٍ غيري، وارجو ألاّ تشك في امري ـ فاني لا

اتحمل ذلك .

ـ انا لا اشك فيك .

قال الملك ذلك ببساطة طفولية وايمان .

ـ اشكرك من صميم قلبي .

هتف هندن بحماسة اظهرت انه كان متأثرا . وأضاف الملك ببساطة رقيقة مهذبة كالسابق :

ـ وهل تشك انت في امري .

فاستولى على هندن اضطراب اثيم ، وحمدا لله عندما فتح الباب ليدخل هيو في تلك اللحظة ، فأنقذه من ضرورة الجواب .

تبعت هيو سيدة جميلة ترفل في ثياب نفيسة وجاء بعدها عدد من الخدم في زي مميز . وسارت السيدة على مهلها ، منحنية الرأس وعيناها الى الارض .وكان وجهها حزينا بشكل لا يصدق ووثب هندن نحوها وصاح :

ـ يا ايدث يا حبيبتي ـــ .

ولكن هيو كفه الى الوراء متجهما وقال للسيدة :

ـ انظري اليه . اتعرفينه؟

وجفلت السيدة قليلا لدى سماعها صوت مايلز واحمر خداها ، وصارت ترتعش . وقفت ساكنة في لحظات صمت مؤثرة ، ثم رفعت راسها ببطء ونظرت في

عيني هندن نظرة متحجرة وخائفة .

وغيض الماء من وجهها ، قطرة قطرة ، حتى لم يبق شيء سوى صفرة الموت ، ثم قالت بصوت ميت كموت وجهها : «لا اعرفه» . واستدارت وأنّت وكتمت عبرة . وخرجت مترنحة من الحجرة .

والقى مايلز هندن نفسه في كرسي وغطى وجهه بيديه ، وبعد فترة صمت قصيرة قال اخوه للخدم :

ـ لقد شاهدتموه الآن . هل تعرفونه؟

وهزوا رؤوسهم ، ثم قال مولاهم :

ـ الخدم لا يعرفونك ، ياسيدي . اخشى ان يكون في الأمر خطأ . لقد رأيت ان زوجتي لا تعرفك .

ـ زوجتك !

وتسمر هيو في الحال الى الجدار بقبضة حديدية حول رقبته . واضاف مايلز قائلا :

ـ أيها الثعلب الماكر ، عرفت الآن كل شيء . انت كتبت الرسالة الكاذبة وسرقت عروسي وكل الاشياء الاخرى نتيجة ذلك . والآن اغرب عني لئلا ادنس شرف عسكريتي بقتل قزم حقير!

ترنح هيو الى اقرب كرسي ، محمر الوجه وهو يكاد يختنق وامر الخدم أن يلقوا القبض على الرجل الغريب ويوثقوه وتلكأوا وقال احدهم :

ـ انه مسلح ياسيدي هيو ونحن بلا سلاح .
ـ مسلح ؟ وماذا في ذلك ، انتم كثيرون؟ اهجموا عليه ولـكـن مايـلز حذرهـم ان ينـتـبهـوا الى ماهم فاعلون وأضـاف ـ انكم تعـرفـونني من قديم ـ اذ لم اتبـدل ، هيا تقدموا، اذا احببتم ذلك.
ولم يتشجع الخدم. بل ظلوا واقفين في مكانهم .
ـ اذن اذهبـوا ايهـا الحقـراء الجبنـاء، وتسلحوا واحرسوا الابواب، حتى ارسل في طلب الشرطة.
قال ذلك هيو. واستدار لدى العتبة وقال لمايلز:
ـمن الافضل لك ان لا تقوم بمحاولات غير مجدية للهرب .
ـ الهـرب؟ اطمئن اذا كان ذلك يقلقك، لان مايلز هندن هو صاحب قصر هندن وجميع مافيه من ممتلكات سيبقى ولا ترتاب في ذلك.

الفصل
(٢٦)

الانكار

جلس الملك يتفكر لحظات قليلة ثم رفع نظره وقال :
ـ شيء غريب ـ بل اغرب شيء . ولا استطيع تعليله .
ـ لا ، ليس هذا غريبـا ، يامـولاي . اني اعرفه جيدا وهذا هو سلوكه الطبيعي ، كان وغدا منذ ولادته .
ـ انا لم اتكلم عنه ، ياسير مايلز.
ـ لم تتكلم عنه؟ عمن اذن؟ فما هو الشيء الغريب؟
ـ ان الملك ليس غافلا .
ـ كيف؟ اي؟ اظن انني لا افهم شيئا .
ـ حقا! الا يلفت نظرك ان من الغرابة بمكان ان لا تكون البلاد مليئـة بالسعـادة والبيـانـات التي تصف شخصي وتبحث عني ؟
أليس من الفـوضى والالـم ان يكـون رأس الدولة غائبا؟ ـ أن اكون مختفيا وضائعا؟

ـ صحيح جدا، يامليكي، لقد نسيت.

ثم تنهد هندن وتمتم في نفسه: مسكين محطم العقل وما زال مشغولاً بحلمه المثير للشفقة.

ـ ولكن لدي خطة ستنفعنا. سأكتب ورقة بثلاث لغات اللاتينية واليونانية والانكليزية ـ وستنقلها انت بسرعة الى لندن في الصباح. لاتعطها لأحدٍ غير خالي، لورد هيرتفورد. وعندما يراها سيعرف انني انا الذي كتبتها وسوف يرسل في طلبي.

ـ عسى ان لا ننتظر هنا حتى اثبت نفسي وأطمئن على حقوقي في املاكي؟ وسأكون قادرا على ــ

وقاطعه الملك بطريقة مهيبة:

ـ كفى! ماهي ممتلكاتك التافهة، وماهي اهتماماتك المبتذلة بالمقارنة الى امور تتعلق بصالح الامة وسلامة العرش!

ثم اضاف الى ذلك بصوت رقيق كأنه كان متأسفا على ما بدر منه من قسوة:

ـ اطعني ولا تخش شيئا. سوف انصفك ـ واعيد لك كل شيء كاملا ـ اجل، بل اكثر من ذلك، سوف أتذكر واعوضك.

قال ذلك وتناول القلم وبدأ يكتب. وصار هندن يتأمله بمحبة برهة ثم قال في نفسه:

ـ لو ان الدنيا ظلام، لظننت انه ملك يتكلم، ولا نكران في ذلك، عندما يتفحص الدور فانه يرعد ويزبد مثل ملك حقيقي ـ فمن اين له مثل هذه البراعة؟ انظر اليه يخربش ويشطب بثقة تامة في خطوطه العديمة المعنى، متصورا اياها كلمات لاتينية ويونانية ـ واذا لم تخني فطنتي في ابتكار وسيلة يحالفني الحظ فيها من اجل الهائه عن قصده هذا، فانني سأضطر للتظاهر بالقيام بارسال هذه المهمة التي ابتدعها خياله لي.

وفي اللحظة التالية عادت به افكاره الى الحادثة التي سبقت هذه المسألة، فانغمر في تأملاته، ولما ناوله الملك الورقة التي كان يكتب فيها، تسلمها ووضعها في جيبه من دون وعي بذلك. وراح يتمتم: ما اشد غرابة تصرفها. اظن انها عرفتني ـ واظن انها لم تعرفني. ولابد ان تكون المسألة هكذا: عرفت وجهي وشكلي وصوتي والا كيف يكون الامر غير ذلك؟ ولكنها قالت انها لا تعرفني وهذا برهان كامل، لانها لا تستطيع ان تكذب. ولكن تريث ـ اظن انني بدأت افهم. لعله اثر فيها ـ امرها ـ واجبرها على الكذب هذا هو التفسير! لقد حل اللغز. بدت ميتة من الخوف ـ اجل، كانت مجبرة على ذلك. سوف اقصدها والتقي بها. وبما انه ذهب الان، فانها سوف تفصح عن حقيقة فكرها. سوف تتذكر الايام

الماضيـة . عندما كنا اترابا نلعب معا ، وسوف يلين هذا قلبهـا ، ولن تخـونني بعد هذا ، وستعترف لي بكل شيء ، لان دم الخيـانـة لا يسـري في عروقها ـ كلا ، لقد كانت دائمـا امينـة صادقـة معي . واحبتني في تلك الأيام الخوالي ـ وهذا مايبعث الطمأنينة في نفسي ، لأن المرء لا يمكن ان يخون من احبه .

وتقـدم متلهفـا نحو الباب الذي فتح في تلك اللحظة ودخلت ليـدي ايـدث . كانت شديـدة الشحـوب ولكنها كانت تسير بخطى ثابتة ، وكانت مشيتها مفعمة بالرشاقة والوقار الرقيق . وكان وجهها تكسوه غلالة الحزن كالسابق .

ووثب مايلز نحوها بثقة سعيدة من اجل لقائها غير أنها اوقفتـه باشـارة لا تكـاد تبين وتـوقفت حيثمـا كانت ثم جلست على مقعـد وسألتـه ان يجلس ايضـا . وهكذا وبهـذه البسـاطـة استخـرجت من نفسـه شعـور الصحبة القـديمـة وحـولتـه الى شخص غريب وضيـف ، وجعلته الـدهشـة وذهـول المفـاجأة يتسـاءل لحظـة ان كان هو الشخص الذي يتظاهر بوجوده حقا . وقالت ليدي ايدث :

ـ سيدي ، لقد اتيت لكي احذرك اظن إن حلمك هذا يبدو صادقا لك ، وانك غير مذنب ـ ولكن لا تمكث به هنا أبداً

لان المكان خطر عليك .

ونظرت بثبات في وجه مايلز لحظة واضافت بصوت منفعل :

ـ ولكـان الخطـر اعظم لانـك تشبه ابننا المفقود لو قدر له ان يعيش .

ـ والله ياسيدتي انني هو!

ـ انني واثقـة انـك تظن ذلـك ياسيـد ، واني لا اشك في صدقـك بهـذا الخصـوص ـ ولكنني احـذرك ، وهذا كل شيء . ان زوجي هو السيد في هذه المنطقة . وسلطانه لا يعـرف الحـدود فبمشيئته يهلك النـاس جوعا او يعيشـون مرفهين . واذا كنت تشبـه الـرجـل الـذي تدعي بكـونه ، فيمكن لزوجي ان يدعـك تبتهج بحلمك هذا السلام ، ولكن ثق انني اعـرفـه جيـدا ، واعـرف ماذا سيفعـل . سيقـول للجميـع انـك لست سوى دعي دجال مجنون ، وسوف يردد الناس قوله في الحال .

والقيت الى مايلز نظرة ثابتة هادئة كسابقتها واضافت قائلة :

ـ اذا كنت انت مايلز هنـدن ، ويعـرف هو ذلـك ويعـرفها اهـل المنطقـة ايضـا ، ففكـر بمـا اقول لك ، وقلبه مليا ـ سوف تتعـرض للخطـر نفسـه ، وسيكـون عقابك اكيدا . سينكرك ويتهمك ، ولن يجرؤ احد ان يؤيدك .

فقال مايلز بمرارة :

ـ انني اصدق ذلك حقا، فالقوة التي تستطيع ان تجبر صديق العمر ان يخون وينكر صاحبه، مطاعة فانها تظل طامحة ان تطاع في امور الرزق والحياة في ربوع تكون روابط الاخلاص والشرف اوهي من خيوط العنكبوت.

وبدا على خدي السيدة مسحة خفيفة من لون ظلت لحظة، ثم اطرقت الى الارض، ولكن صوتها لم يكشف شيئا من تأثر عندما واصلت قولها:

ـ لقد حذرتك، واظل احذرك ان تذهب في الحال والا سوف يحطمك هذا الرجل. انه طاغية لا يعرف شيئا من رحمة. وانا الامة المقيدة لديه اعرف هذا جيدا. مسكين مايلز وارثر ووصي العزيز سير ريجارد، قد تخلصوا منه وارتاحوا ـ كان من الافضل لك ان تكون معهم من ان تبقى هنا وتقع في قبضة هذا الوغد اللئيم. اذهب ولا تتلكأ. اذا كنت بحاجة الى مال خذ هذه المحفظة، اتوسل اليك، وقدم رشوة للخدم لكي يسمحوا لك بالخروج. كن حذرا ايها المسكين وانج في الوقت الذي تستطيع النجاة. ورفض مايلز محفظة النقود باشارة من يده ونهض ووقف امامها.

ـ هبيني شيئا واحدا. دعي عينيك تستقرا على عيني لكي ارى ان كانتا ثابتتين راسختين. حسنا ـ الآن اجيبيني. هل انا مايلز هندن؟

ـ كلا انا لا اعرفك.

ـ أقسمي.

وكان الجواب خافتا ولكنه واضح:

ـ أقسم.

ـ أوه، هذا يفوق التصور والاعتقاد!

ـ أهرب. لماذا تضيع الوقت الثمين؟ اهرب وانقذ نفسك.

في تلك اللحظة، اندفع الشرطة في الحجرة وجرى صراع عنيف ولكن هندن سرعان ماغلب على امره والقي القبض عليه واخذ الملك معه ايضا، وكبل الاثنان واقتيد الى السجن.

الفصل
(٢٧)

في السجن

كانت الـزنـزانات مكتظة فقيد الصديقان بسلسلة في حجرة كبيرة حيث كان يحتجز اشخاص متهمون بجرائم تافهـة، فوجـدا لهما اصحـابـا حيث كان قرابـة عشرين سجينـا مكبلين، اومقيـدين في هذه الحجـرة من كلا الجنسين ومختلف الاعمـار - عصـابـة صاخبـة قذرة. واغتاظ الملك غيظا اليما من الاهانة الهائلة التي وجهت الى جلالته، ولكن هندن دهش دهشة عظيمة. عاد الى بيته سخياً طافحـا بشرا، وقد توقع ان يستقبل الجميع عودته بفـرط من الفرح ولكنهم استقبلوه بوجوهمتجهمـةواعراض ونفـور وسجن. شعـر كمـن يرقص فرحـا مبتهجـا يود الاستمتاع بقوس قزح، فصعقه البرق.

ولكن افكـاره المضطـربة المؤلمة هفتت تدريجا الى ما يشبه الاستقرار وتركز تفكيره في ايدث. هل عرفته؟



م لم تعرفه؟ ان ذلك لغز محيّر شغله فترة طويلة، ولكن انتهى اخيرا بيقين انها عرفته، وانكرته لاسباب مصلحية.

واراد ان يشبع اسمها بالسباب واللعنات، ولكن هذا الاسم لم يعد مقدسا بالنسبة اليه لكي يطاوعه لسانه بانتهاك حرمته.

وتدثرا ببطانيات السجن القذرة البالية وامضيا ليلة مضطربة. وجلب حارس السجن مشروبا الى بعض السجناء بعد اخذ رشوة. وكانت النتيجة اغنيات فاحشة ماجنة، وشجار وصياح عربدة. واخيرا وبعد منتصف الليل بقليل، هاجم رجل امرأة وكاد يقتلها بضربها على رأسها باصفاده قبل ان يستطيع حارس السجن ان يأتي لانقاذها. واعاد السجان الهدوء بضرب الرجل بالهراوة ضربا مبرحا على رأسه وكتفيه فانقطعت العربدة. وانتهز الجميع بعد ذلك الفرصة للنوم غير آبهين بالازعاج الذي يسببه انين اثنين من الجرحى.

ومرت الايام والليالي في غضون الاسبوع التالي على وتيرة واحدة وحضرت الاوجه التي كان يتذكرها هندن بصورة واضحة تقريبا نهارا لالقاء نظرة على الدعي الدجال وانكاره واهانته. اما في الليل فقد كانت العربدة والمشاجرة تستمران بشكل متناسق مرتب على انه حدث

تغير في نهاية الامر اذ ادخل السجان رجلا عجوزا وقال له:

ـ الوغد في هذه الحجرة ـ الق نظرة من عينيك العجوزين في المكان وانظر اذا كنت تستطيع القول من هو.

رفع هندن نظره واحس بشعور سار لأول مرة منذ ان جاء الى السجن. قال في نفسه: هذا بليك اندروز، خادم طوال حياته في عائلة والدي ـ انسان طيب شريف ـ له قلب صادق في صدره. ولكن لايوجد احد صادق اليوم، الجميع كاذبون.

سيعرفني هذا الرجل وسينكرني كما فعل الآخرون.

وحملق الرجل العجوز حول الحجرة وحدق في كل وجه ثم قال اخيرا:

ـ لا ارى أحداً سوى اوغاد حقراء، طغام الشوارع، رذال الناس. من هو؟

وضحك السجان. وقال:

ـ ها هو ذا. تفحص هذا الحيوان الكبير واعطني رأيك.

وتقدم العجوز ونظر الى هندن مليا برهة طويلة وبصورة جادة ثم هز رأسه وقال:

ـ ليس هذا هندن ـ ولم يكن هويوما! لو قبضت على الوغد لسُلق، والافاني لست صادقا.

واطلق السجانُ ضحكة كأنها ضحكة الضبع وقال:

ـ اعطـه شيئـا من تفكيرك ايها العجوز ـ فالجميع يفعلون ذلك . ستجد في ذلك لهوا وتسلية .

ثم ذهب الى غرفة الانتظار واختفى فيها عن الانظار وجثا العجوز على ركبتيه وهمس :

ـ حمـدا لله ، انـك عدت ثائبـة ياسيـدي ! اعتقدت انك ميت كل هذه السنوات السبع ، وها انت ذا حي ! عرفتك من اول لحظـة رأيتـك ، وان الخشية من الاشغال الشاقة اجبـرتني ان اظهر الرصانة والوقار والظاهر بعدم رؤية احد سوى السفلة الاوغـاد واوبـاش الشـوارع ونفـايـاتها . انا عجـوز ومسكين ياسيـدي مايلز، ولكن ساقـول كلمة الصدق واعلن الحقيقة ، حتى ولو شنقت من اجل ذلك .

فقال هندن :

ـ كلا ، لن تفعـل ذلـك ، لأنـه سيؤدي الى دمـارك ، ولن ينفعني في قضيتي الا قليـلا . ولكني اشكـرك لانـك اعدت الثقة الى نفسي .

وصـار العجـوز كثيـر النفـع لهنـدن والملك لانه كان يؤدي لهما الزيارة على غير انتظار مرات عديدة في اليوم الـواحـد تكفيـرا عن الـزيـارة الاولى ، وكان يهرب بعض الاطـايب اسعـافا له من طعام السجن ، وكان يزوده بآخر الاخبـار . وكـان هنـدن يحتفـظ بالطعام الطيب للملك ، الـذي لولاه لمـا استطـاع الملك ان يعيش لانـه لم يكن

قادرا على أكـل الطعـام الـذي يقـدمه السجان لخشونته وبؤسه . واضطر اندروز الى الاقتصار على زيارات قصيرة تحاشيا للشك ، ولكنه استطاع ان يفشي معلومات مهمة كل مرة ـ يبلغهـا اليـه بصـوت خفيض لمنفعـة هنـدن يخلطها بنعوت مهينة يسمعها الآخرون .

وهكـذا فقـد انكشفت قصـة العائلة بالتدريج . مات ارثـر قبـل ست سنـوات . واضعفت هذه الخسارة وغياب الاخبـار عن هنـدن صحـة الأب . واعتقـد انـه سيمـوت وتمنى ان يرى هيـو وايـدث مستقـرين في الحيـاة قبـل رحيله ، ولكن ايـدث طلبت بالحـاح لتأجيـل ذلك ، آملة ان يعود مايلز ، ثم جاءت الرسالة التي جلبت اخبار موت مايلز . وانهـار سيـر ريجاردز واعتقد ان نهايته قد حانت ، واصـر هووهيـو على الزواج . وتوسلت ايدث على تأجيل آخـر امـده شهـر واحد ، ثم آخر ، واخيرا شهر ثالث ، وتم الـزواج عنـد سريـر موت سير ريجاردز ، ولم تثبت سعادة هذا الـزواج . وسـر همس في المنطقة ان الزوجة وجدت بعـد العـرس مبـاشرة بين اوراق زوجها عدة مسودات غير كاملة لتلك الـرسـالـة التي تحمل اخبار الموت ، واتهمته بالتعجيـل باجـراء الـزواج ـ وبموت سير ريجاردز ايضا ـ بتزوير شرير . وسمعت حكايات القسوة على ليدي ايدث وعلى الخـدم في كل مكـان ، ونفض سيـر هيـو منـذ وفاة

والده كل الاقنعة الرقيقة واصبح سيدا عديم الرحمة تجاه
كل من يعتمد عليه وعلى املاكه في العيش باي شكل
من الاشكال.

واستمع الملك بشيء من الاهتمام الى بعض مما
أخبر به اندروز:

- يشاع أن الملك مجنون. ولكن محبة لله لا تقل لاحد
انني ذكرت ذلك لان الموت عقوبة من يتكلم عن ذلك،
كما يقال. سوف يدفن الملك الراحل في وندسور بعد
يوم او يومين - في السادس عشر من الشهر - وسوف يتوج
الملك الجديد في ويستمنسر في العشرين منه.

وتمتم صاحب الجلالة:

- اظن انهم يجب ان يجدوه اولا.

ثم اضاف الى ذلك واثقا من قوله:

- ولكنهم سينتظرون - وسانتظر انا ايضاً.

- باسم الـ -

ولكن العجوز لم يكمل قوله اذ جاءته اشارة تحذير من
هندن قطعت عليه ملاحظته. واستأنف حبل قشبته.

- سيذهب سير هيو الى التتويج ومعه آمال عظيمة.
وينتظر واثقاً إن يعود برتبة نبيل، لانه ينال حظوة لدى
الوصي.

وسأل جلالته:

- اي وصي؟

- سعادة دوق سمرسيت.

- اي دوق سمرسيت؟

- لا يوجد سوى واحد - هو سيمور، ايرل اوف هيرتفورد.

وسأل الملك محتدا:

- ومنذ متى اصبح دوقا، ووصيا. ؟

- منذ اليوم الاخير من كانون الثاني.

- ومن جعله كذلك؟

- هو نفسه والمجلس الاعظم - بمساعدة الملك.

وجفل الملك وصاح:

- الملك! اي ملك ايها السيد الطيب؟

- حقا، اي ملك! رحماك يارب، ماذا جرى للصبي؟
مادام لنا ملك واحد ولا احد غيره، فليس الجواب صعبا
- هو جلالة الملك المعظم ادورد السادس - حفظه الله!
اجل ولد صغير عزيز رؤوف. وسواء اكان مجنونا ام غير
مجنون - ويقال انه يتحسن يوميا - كان الثناء عليه سائرا
على كل لسان، ويباركه الجميع، ويبتهلون ان يظل
ملكا ليحكم انكلترة طويلا، لانه بدأ بعمل انساني
عندما انقذ حياة ديوك نورفوك العجوز، ويعمل الآن بهمة
على الغاء اقسى القوانين التي تعم الناس وتظلمهم
وينؤون تحت وطأتها.

وكـان هذا الخبـر قد اذهـل جلالته فاسكته ونقله الى حلم يقظـة عميق وكئيب فلم يعـد يسمـع اي شيء من قشبة الرجل العجوز وتساءل في نفسه ان كان هذا «الولد الصغيـر» هو الصبي الشحـاذ الـذي تركـه لابسـا ثياب الخاصة في القصر. ولم يكن يبدو من الممكن ان يكون الامـر كذلك لان سلوكه وكلامه سيفضحانه لو تظاهر بانه امير ويلز - فسيطرد عنـد ئذ ويجري البحث عن الامير الحقيقي. ولم تجد الصبي تأملاته شيئا، فكلما حاول فك رموز هذا السر الغامض ازدادت حيرته، واشتد صداعه، وساء نومه واضطرب. وازداد نفاد صبره من اجل الوصول الى لندن ساعة بعد اخرى واصبح السجن يكاد لا يطاق.

وخابت كل مساعي هندن مع الملك فلم يستطع ان يجلب له الراحة وهدوء البال، ولكن امرأتين مكبلتين بالسلاسل قريبتين منه نجحتا في ذلك افضل منه فوجد الهدوء والصبر بفضل اسعافهما له.

فكان شاكرا لهما، وصار يحبهما كثيرا ويسرّ بحضورهما الحلو المريح وسألهما لماذا هما في السجن، ولما قالتا انهما معمدانيتان، ابتسم واستعلم قائلا:

- وهل تلك جريمة يسجن المرء من اجلها؟ اني آسف وحزين لانني سافتقد كما - ولكن لن تمكثا في السجن

اطول من هذا.

ولم تجيبا، وجعله شيء ما في وجيهما يشعره بعدم الراحة. فقال متلهفا:

- هل سيجلدونكما؟ كلا، كلا، لا يفعلون فهم ليسوا بهذه القسوة! لن يفعلوا. ولن يأتوا من أجل ذلك، اليس كذلك؟

وبان القلق والهم على المرأتين ولم تستطيعا عدم الجواب فقالت احداهما بصوت تخنقه العبرات:

- انك تفطر قلوبنا ايها الانسان الرقيق الطيب! اعاننا الله على تحمل —

وانهار الملك وقال:

- هذا اعتراف، اذن سيأخذونكما لتجلدا، هؤلاء القساة الذين تحجرت قلوبهم! ولكن لا تبكيا، فلا استطيع تحمل ذلك، تشجعا - سأعود الى مكاني في الوقت المناسب لانقذكما من هذا الشيء الرهيب، سافعل ذلك!

وعندما استيقظ الملك في الصباح، كانت المرأتان قد ذهبتا.

وقال فرحا مبتهجا:

- لقد نجتا!

ثم اضاف جزعا:

ـولكن وا اسفـاه عليّ! اذ كانتـا خيـر من واســاني وجلب العزاء الى نفسي.
تركت كل منهمـا قصـاصة من شريط شكلتاه بدبوس في ثيابه للذكرى.
وقال انه سيحتفظ بهذه الاشياء دائما وسيبحث عن هاتين الصديقتين العزيزتين الطيبتين، ويجعلهما في حمايته.
ثم جاء السجـان ومعـه بعض التـابعين وامر ان يؤخذ السجنـاء الى ساحـة السجن. فرح الملك ـ اذ ستكـون مناسبة حسنة لرؤية السماء الزرقاء وشم الهواء الطلق مرة اخـرى. وهـاج وغضب لبـطء المـوظفين، ولكن جاءت نوبتـه للخـروج اخيرا فاطلق من سلسلته التي تقيده الى الجدار، وامر ان يتبع السجناء الآخرين، مع هندن.
وكانت الساحة او الحوش مبلطة بالحجر مكشوفة الى السمـاء. دخـل السجنـاء اليهـا خلال طاق ضخم البناء كالـدهليـز واصطفوا واقفين وظهورهم الى الحائط، ومد امامهم حبل وكان الشرطة بحراستهم ايضا. كان صباحا شديـد البـرودة مكفهراً، وكانت طبقة من الثلج الخفيف الـذي تسـاقـط في اثناء الليل قد جعلت المكان الخالي الفسيــح ابيض واضـــافت شيئـا الى الغم العظيم لهذا المنظر الذي يقبض الصدر.
وقفت في وســط الســاحــة، امـرأتـان، مقيـدتـان

بالسـلاسـل الى عمـودين. وكشفت نظـرة عجلى القاها الملك ان هاتين المـرأتين همـا صديقتـاه. فاعترته رعدة وقال في نفسه:
ـ اسفـاه لم يطلق سراحهمـا كما ظننت، تصوّر ان هاتين تجلدان في انكلتـرة! تضربان بالسياط وانا الذي حظيت منهما بالمواساة وعاملتاني بلطف وحنان، يترتب على ان انظـر اليهمـا وارى بعيني خطأ فاحشـا يقتـرف انه لشيء غريب! غريب جدا! انا مصدر السلطة في هذه المملكة الواسعة اقف عاجزا عن حمايتهما.
وانفتـح باب كبيـر على مصـراعيـه وتدفق جمهور من النـاس واحتشـدوا حول المـرأتين، واخفوا المرأتين عن ناظـري الملك، وجـاء قس ومـرّ بين الجمهـور واختفى بينهم ايضا. وسمع الملك حديثا، رد وبدل، كأن اسئلة توجه ويجاب عليها ولكنه لم يكن يفهم مما يقال شيئا ثم علا صخب واستعجال كثير واستعدادات ودخول موظفين وخـروجهم بكثـرة الى ذلـك الجـزء البعيـد حيث تقف المرأتـان. ولما تم كل شيء هبط صمت رهيب تدريجاً على الناس.
وانفـرج النـاس بامـر من الاوامـر ووقفـوا جانبـا ورأى الملك منظـرا تجمـد لمرآه النخاع في عظامه. كدست حزم من حطب حول المرأتين وجثا رجل على ركبتيه

يشعلها.

اخفت المرأتان وجناتهما وغطيتا وجهيهما بأيديهما.

وعلت ألسنة اللهب بين حزم الخشب المتفرقع المتكسر، وجرفت الريح غلالات من دخان ازرق.

ورفع القس يديه وراح يصلي - وفي تلك اللحظة انطلقت من الباب بنتان صغيرتان تطلقان صرخات حادة، والقيتا نفسيهما على المرأتين، وانتزعتهما الشرطة في الحال، ولكن احداهما ظلت متمسكة بقوة، بينما اخذت الاخرى بيسر، وهي تقول انها تريد الموت مع امها وقبل ان يمنعها احد اندفعت والقت ذراعيها حول رقبة امها مرة اخرى. وانتزعت ثانية وثوبها مشتعل. ومسكها رجل اورجلان ومزقوا قطعة الثوب المشتعلة والقيت بعيدا وهي تلتهب. وكانت البنت تناضل من اجل تخليص نفسها وهي تقول انها ستبقى وحيدة في هذه الدنيا ، وتتوسل ان يسمح لها بالموت مع امها وظلت البنتان تصرخان باستمرار وتجاهدان من اجل التخلص. وخمدت نوبة البكاء فجأة عندما علا صراخ يفتت القلب من الالم القاتل. وظل الملك ينقل نظراته بين البنتين المسعورتين وبين عمودي النار، ثم استدار واسند وجهه الذي علاه الرماد الى الجدار ولم يعاود النظر وقال: اه ما رأيته في هذه اللحظة القصيرة لن يبرح

ذاكرتي ولكن سيبقى عالقا فيها، وسأظل اراه طوال ايامي واحلم به كل الليالي، حتى اموت. الا ليتني كنت اعمى!

وكان هندن يراقب الملك وقال في نفسه مقتنعا مطمئنا: ان اعتلاله العقلي اخذ يتحسن. فقد تغير واصبح اكثر رقة. ولو انه تبع هواه لهاج على هؤلاء الاوغاد اللؤماء وقال لهم انه الملك، وامرهم ان يفكوا المرأتين سالمتين غير مصابتين بأي اذى. ستزول اوهامه سريعا وتنسى وسيعود عقله الى سابق عهده كاملا. عجل الله في مجيء ذلك اليوم!

وجلب في ذلك اليوم عدد من السجناء ليقضوا فيه تلك الليلة ثم ينقلوا تحت حراسة الى اماكن مختلفة في المملكة. ليتلقوا محكومياتهم عن جرائم اقترفوها. وتحدث الملك اليهم، فقد جعل ذلك مبدأه منذ البداية ان يوجّه نفسه نحو المنصب الحكومي بتوجيه اسئلة الى السجناء كلما سنحت له الفرصة - وعصرت حكايات ويلاتهم وبلاياهم قلبه عصرا. كانت احدى السجينات امرأة مسكينة شبه بلهاء سرقت ياردة او ياردتين من قماش من احد النساجين. وسوف تشنق من اجل ذلك.

وكان سجين آخر رجلا اتهم بسرقة حصان، وقال ان

التهمة لم تثبت، وظن انه نجا من حبل المشنقة، ولكن لا ـ فما كاد يخرج حتى استدعي الى المحكمة، للاجابة عن تهمة قتل غزالة في متنزه الملك. وثبتت هذه التهمة عليه، وهو الآن في طريقة الى المشنقة. وكان معهم غلام عند تاجر كدرت قضيته الملك بصورة خاصة. قال هذا الشاب انه وجد صقرا ذات مساء هاربا من صاحبه، فاخذه معه الى بيته، وقد تصور انه مخول بذلك الحق، ولكن المحكمة ادانته بالسرقة وحكمت عليه بالموت.

وتميز الملك غيظا وغضبا على هذه الممارسات غير الانسانية، . وطلب الى هندن ان يكسر السجن ويهرب معه الى ويستمنسر، لكي يعتلي عرشه ويمد صولجانه بالرحمة على هؤلاء التعساء من الناس وينقذ حياتهم.
وتنهد هندن قائلا في نفسه: يا للطفل المسكين، لقد اعادت هذه الحكايات المؤلمة المرض له مرة اخرى.
اسفاه، لولا هذا الحدث لتحسن في وقت قصير.

الفصل
(٢٨)

التضحية

اصاب مايلز ارهاق شديد من قيود الحبس وعدم الحركة ولكن محاكمته جاءت وكان ذلك موضع سروره.
وصار يفكر انه يمكن ان يتقبل اي حكم على ان لا يكون سجن اضافة جزء منه. غير انه كان مخطئا في تقديره وغضب غضبا شديدا عندما وصف بانه «متشرد دائم» وحكم عليه بالجلوس ساعتين في المشهرة (تلك الالة الخشبية للتعذيب تدخل فيها يدا المجرم وراسه للتشهير به، بسبب تلك الصفة، وبسبب تهجمه على صاحب قصر هندن. اما ادعاءاته باخوته للمدعي، وانه الوارث الحقيقي لامجاد واملاك هندن فقد اهملت وازدريت بوصفها لاتستحق حتى الاستجواب.
وغضب وهاج وهدد وهو في طريقه الى مكان تنفيذ العقوبة ولكن ذلك لم يجده نفعا، وانتزع من مكانه بخشونة واقتادته الشرطة وتلقى صفعة بين حين وآخر،

فضلا عن ذلك لسوء سلوكه .

ولم يستطع الملك ان يخترق حشد الرعاع الذي كان يعج وراء مايلز. لذلك اضطر ان يسير في المؤخرة. بعيداً عن صديقه وخادمه الطيب. وكاد الملك نفسه ان يحكم عليه بالقيد في الدهق (وهما خشبتان فيها ثقوب تحبس فيهما ساقا المذنب) لصحبته هذا الرجل، ولكنه اطلق سراحه بعد درس وتحذير نظرا لصغر سنه، وعندما توقف الحشد آخر الامر، صار ينتقل بسرعة من مكان الى مكان آخر حولهم، باحثا عن مكان يخترقه : واخيرا وبعد جهد جهيد استطاع ان يصل الى تابعه المسكين الذي جلس مقيدا بالة التعذيب، وكان موضع سخرية الدهماء وضحكهم ـ هذا الخادم الاقدم لملك انكلترة! سمع ادورد الحكم يلقى ولكنه لم يدرك معنى النصف الثاني. وازداد غضبه عندما رأى هذه الاهانة الجديدة تلقى عليه. وغلى عندما رأى بيضة تقذف في الهواء وتتكسر على خد هندن، وسمع الحشد يهدرون فرحا لهذه العملية الجديدة. ووثب عبر الحلقة المفتوحة من الناس وواجه الشرطي المسؤول وصاح قائلا :

ـ عار عليكم! هذا خادمي ـ اطلق سراحه! انا الـ ــ

ـ اسكت. والا حطمت نفسك. لا تأبه. ايها الشرطي انه مجنون هتف هندن فزعا.

ـ لا تقلق نفسك بمسألته ايها الرجل الطيب، فان لي عقلا صغيرا جدا لا يأبه به. اما تلقينه شيئا، فانني اميل الى ذلك كثيرا.

ثم التفت الى تابعه وقال :

ـ ليذق هذا الاحمق الصغير جلدة اوجلدتين من السوط، لكي يحسن سلوكه.

واقترح هيو الذي كان راكبا حصانه ووصل في التو ليلقي نظرة عابرة على الاجراءات وقال :

ـ ولكن ست جلدات ستنفعه كثيرا.

والقي القبض على الملك. ولم يقاوم فقد اصابه الشلل لمجرد التفكير بهذا الانتهاك الرهيب الذي قرروا توجيهه اليه وانزاله على شخصه المقدس.

ولكن هندن الذي فكر في المعضلة واتخذ قرارا فقال :

ـ دعوا الولد يذهب ايها الكلاب القساة الا ترون صغر سنه وهشاشة عوده؟ دعوه يذهب ـ انا اتلقى الجلدات بدله.

فقال سير هيو وقد اشرق وجهه بالرضا الساخر وقال :

ـ فكرة حسنة. ليذهب الشحاذ الصغير. واجلدوا هذا الشخص اثنتي عشرة جلدة بدله ـ جلدات ممتازة.

واراد الملك ان يحتج احتجاجا شديدا ولكن سير هيو

اسكته بملاحظة قوية مقنعة :

ـ اجل تكلم ، تفضل وأرح فكرك ـ ولكن انتبه فقط انه سيتلقى ست جلدات عن كل كلمة تتفوه بها .

وفكوا هندن من آلة التعذيب وكشفوا ظهره . وصاروا يجلدونه، فادار الملك وجهه، واخذ دمعه يجري مدرارا على خديه . وقال في نفسه : «ياللقلب الطيب الشجاع. هذا العمل المخلص لن يبرح ذاكرتي مطلقا . لن انساه

ـ ولن ينسوه هم ايضا!

ولم يصرخ هندن تحت ضرب السياط ولكنه تحملها بشجاعة جندي .

واضطر هذا العمل الشجاع وافتداء الصبي بتلقى الجلد بدلا عنه ـ الى انتزاع احترام حتى اولئك الرعاع البائسين المنحطين الذين تجمعوا هناك . فتلاشى هزؤهم وسخريتهم، ولم يسمع سوى صوت ضرب السياط .

الهدوء، الذي عم المكان عندما وجد هندن نفسه مقيدا الى الآلة مرة اخرى، كان نقيضا شديدا للصخب الساخر المهين الذي ساد المكان نفسه قبل برهة قصيرة . واتى الملك بهدوء الى جانب هندن وهمس في اذنه:

«ان الملوك لا يستطيعون تعظيمك ايها الانسان الطيب العظيم، لأن الواحد الذي فوق الملوك قد فعل ذلك لك ولكن الملك يستطيع ان يؤكد نبلك للناس .» ورفع

السوط من الارض، ومس به كتفي هندن النازفتين مسا خفيفا وهمس: ادورد ملك انكلترة يمنحك لقب ايرل!

وتأثر هندن. وفاضت الدموع في عينيه . وكان ذلك كل مايستطيع ان يبديه في ذلك الموقف الجليل والظرف الرهيب الذي يلف روحه . وقال في نفسه : اهكذا ان مبهرج حقا! طيف فارس في مملكة الاحلام والظلال يصبح ايرلا! طيران سريع جداً لا يقدر عليه جناح لاريش عليه! واذا استمر الامر كذلك، فاني سأصبح مثل سارية شهر ايار المزينة بالاشرطة الملونة والزينة المبهرجة الخيالية والتكريم الزائف . ولكنني اقدر ذلك، بالرغم من عدم جدواها، من اجل الحب الذي تبديه وتهبه .

وادار سير هيو المرتعب حصانه وانطلق به مسرعا وهو يستحثه على الجري، فانفرج الجدار الحي من الناس بصمت ليفسح له مجالا في المرور، ثم عاد بهدوء ايضا وانغلق. وهكذا ظل . ولم يجازف احد بابداء ملاحظة في صالح السجين او الثناء عليه، ولكن هذا لايهم . فقد كان انقطاع سوء المعاملة خير تقدير له .

وجاء رجل متأخر وسخر منه واراد ان يضربه بقطة ميتة ولكنه طرح ارضا في الحال ورفس بالاقدام، بلا كلام، ثم عاد الهدوء يهيمن عليهم مرة اخرى .

الفصل
(٢٩)

الى لندن

عندما قضى هندن مدة تقييده في الدهق، اطلق سراحه وامر ان يغادر المنطقة ولا يعود اليها مرة اخرى. واعيد اليه سيفه وكذلك بغله وحماره. وركب وتبعه الملك وفسح الحشد المجال لهما لكي يمرا باحترام، ثم تفرقوا عندما ابتعدا.

وانغمر هندن في تفكيره. فقد كانت اسئلة ذات اهمية يجب الاجابة عليها. ماذا يفعل؟ واين يذهب؟ يجب عليه ايجاد مساعدة قوية وإلا يجب عليه ان يتخلى عن إرثه ويبقى تحت تهمة التزوير بالاضافة الى ذلك. اين يمكن ان يجد هذه المساعدة القوية؟ اين! سؤال معقد. ثم خطرت بباله فكرة تشير الى امر محتمل. تذكر ماقاله اندروز العجوز عن طيبة الملك الصغير واريحيته وشهامته تجاه من اصابهم الحيف وسوء الحظ. فلماذا لا



يذهب اليه ويحاول مقابلته وطلب العدالة من لدنه؟ ولكن ايمكن لفقير خيالي ان يحظى بالمثول أمام الملك؟ لابأس، دع الامور تجرِ على هواها. لاريب انه سيجد وسيلة. أجل سيتوجه الى العاصمة. ولعل صديق ابيه القديم، سير همفري مارلو، سيساعده - سير همفري الطيب، زعيم مطبخ الملك الراحل، او الاصطبلات، او شيء آخر - لم يستطع مايلز ان يتذكر ماهو مركزه. ومادام يمتلك الآن شيئا يعول عليه، فان اسباب الشعور بالذل والكآبة التي اثقلت روحه قد خفت وزالت، ورفع رأسه وتطلع حوله. ودهش لما رأى المسافة الطويلة التي قطعها، اذ خلف القرية وراءه بعيدة عنه، وكان الملك ايضا يمشي الهوينا في يقظته ورأسه منحنٍ على صدره، لانه كان منغمرا ايضا في افكاره وخططه وخيم هاجس مؤلم على فرحة هندن الوليدة: هل يرغب الولد ان يذهب الى المدينة مرة اخرى حيث لم يعرف خلال حياته القصيرة سوى سوء المعاملة والحرمان الشديد؟ ولابد ان يوجه اليه السؤال، فسحب هندن عنان حصانه ونادى:

- لقد نسيت ان استفسر اين نحن سائرون؟ اوامركم يا مولاي!

- الى لندن!

ثم واصل هندن سيره وقد ارضاه الجواب كثيرا ولكنه دهش منه ايضا:

وتمت الرحلة كلها من دون مغامرة ذات اهمية، ولكنها انتهت بواحدة. عند حلول الساعة العاشرة في ليلة التاسع عشر من شباط وصلا جسر لندن وصارا في وسط حشد مكتظ من الناس الذين يتمعجون ويزعقون ويهتفون وظهرت وجوههم، الجذلي من البيرة. في التو مشاعل عديدة - وسقط في تلك اللحظة رأس تمثال دوق سابق او نبيل اخر، ووقع على مرفق هندن ثم تدحرج بين الاقدام المسرعة. ما اسرع. زوال آثار الناس وعدم استقرارها في هذه الدنيا! - لم يمر على وفاة الملك الراحل سوى ثلاثة اسابيع، وثلاثة ايام على دفنه، واخذت تتهاوى معالم الزينة التي اهتم كثيرا بانتقائها من اناس مشهورين لجسره الفخم. وعثر رجل بالرأس، فنطح رجلا امامه، فالتفت وطرح ارضا اول اقرب رجل اليه، فضربه صديق ذلك الرجل. فحان الوقت لمعركة حرة تأهبا لاحتفالات غد - يوم التتويج - التي بدأت وشبع الناس من الشرب وامتلأوا بالشعور الوطني، وفي غضون خمس دقائق احتل العراك الحر مساحة جيدة من الارض، وفي عشر او اثنتي عشرة دقيقة، امتدت على مساحة خمسة الاف ياردة مربعة او

زهـاء ذلك، واختل الامن وعم الشغب. فافترق في هذا الـوقت هنـدن عن الملك مرغمين وضـاعـا في الصخب والاضطـراب العظيم لهـذه الحشـود البشـريـة الهادرة وهكذا نتركهم.

الفصل
(٣٠)

سيرة توم الملكية

في الـوقت الـذي كان الملك الحقيقي يطـوف في البـلاد، رث الثيـاب بائس المأكـل، يصفعه الشحاذون ويهـزأون به مرة، ويعـايش اللصوص والقتلة في السجن مرة اخـرى، ويـدعى محتـالا، دعيـا ابله، كان الملك المزيف توم كانتي يتمتع بحياة مختلفة حافلة بالهدوء والاطمئنان.

عنـدمـا رأيناه آخر مرة، كانت الملكية قد اخذ جانب مشـرق منهـا يطـل عليـه. واستمر هذا الجانب المشرق بالاشراق اكثـر فاكثـر كل يوم حتى انـه اصبح في فترة وجيزة جدا الاشراق شامـلا والبهجة غامـرة. وبـارحتـه مخـاوفـه وزايله ارتبـاكه، وحل محلها حياة واثقة ميسرة. وافاد من الصبي كبش الفداء كثيرا في استحصال المعلومات.

وكـان يأمـر بأحضـار ليدي اليزابيث وليدي جين كري

اليه كلما اراد اللعب او الحديث، ويصرفهما اذا ماضاق بهما، كمن اعتاد على هذا التصرف. ولم يعد يشعر بالاضطراب عندما تقبل هاتان الشخصيتان يديه عندما تغادران المكان.

ويستمتع عندما يؤخذ الى فراشه بطريقة رسمية ليلا، ويلبس ثيابه باحتفال معقد وقور صباحا. وكان يسره كثيراً ان يذهب الى الغداء، يحفه موكب متألق من الموظفين والمسلحين، حتى انه ضاعف رجال حرسه المسلحين وجعلهم مئة. وصار يحب سماع صوت الابواق تصدح في الممرات الطويلة، وهتاف بعيد يجيب على ذلك:

ـ الطريق للملك!

وتعلم أيضاً ان يستمتع بالجلوس على العرش في المجلس، ويبدو انه شيء اكثر من كونه ناطقا بلسان الوصي. وكان يعجبه ان يستقبل السفراء وحاشياتهم البهية، ويستمع الى الرسائل الرقيقة التي يحملونها من ملوكهم اللامعين الذين يخاطبونه بـ «الاخ» اوه، ما اسعد توم سليل قصر النفايات!

واستمتع بملابسه الفاخرة وطلب المزيد .ووجد ان خدمه الاربع مئة اقل مما يناسب عظمته فضاعفهم ثلاث مرات. وكان صوت جنوده والحاشية في سلامهم

يشنف اسماعه كأعذب انغام الموسيقى وصار بطلا رحيما رقيقا، ثابتا لا يميل عن الحق لدى جميع المظلومين، واعلن حربا لاهوادة فيها على القوانين الجائرة، ولكنه كان احيانا اذا ما اغيظ ان يلتفت الى ايرل اوحتى دوق ويلقي اليه نظرة تجعله يرتجف، وذات مرة، عقدت «اخته» الاميرة المبجلة ليدي ميري العزم على مناقشته بخصوص الحكمة في اصدار العفو عن كثيرمن الناس الذين كان لابد من ان يسجنوا اويشنقوا او يحرقوا، وذكرته ان سجون ابيهم المرحوم الملك المعظم كانت تضم احيانا قرابة ستين الف مدان مرة واحدة، وانه في اثناء حكمه الممتاز سلم اثنين وسبعين الفا من اللصوص والسراق الى الموت بيد المسؤول عن تنفيذ حكم الاعدام. فامتلأ الصبي سخطا تعمره السماحة والنبل وامرها ان تذهب الى مختلاها وتبتهل الى الله ان يستخرج الحجر الذي في صدرها ويهبها قلبا انسانيا.

ألم يشعر توم كانتي بالقلق بشأن الامير الشرعي الصغير الذي عامله بالحسنى وخرج مسرعا بحماسة شديدة للانتقام اليه من الحارس الوقح لدى باب القصر؟ اجل كانت امامه الملكية الاولى ولياليه تنضح بافكار مؤلمة عن الامير المفقود، ولهفة مخلصة الى رجوعه، واستعادة

حقوقه وامتيازاته، ولكنه كلما مر الوقت وانقضى، ولم يعد الامير، انشغل فكر توم باموره الجديدة الساخرة اكثر فاكثر، وتلاشى الامير المختفى من افكاره وكان، في النهاية عندما يقتحم عليه افكاره احيانا، قد اصبح شيئاً غير مرغوب فيه، لانه كان يجعل توم يشعر بالاثم والخجل.

وكذلك خرجت امه المسكينة واختاه من فكره. كان في البدء يتوق اليهن، ويتألم من اجلهن، ويشتاق الى رؤيتهن. ولكن فكرة مجيئهن اليه في اسمالهن وقذارتهن في يوم من الايام وكشف امره بقبلاتهن، وانزاله من موضعه المنيف، واعادته الى الفقر المدقع، وتجريده من لقبه، وأخذه الى حياة الاكواخ، جعله كل ذلك يرتعش رعبا. وانقطعن اخيرا من اقلاق افكاره كليا. وكان راضيا بل مسرورا لانه كلما برزت وجوههن الباكية المتجهمة امامه، كان يشعر بالخسة والحقارة.

وفي منتصف ليلة التاسع عشر من شباط كان توم كانتي غارقا في نومه في فراشه الوثير في القصر، يحرسه جنده المخلصون، وتحيطه معالم الابهة والخيلاء الملكية، مكللا بالسعادة، لأن يوم غد موعد تتويجه العظيم ملكا على انكلترة. وكان ادورد الملك الحقيقي في تلك الساعة جائعا ظامئاً، منهكا من الترحال، في

اسماله البالية الممزقة، محشورا بين حشد من الناس يتفرجون باهتمام على زمر من العمال المتدفقين من كنيسة ويستمنستر، منشغلين كالنحل. كانوا يقومون بالتحضيرات الاخيرة للتتويج الملكي.

الفصل
(٣١)

موكب التعريف بالملك

عنـدمـا استيقظ توم كانتي في صباح اليوم التالي كان الجـو مثقلا بالهمهمات المدوية، على مسافات طويلة، وكـان ذلـك كالمـوسيقى بالنسبـة اليـه لانه كان يعني ان العـالم الانكليـزي كله قد خرج بمنتهى قوتـه لابـداء الترحيب المخلص باليوم العظيم.

ووجـد توم كانتي نفسـه مرة اخرى الشخصية الرئيسة في موكب رائع عائم على نهر التيمز لان موكب التعريف بالملك يجب ان يبدأ بحسب التقاليد القديمة من البرج ويخترق لندن، وكان متجها الى ذلك المكان.

ولما وصلوا هناك، بدأ كأن جوانب القلعة المهيبة قد انشقت فجأة في الف مكان واندلع من كل شق لسان من لهب احمـر ودفقـة من دخـان ابيض، وتـلا ذلـك انفجار يصم الاذان غمـر هتـافـات الجمهـور، وجعـل الارض



تهتز. وتكرر اللهب والدخان والانفجارات مرارا وتكرارا بسرعة عجيبة، فاختفت القلعة القديمة في لحظات قليلة في سحب من الدخان، ولم يبق الا القسم الاعلى من القمة المسماة بالبرج الابيض. ووقف ذلك باعلامه شاخصا فوق الابخرة الكثيفة كما تنتأ قمة جبل فوق الغيوم.

وكان توم كانتي يرفل بثياب فاخرة رائعة ويركب جوادا مطهما كأنه يرقص مرحا، يكاد غطاء السرج المزركش يصل الارض. وكان «خاله» الوصي يركب حصانا مثله، ويتخذ موقعه خلفه. وشكل الحرس الملكي خطا واحدا على كل جانب، لا بسين دروعهم اللامعة، ويلي الوصي موكب متطاول من النبلاء المتألقين يصاحبهم تابعوهم، وبعدهم يأتي العمدة واعضاء المجلس التشريعي في اردية من المخمل القرمزي، وعلى صدورهم سلاسل من ذهب، وبعد هؤلاء يجيء الموظفون واعضاء جميع النقابات في لندن، في ثياب نفيسة حاملين اعلاماً مزوقة خاصة بالنقابات المختلفة. وفي الموكب ايضا، حرس الشرف الخاص بالمدينة، المتمثل بفرقة المدفعية المبجلة القديمة ـ وكان عمرها آنذاك ثلاث مئة عام. كان المنظر متألقا وحياة الناس المصطفين على الجانبين بالهتافات وهو يمر في طريقه

الملكي بين الجماهير المحتشدة، ويقول المؤرخ: «استقبل الملك عند دخوله المدينة بالابتهالات والترحيب والهتافات والكلمات الرقيقة وكل العلائم التي تعبر عن حب صادق من الرعية نحو سلطانهم. وكان الملك يطل بطلق المحيا على اولئك البعيدين عنه ويخاطب القريبين من جلالته بارق لغة، مظهرا بذلك انه لا يقل شكرانا في تلقي ارادة الناس الطيبة عمن يقدمها اليه.. فقدم شكره لكل من تمنى له الخير. وكل من قال له.. حفظ الله جلالته.. رد عليه.. حفظكم الله جميعا!

واضاف المؤرخ قوله: «شكرهم من صميم قلبه» واستخفّت الناس البهجة بردود الملك واشاراته الودية.

وفي شارع فينجيرج وقف طفل لطيف في ملابس غالية على منصة للترحيب بجلالته في دخوله المدينة، وكان المقطع الختامي من تحيته هذه الابيات:

«مرحبا بك ايها الملك، ما وسع القلوب ذكرك.
ومرحبا بك ايضا. مالهجت بك الالسن ـ
ترحب بك السن جذلى وقلوب لا تنضب،
حفظك الله، هذا دعاؤنا، والخير الابدي..»

وانطلق النـاس في هتاف سعيد يرددون بصوت واحد ما قاله الطفل . وحدق توم كانتي وراء البحر الصاخب من الـوجـوه المتلهفة ، وفاض قلبه بالبهجة . والفرح ، وشعر ان الشيء الـوحيـد الـذي يستحق ان يحيـاه الانسان في هذه الـدنيـا هو ان يكـون ملكـا ورمزا للأمة . ولمح على الفـور، اثنين من زملائه الشعث في قصر النفايات ، كان احـدهـم امير البحريـة ببلاطـه التمثيلي السـابق ، والآخر الحاجب الاول لحجرة نومه وزاد تيهاً على تيهٍ وزهوا على زهـو. الا ليتهم يستطيعـون معـرفتـه الآن! فمـا اعظم السعـادة السمـاويـة التي ستغمره اذا ما استطعا ان يتعرفا عليـه ويعـرفا ان الملـك الزائف ، موضع سـخرية الاكواخ والازقة الخلفية قد اصبح ملكا حقيقيا والعالم الانكليزي كله عند قدميه! ولكن لابد له من انكار نفسه وخنق رغبته هذه ، فلعـل هذا التعـرف يكلفـه اكثـر ممـا ينفعه . فادار رأسـه ، وتـرك الغـلامين الـوسخين يواصـلان هتـافاتهما وتزلفهما ، غير عارفين لمن يبذخان بكل ذلك .

وكـان بين حين وآخـر يرتفع نداء : «هبات ! هبات !» ويستجيب توم الى ذلـك بنشر حفنـة من النقـود المعدنية اللامعة الجديدة على الحشود ليتزاحموا بالمناكب بحثا عنها .

ويقـول الـمؤرخ : في الطـرف الاقصى من شارع

كريسجيرج وامام لافتة النسر ، نصبت المدينة قوسا فائق الحمال ، وتحته منصة ، امتدت بين جانبي الشارع ، كان ذلـك من معالم المهرجان التاريخية التي يقيمها اسلاف الملك المباشرون . جلست هناك اليزابث في وسط وردة ضخمـة بيضـاء تشكـل وريقـاتها حولها كشكشا او هدبا محكم الاتقـان . وكـان الى جانبهـا هنري السابع يخرج من وردة حمراء كبيرة ، مرتبة بالطريقة نفسها . وكانت يدا الـزوجين الملكيين متشـابكتين معـا ، وقـد ظهـر خاتم الـزواج بشكـل لافت للنظر وينبثق من الوردتين الحمراء والبيضاء ساق نبتة يصعد الى المنصة الثانية التي يحتلها هنري الثامن الذي يبدو من وردة بيضاء وحمراء مع تمثال لأم الملك الجديد ، جين سيمور ، جالسة الى جانبه . ويتفـرع من هذين الاثنين غصن واحـد يصعد الى منصة ثالثـة حيث يجلس تمثـال ادورد السـادس نفسـه ، على عرش ذي جلال ملكـي ، وكـان النصب جميعـا مكللا بالورود الحمر والبيض . »

اثـر هذا المنظـر الجـذاب المبهـرج على النـاس المبتهجين كثيـرا فطغتِ هتـافـاتهم تمـامـا على صوت الطفل الناعم الذي كان عمله شرح هذا الشيء بشعر من المديح . ولكن توم لم يأسف على ذلك ، لأن هذا الهدير المخلص كان موسيقى احلى نغمـا اليـه من اي شعـر ،

مهما كان نوعه . واينما ولى توم وجهه الصغير السعيد، كان الناس يلاحظون مدى الشبه الشديد بينه وبين التمثال، النسخة المطابقة باللحم والدم، فتعلو عواصف من التصفيق .

وتحرك الموكب العظيم في طريقه مارا تحت اقواس النصر واحدا بعد آخر وبمشاهد متوالية من التمثيل الرمزي المذهل التي تجسد وتمجد فضيلة اوموهبة او ميزة يتحلى بها الملك الصغير.

تمتم توم كانتي : كل هذه الاعاجيب وكل هذه المعجزات للترحيب بي ـ انا .

وعلت الحمرة خدي الملك المزيف من الانفعال والفرح ولمعت عيناه وطافت حواسه في غمرة من البهجة . وفي هذه اللحظة، وعندما كان يرفع يده لالقاء خفنة اخرى من الهبات، لمح وجها شاحبا مذهولا برز من الصف الثاني للجمهور، وتعلقت عيناه به . فاجتاحه ذكر رهيب، فقد عرف فيه امه! وارتفعت يده الى الاعلى ووضعها على عينيه وراحتها الى الخارج ـ بحركة لا ارادية قديمة، ولدت من حادثة منسية، ودامت بحسب العادة . وبعد لحظة شقت طريقها من الزحام واخترقت الحرس وصارت بجانبه . وطوقت ساقه وغمرتها بالقبل وصاحت : «ياولدي، ياحبيبي!» رافعة اليه وجها تغير

بفعل الفرح والحب . وفي اللحظة نفسها اختطفها احد الحرس الملكي وابعدها عنه وهو يسبها، وطوّح بها من حيث جاءت بدفعة عنيفة من ذراعه القوية وخرجت من بين شفتي توم كانتي الكلمات «انا لا اعرفك ايتها المرأة!» عندما حصل هذا الشيء الجدير بالشفقة . ولكنه اصيب في قلبه عندما رآها تعامل هذه المعاملة . وعندما القت آخر نظرة عليه عندما ابتلعها الجمهور وغيبها عن انظاره بدت كسيرة الفؤاد، فشعر بالخزي من فعلته مما احال كبرياءه الى محض رماد، وذوت بذلك ملكيته الزائفة، وتداعت عظمته الى امر تافه، وبدت كأنها اسمال باليه تتهاوى عنه .

وواصل الموكب سيره خلال معالم من الروعة المتزايدة وعواصف من الترحيب المتواصلة، ولكنها بالنسبة الى توم كانتي كأنها لم تكن . فلم يرولم يسمع شيئا . وفقدت الملكية حسنها وحلاوتها واخذ الندم يأكل قلبه . وقال : الا ليتني كنت حرا من أسري وانكفأ يتذكر اسلوب الايام الاولى من عظمته الالزامية .

وظل الموكب المتألق يواصل المسير الملتوي، مثل افعى لامعة لا نهاية لها، في الازقة المتعرجة في المدينة القديمة الطريفة، مخترقا الجموع الهاتفة، ولكن الملك ظل راكبا محني الرأس وعيناه خلومن التعبير، لاتريان

الا وجه امه وتلك النظرة الجريحة عليه .

ـ «هبات، هبات!» .

ووقع النداء على اذن غير صاغية .

«يعيش ادورد ملك انكلترة!»

ويبدو كأن الارض اهتزت من الانفجار، ولكن الملك لم يستجب، فسمعه كمن يسمع دوي الامواج عندما تبلغ الاذن من مسافة بعيدة، لانه خمد تحت صوت آخر اقرب منه، في صدره، في ضميره المعذب اللائم. صوت ظل يكرر هذه الكلمات المخزية :

«انا لا اعرفك ايتها المرأة»

وكانت تتكشف هالات جديدة من البهاء والبهرجة في كل منعطف .

اعاجيب جديدة، معجزات طريفة تظهر فجأة للعيان. واطلقت صيحات الصخب بعد انتظار مضن، وهدرت صرخات نشوى من حناجر الجموع المنتظرة، ولكن الملك لم يأبه لشيء وكان الصوت الوحيد الذي يسمعه هو صوت الاتهام الذي راح يئن في صدره المعذب.

ثم تغير الفرح في وجوه الجماهير قليلا ومسه شيء يشبه الهم او القلق، واصبح نقص الحماسة في التصفيق ملحوظا ايضا. وسرعان ما ادرك الوصي هذه الامور، وعجل في تحري السبب. وحث حصانه الى

جانب الملك، وانحنى في سرجه ورفع قبعته احتراما وقال :

ـ يا مولاي ليس هذا وقت الاحلام. الناس يرون رأسك منكسا، وطلعتك مكفهرة، فيتخذون هذا نذير شؤم. نصيحتي :

ان تكشف شمس الملكية لتشرق وتبدد ابخرة النحس. ارفع رأسك وابتسم للناس.

قال الدوق ذلك ونثر حفنة من نقود الى اليمين والشمال، ثم تراجع الى مكانه. وفعل الملك المزيف تلقائياً ما أمر. ولكن بسمته لم يكن فيها روح، ومع ذلك لم تدركها الا عيون قليلة قريبة منه. ايماءات راسه المزين بالريش وهو يحي رعاياه كانت مفعمة بالكياسة واللطف. وكانت الهبات التي تقدمها يداه تتسم بالكرم الملكي، لذلك اختفى قلق الناس، وعادت الهتافات اشد تفجرا من السابق.

ومرة اخرى، قبل انتهاء المسيرة بقليل، اضطر الوصي ان يتقدم ويوجه اعتراضه هامسا :

ـ ايها الملك المعظم! انفض عنك هذه النزوة القاتلة، عيون العالم عليك.

ثم اضاف بغيظ حاد :

ـ الويل لتلك الفقيرة المجنونة! هي التي كدرت

فالقى الملك الرائع البهي نظره [illegible] وقال بصوت مرهق :

ـ هي امي !

ـ يا الهي !

زمجر الوصي وهو يكبح عنان حصانه ليعود الى مكانه وقال :

ـ «النذر حبالى بالنحس . لقد عاد اليه جنونه . »

يوم التتويج

لنعد ساعات قلائل الى الوراء ونذهب الى كنيسة ويستمنسر، في الساعة الرابعة من صباح يوم التتويج هذا الذي لا ينسى ونحن لسنا وحيدين، فبالرغم من أن الوقت مايزال ليلا ، نجد ان الشرفات التي تضيئها المشاعل غاصة بالناس الفرحين بجلوسهم هادئين منتظرين سبعاً او ثماني ساعات حتى يحين الوقت لرؤية مالم يأملوا ان يروه مرتين في حياتهم ـ تتويج ملك . اجل ، ان لندن وويستمنستر في هرج ومرج وحركة دائبة منذ ان دوت مدافع الاشعار ببدء يوم التتويج في الساعة الثالثة ، وصارت حشود الناس الاغنياء الذين اشتروا امتيازات في ايجاد محلات جلوس لهم في السرادقات المخصصة لامثالهم .

وسار الوقت بطيئا مملا . وهدأت كل نأمة فترة من

الزمن لان السرادقات جميعا قد امتلأت . ويمكن لنا ان نجلس وننظر ونفكر حسب راحتنا . ونقلب الطرف هنا وهناك وابعد من ذلك ، خلال ضوء الكنيسة فنلمح جوانب من سرادقات وشرفات كثيرة غاصة بالناس ، وجوانب اخرى من هذه السرادقات حجبتها عن الرؤية اعمدة ونتوءات معمارية . ولكن منظر جناح الكنيسة الشمالي العظيم امام انظارنا بكامله - خال ينتظر اصحاب الامتياز في انكلترة . ونرى ايضا المنصة الفسيحة . المفروشة بالبسط النفيسة حيث ينتصب العرش . يحتل العرش وسط المنصة ، ويعلو عليها فوق مرتفع باربع درجات وعلى مقعد العرش وضعت صخرة مسطحة . خشنة - هي حجر اسكون - التي جلس عليها اجيال عديدة من ملوك اسكتلندة عند تتويجهم ، وبذلك اصبحت مقدسة بمرور الزمن لتؤدي غرضا مماثلا للملوك الانكليز . وغطي كل من العرش ومسند القدمين بقماش من ذهب .

وساد السكون ، وخفقت المشاعل بضوء خافت وسار الوقت بطيئا . ولكن ضوء النهار المتلكيء تنفس واهنا فاطفئت المشاعل ، ثم انتشر ألق لامع من نور وعم المكانات الفسيحة . وبانت معالم العمارات الشامخة جلية ، ولكنها رقيقة حالمة ، لأن الشمس سترتها غلائل

من غيوم واهية .

في الساعة السابعة يحصل اول خرق للرتابة الوسنى ، فعندما تدق هذه الساعة تدخل اول نبيلة الى جناح الكنيسة . ترفل في ثياب كأنها الطاووس في الحسن ، ويقودها الى مكانها المخصص موظف في ثياب من حرير ومخمل ، ويحمل موظف آخر شبيه به اذيال السيدة الطويلة ، ويتبعها ، وعندما تجلس السيدة ، يرتب حاشية الثوب في حضنها ، ثم يضع مسند قدميها بحسب رغبتها ، وبعد ذلك يضع اكليلها في المكان المناسب ليدها عندما يحين الوقت للنبلاء لكي يلبسوا الاكاليل .

وفي ذلك الوقت تتقاطر النبيلات في صف متألق ويحوم موظفون في ثياب من حرير تتلألأ مسرعين في كل مكان يعدون المقاعد لهن ويسعون من اجل راحتهن . ويصبح المشهد مفعما بالحيوية والنشاط فتدب الحركة والحياة ، وتتغير الالوان في كل مكان . وبعد فترة وجيزة يسود الهدوء مرة اخرى ، لأن النبيلات جميعهن وصلن واحتللن اماكهن - في متسع فسيح يتضوع بالزهور البشرية متألقة بالوان عديدة ، ترصعها خطوط من الماس . كل الاعمار اجتمعت هنا :

عجائز مهيبات ، سمراوات مغضنات بيض مور

يستطعن الرجوع في تيار الزمن الى الماضي البعيد، ويستذكرن تتويج ريجاد الثالث ، والايام المضطربة لذلك العهد المنسي القديم وهناك سيدات في اواسط العمر، وسيمات وكهلات جميلات رائعات، وفتيات حسان، رقيقات، ذوات عيون مشرقة، وبشرة غضة.

وقد رأينا ان هذه الجموع الحاشدة من النبيلات تتلألأ ملابسهن الجميلة بكثير من الماس، ونراه الآن منظرا رائعا ـ ولكننا سندهش حقا، ففي الساعة التاسعة تقريبا، انقشعت الغيوم وشق شعاع من الشمس الجو اللطيف وانساب وئيدا بين صفوف السيدات، وكان كل صف تمسه يشتعل ببهاء باهر من لهب عديد الالوان، فنثب الى اطراف اصابع ارجلنا بهزة سرت في اجسامنا كالكهرباء بفعل المفاجأة وجمال المنظر!

وانساب الزمن وانقضت ساعة واحدة ـ اثنتان ـ اثنتان ونصف. ثم انبأنا دوي مدافع عميق ان الملك بموكبه قد وصل اخيرا .

ففرح الجمهور الذي كان ينتظر. ويعلم الجميع ان تأخيرا آخر سيلي ذلك اذ لابد للملك ان يتأهب ويلبس ماينـاسب الاحتفال الجليل. ولكن هذا التأخير سيسده بشكل جميل تجمع نبلاء المملكة في ارديتهم الرسمية الذين ارشدوا الى مقاعدهم باحتفال مهيب واكاليلهم

يضعونها في متناول ايديهم. وزاد اهتمام الجمهور في الشرفات لان اغلبهم كانوا يرون لاول مرة في حياتهم دوقات وايرلات وبارونات ممن كانت اسماؤهم تاريخية مدة خمس مئة عام. وعندما جلس الجميع اخيرا ، كان المنظر كاملا من الشرفات والسرادقات وجميع المواقع الممتازة؛ منظر فائق الجمال لاينسى.

ودخل الآن رتل رؤوساء الكنيسة بجببهم والبسة رؤوسهم ومعهم تابعوهم، وصاروا على المنصة واحتلوا اماكنهم المخصصة لهم، ثم تلاهم الوصي وكبار الموظفين الاخرين، جاء بعدهم مفرزة من الحرس في دروع من حديد.

ثم حصلت فترة توقف للانتظار، وباشارة دوت معزوفة نصر موسيقية، وظهر في أحد الابواب توم كانتي في رداء طويل من قماش من ذهب، ومشى على المنصة. ونهض الجمهور جميعا وبدأت احتفالات التعريف بالملك.

واجتاح الكنيسة نشيد وطني بانغامه الثرية. وهكذا نودي بتوم كانتي ورحب به وارشد الى العرش. وجرت المراسيم القديمة بوقار مؤثر والنظارة يحملقون وكلما اقتربوا من النهاية ، شحب وجه توم كانتي اكثر فاكثر واستولى على روحه كرب ويأس عميقان وجزع ثقيل في

قلبه .

ثم جاء المرسوم الاخير. فرفع رئيس اساقفه كنتربري تاج انكلترا من على وسادته ووضعه فوق رأسه الملك المزيف المرتعش . وفي اللحظة نفسها. ومض شعاع من قوس قزح في جناح الكنيسة الفسيح ؛
لان كل فرد من افراد الملتقى العظيم من النبلاء رفعوا في آن واحد اكاليلهم (تويجاتهم) ووضعوها على رؤوسهن ـ وظلوا في ذلك الوضع .

وساد صمت عميق في الكنيسة ؛ وفي تلك اللحظة المؤثرة ظهر فجأة، في ذلك المشهد، منظر لم يلاحظه احد من الجمهور المستغرق في المشهد، يسير في الممشى الوسطي للكنيسة بين المقاعد، صبي حاسر، زري النعل، في ملابس خشنة مبتذلة بالية رفع يده بوقار لا ينسجم مع مظهره المؤسف الوسخ والقى تحذيره اليهم :

ـ امنعك ان تضع تاج انكلترة على رأس هذا المزيف. اني انا الملك!

وفي الحال امتدت عدة ايد ساخطة الى الصبي، ولكن في اللحظة نفسها تقدم توم كانتي في ثيابه الملكية مسرعا وصاح بصوت رنان :

ـ اتركوه واصبروا! انه هو الملك!

واجتاح نوع من الذعر والدهشة اولئك المجتمعين، ووقف بعضهم في اماكنهم وحملقوا في ذهول وحيرة احدهم في وجه الآخر وفي الشخصين الواقفين هناك، مثل اناس لا يصدقون أإنهم ايقاظ وفي حواسهم، أم نيام حالمون؟ وذهل الوصي كالباقين ولكنه سرعان ما استفاق من ذهوله وقال في صوت رجل السلطة :

ـ لا تأبهوا لجلالته، لقد عاد اليه مرضه. امسكوا هذا المتشرد! .

كادوا ان يطيعوا الامر لولا ان الملك المزيف ضرب قدمه على الارض وصاح قائلا :

ـ ممنوع ! لا تلمسوه، انه الملك!

وارتدت الايدي، وخيم ركود على المكان. ولم يتحرك احد اوفي الحقيقة لم يعرف احد كيف يتصرف وماذا يقول في مثل هذا الموقف الغريب الطارىء العجيب.

وفي الوقت الذي كانت تجاهد العقول اصلاح اوضاعها، ظل الصبي سائرا بخطى ثابتة ، وهامة مرتفعة ومشية واثقة، لم يتوقف منذ البداية، وفي الوقت الذي كانت الافكار المشوشة تتخبط بائسة، صعد الصبي الى المنصة وركض الملك المزيف بوجه سعيد للقائه، وركع على ركبتيه امامه وقال :

- يا مولاي الملك، دع توم كانتي ان يقسم لك اولا ويبدي ولاءه ويقول: ضع تاجك وادخل في ملكك مرة اخرى !

والقى الوصي نظرة صارمة على وجه الداخل الجديد. ولكن الصرامة تلاشت في الحال وحل محله تعبير من الدهشة المتسائلة. وحدث الشيء نفسه لباقي الموظفين الكبار. ونظر كل الى صاحبه ورجعوا خطوة بدافع مشترك لا ارادي. وكانت الفكرة في راس الجميع واحدة: ماهذا الشبه العجيب!

فكر الوصي لحظة او لحظتين في حيرة، ثم قال باحترام شديد:

- من فضلك سيدي، اود ان اسأل اسئلة معينة ــ.

- سأجيب عليها ايها اللورد.

وسأله الوصي كثيرا من الاسئلة عن البلاط والملك الراحل والامير والاميرات، واجاب الصبي عليها بصورة صحيحة ودونما تردد.

ووصف حجرات القصر الملكي، وجناح الملك الراحل، وجناح امير ويلز

شيء غريب وامر عجيب لا يمكن تعليله، واخذ التيار ينعطف، وآمال توم كانتي ترتفع، عندما هز الوصي رأسه وقال:

ان يقوم به مولانا الملك.

هذه الملاحظة وتلك الاشارة الى توم على انه مايزال الملك، احزنته فشعر بان آماله تتداعى تحته. واضاف الوصي قوله:

- هذه ليست ادلة.

وانعطف التيار الآن بسرعة فائقة، في الحقيقة، ولكن باتجاه معاكس، تاركا توم كانتي المسكين جالسا على العرش، وجارفا الآخر بعيدا نحو البحر وكان الوصي يحدث نفسه - ويهز رأسه - والحت عليه فكرة: من الخطر علينا وعلى الدولة ان نضمر مثل هذا اللغز القاتل، فانه قد يقسم الامة وينسف العرش.

والتفت وقال:

- سير توماس الق القبض على هذا - كلا، توقف واشرق وجهه وواجه الصبي الممزق الثياب بهذا السؤال:

- أين الختم الاعظم؟ اجبني بصدق وسوف يحل اللغز، لأن امير ويلز وحده هو الذي يعرف الجواب! على مثل هذا الشيء التافه يتعلق مصير عرش ومملكة.

فكرة موفورة الحظ، ومفعمة بالسعادة. وكان اهتمام كبار موظفي الدولة بها يتجلى بالاستحسان الصامت

الــذي انطلق من عين الى عين في حلقــة الـواقفين في شكـل نظـرات مشرقة بالقبول. اجل، لا احد غير الامير الحقيقي يستطيـع ان يحـل السر العصي للختم الاعظم المختفي. لقد تعلم هذا المزيف المسكين درسه جيدا ولكن علمـه فـشـل فـي الوصول الـى حل في هـذه المسألة، لأن معلّمـه نفسـه لـم يستطع الاجابة علـى ذلـك السؤال. لذلك اومأوا برؤسهم بصورة غير ملحوظة وابتسموا في بواطنهم قانعين وانتظروا ان يروا هذا الصبي الاحمق يصــاب بالعي والاضطـراب الاثيم. ومـا اشـد دهشتهم حين سمعـوا جوابـه الفـوري بصـوت واثق غير مضطرب قائلا:

ـ لا صعوبة في حل هذا اللغز.

ثم لم يقل لأحد شيئا مثل «من اذنكم» التفت واصدر هذا الامر باسلوب شخص اعتاد على مثل هذه الاشياء:

ـ سيــدي سينت جون، اذهب الى شقتي الخـاصـة في القصـر لأنـه لا يعـرفهـا احـد افضـل منك، وقريب الى الارض، في الـزاوية اليسـرى البعيـدة عن البـاب التي تفتـح من حجـرة النـوم، ستجـد في الجدار رأس مسمار نحـاسي، اضغطـه وسـوف يفتـح درج للجواهر لا يعرف احد به حتى انت، ولا أي انسان في العالم سواي وسوى الحـرفي الـذي صنعـه لي، سيكون اول شيء تقع عليه

عينك هو الختم الاعظم، اجلبه من هناك.

وتعجب الجميـع لهـذا الكلام، وزاد عجبهم عندما رأوا هذا المتسول يختار هذا النبيل من دون غيره وبلا تردد او خوف من خطأ ويـدعـوه باسمـه بطـريقـة من يعرفه طوال حياته. واوشك النبيل ان يطيعه من دهشته، فتحرك كمن يريـد الـذهـاب، ولكنـه استعاد وضعه الهادىء واعترف بخطئه وقد احمر وجهه، فالتفت اليه توم وقال محتدا:

ـ لماذا تتلكأ؟ ألـم تسمع امر الملك؟ اذهب!

وانحنى لورد سينت جون انحنـاءة احتـرام، ولوحظ انها انحنــاءة محتــرســة، عاقلة، لم تكن موجهـة لأي من الملكين بل بينهما، ثم استأذن بالذهاب.

ثم بدأت حركـة اعضـاء تلك المجمـوعـة الحكومية الرائعين. ببطء لا يكاد يلحظ ولكنها ثابتة مثابرة، كتلك الحـركـة التي تشاهد في الكاليد وسكوب (اي المشكال الـذي يحتـوي على قطـع متحركة من زجاج لون، تتغير اوضـاعهـا عند تحريكها فتعكس مجموعة لانهاية لها من الاشكـال الهنـدسيـة المختلفة الالوان)، ـ حركة شتتت الجماعة المتألقة الواقفة حول توم كانتي، واعادتها حول القادم الحديد.

وكـاد توم ان يقف وحـده، ومـرت فتـرة وجيـزة من التوقع والانتظــار استجمــع القلة من ذوي القلوب الضعيفـة،

الـذين ظلوا قرب توم كانتي شتـات شجـاعتهم وانسلوا واحـدا اثـر آخـر نحو الاكثرية، وبقي توم كانتي في نهاية الامـر، في ثيـابـه ومجـوهـراته الملكية واقفا وحده تماما منعزلا عن الدنيا كلها، شخصا رائعا، يحتل فراغا بليغا.

وشـوهـد لورد سينت يعـود ولما بلغ منتصف الممشى الـذي بين المقـاعد ازداد الاهتمام كثيرا فماتت الهمهمة في الحـديث بين الجمـاعـة العظيمـة وتـلا ذلك صمت عميق وسكـون مطبق. يسمـع من خلالـه وقع اقدامه من مسـافـة بعيـدة. وتـركزت جميع العيون عليه وهو يسير. ووصـل المنصـة وتـوقف لحظـة ثم تحرك نحو توم كانتي بعد اداء انحناءة الاحترام وقال:

ـ مولاي، الختم غير موجود هناك.

لم يتفرق حشد رعاع عن مريض مصاب بالطاعون اسرع ممـا تشتتت هذه الـزمـرة المـرعـوبة عن حضرة المدعي الصغير الرث الثياب المطالب بالعرش.

بعـد لحظـة صار وحيـدا بلا سند ولا صديق، هدفا توجه اليـه نيـران السخـريـة المـرة والنظرات الغاضبة. ونادى الوصي بصوت حاد:

ـ القـوا الشحـاذ في الشارع، واجلدوه في المدينة ـ هذا المحتال الحقير لا يستحق اي اهتمام آخر!

ووثب جنـود من الحرس متقدمين لتلبية الامر، ولكن توم كانتي كفهم قائلا:

ـ أرجعوا! من يمسه يعرض حياته للخطر!

وحار الوصي في امره اشد الحيرة وقال الى لورد سينت جون:

ـ هل بحثت جيـدا؟ ولكن لا ضيـر من هذا السؤال يبـدو كأنـه امـر غريب الأشياء الصغيرة التافهة تضيع عن ذاكرة الانسـان، ولا تعـد موضعا للعجب ولكن شيئا كبيرا مثل ختم انكلتـرة يختفي ولا يستطيـع احد ان يجد اثرا. لهـ قرص ذهبي كبير ـ

ـ كفى، كفى! اهو مستدير؟ وسميك وعليه حروف وزخارف؟

ـ نعم؟ أوه، الآن عرفت ماهـو الختم العظيم الـذي اثـار كل هذه الضجـة والقلق! لو انكم وصفتمـوه لي قبل هذا لأخـذتمـوه قبل ثلاثة اسابيع. انني اعرف جيدا اين هو، ولكن لم اكن انا الذي وضعه هنا اول مرة!؟

فسأل الوصي:

ـ من اذن يامولاي؟

ـ ذلـك الـذي يقف هنـاك ـ الملك الشـرعي لانكلتـرة. وسيخبركم هو عن مكانه ـ ثم ستصدقون انه عرف ذلك من نفسه.

فكر يامليكي ـ وحث ذاكرتك ـ كان آخر شيء ـ اجل آخر شيء فعلته انت في ذلك اليوم قبل ان تندفع من القصر وانت لابس ثيابي الرثة لتعاقب الجندى الذي اهانني.

وخيم صمت، لم يعكر صفوه حركة ولا همس، وكانت العيون جميعا قد تركزت على القادم الجديد، الذي وقف محني الرأس مغضن الجبين، يبحث في ذاكرته بين حشد متراكم من ذكريات لا اهمية لها عن شيء صغير واحد يراوغه، الذي اذا وجده، سيضعه على العرش واذا لم يجده سيترك كما هو الى الابد، فقيرا مشردا منبوذا، ومرت لحظة اثر لحظة، وصارت اللحظات دقائق ـ وكان الولد مايزال يجاهد صامتا ولم يبدِ، اية اشارة. ولكن في نهاية الامر اطلق تنهدة، وهز رأسه ببطءٍ وقال بشفة مرتعشة وصوت مكتئب:

ـ استرجع المشهد جميعا ولكن الختم لم يكن فيه.

ثم توقف ونظر الى الاعلى وقال بوقار رقيق:

ـ ايها اللوردات والسادة، اذا اردتم ان تسلبوا مليككم الشرعي حقه لنقص دليل يعجز عن تقديمه، فانني لا استطيع ان اصمد بوجهكم لكوني مسلوب القوى، ولكن ـــ

وصرخ توم كانتي في هلع شديد:

ـ حماقة وجنون يامليكي! انتظر! وفكر! ولا تيأس! لم

يفقد الامل، لا، ولن! اصغ لما اقول ـ واتبع كل كلمة ـ سأعيد لك ذلك الصباح ثانية، وكل حادثة حدثت. تكلّمنا ـ وحدثتك عن اختي نان وبيت ـ نعم، انت تتذكر ذلك، وعن جدتي العجوز ـ وعن الالعاب الخشنة التي يلعبها صبيان قصر النفاية نعم، وانت تتذكر تلك الاشياء ايضا، حسنا، ابق في متابعتي، سوف تتذكر كل شيء اعطيتني طعاماً وشرابا وصرفت الخدم بطريقة اميرية مهذبة لكوني اخجل امامهم ـ نعم، تتذكر ذلك ايضا.

وعندما يتوقف توم عن سرد تفاصيله، يومىء الولد الآخر برأسه دليل معرفته بها وكان جمهور الحاضرين من العظماء والموظفين يحملقون بهما في دهشة حائرة؛ كأن الحكاية قصة حقيقية، ولكن كيف تم هذا اللقاء المستحيل بين امير وشحاذ. لم يكن ثمة جماعة من الناس اشد حيرة واهتماما وذهولا من هؤلاء.

ـ ولاجل الضحك والمرح، يا اميري، تبادلنا الملابس؛ ثم وقفنا امام مرآة، وكنا متشابهين تماما فقلنا كأن شيئا لم يتبدل فينا ـ نعم تتذكر ذلك. ثم لاحظت ان الجندي اصاب يدي بأذى ـ انظر! هاهوذا، لا استطيع حتى الآن اكتب بها، اصابعي متيبسة تماما. وعند ذلك قفزت وانت تتوعد بالانتقام من الجندي وركضت نحو الباب

ومررت بمنضدة وكان ذلك الشيء لذي تدعوه ختما على تلك المنضدة وخطفته ونظرت حولك متلهفا. كمن يبحث عن مكان يخفيه فيه، ورأيت مكانا ــ

قال الدعي الرث الثياب بفرح وانفعال شديدين:

ـ هذا يكفي والحمد لله العزيز! اذهب ياسينت جون الطيب، ستجد الختم في قطعة من الدرع الميلاني المعلق على الجدار!

فصاح توم كانتي:

ـ صحيح يامليكي صحيح! الآن صولجان انكلترة لكم. والآن اذهب بالورد سينت جون مسرعا اخف من الطير!

وهب الجميع وقوفا وكادوا يجنون من القلق والخشية والانفعال.

وانفجر ازيز ودوي من حديث شديد الاهتياج يصم الأذان، ولم يفهم احد شيئا اويسمع شيئا او يهتم بشيء سوى ماكان يهتف به جاره في اذنه او ماكان يهتف به في أذن جاره. ولا يعرف احد كيف مضى الوقت ولم يدركه احد ولم ينتبه اليه. ثم هبط سكون مفاجيء على المكان وظهر في اللحظة نفسها سينت جون على المنصة ورفع الختم العظيم بيده عاليا. ثم تعالى هتاف:

ـ يعيش الملك الحقيقي!

واهتز الجو خمس دقائق بالهتافات وعزف الالات

الموسيقية وصار ابيض لعاصفة من المناديل الخفاقة، ووقف في وسط ذلك كله صبي ممزق الثياب، اروع شخصية في انكلترة، تضرج خداه سعيدا، ممتلئا فخرا، وقد جثا رجالات المملكة العظماء ركعا حوله.

ثم نهض الجميع، وصاح توم كانتي:

ـ والآن يامليكي خذ ثيابك الملكية هذه واعد لتوم، خادمك الفقير، اسماله واخلاقه الباقية.

فقال الوصي:

ـ ليجلد هذا الوغد الحقير ويلق في سجن البرج ولكن الملك الجديد، الملك الحقيقي قال:

ـ لا اوافق على ذلك، اذ لولاه لما استعدت تاجي ـ ولن يضع احد يده عليه ويمسه بسوء. اما بالنسبة اليك، يا خالي العزيز، الوصي على عرشي فان تصرفك هذا ليس محمودا تجاه هذا الغلام المسكين، لأنني سمعت انه جعلك دوقا ـ واحمر وجه الوصي خجلا ـ مع انه لم يكن ملكا، لذلك ماقيمة لقبك اللطيف الآن؟ غدا، ستأتي الي تقدم التماسا بوساطته من اجل تثبيته، والا فلن تكون دوقا بل ستبقى ايرلا بسيطا.

وعندما وبخ الملك الدوق، تراجع سموه قليلا من المقدمة لحظة. والتفت الملك الى توم وقال بلطف:

ـ كيف استطعت ان تتذكر ايها الولد المسكين اين

اخفيت الختم في الـوقت الـذي لم استطع انا نفسي ان اتذكر ذلك؟

ـ آه يامليكي ان ذلك امر يسير ، فقد استعملته اياما عديدة .

ـ استعملته ومع ذلك لم تستطع ان تبين اين مكانه!

ـ لم اكن اعــرف انهم كانـــوا يريـدون ذلـك الشيء فلم يصفه احد لي ياصاحب الجلالة .

اسماله عن الانظار تحت الرداء . ثم استؤنفت احتفالات التتـويـج . وكـرس الملك الحقيقي ووضـع التـاج على رأسـه، في الـوقت الـذي دوى المـدفـع ينقـل النبأ الى المدينة، وبدا كأن لندن بكاملها قد اهتزت بالتصفيق .

الفصل
(٣٣)



ادورد ملكا

كان مايلز هنـدن جديراً ان يكون موضوع صورة رائعة قبل ان يدخل الازدحام المرح الصاخب في جسر لندن ـ وكـان اجـدر من ذلك عندما خرج منه. كان يمتلك قليلا من المـال عنـدما دخل، ولم يمتلك شيئا عندما خرج اذ جرده النشـالـون من آخر فلس لديه. ولكن لا بأس اذا ما وجد الولد. ولما كان جنديا فانه لم يبدأ مهمته عشوائيا؛ شرع قبل شيء بترتيب جولته.

ماذا سيفعـل الـولـد بطبيعـة الحـال؟ اين سيـذهـب؟ حسنـا ـ قال مايلز في نفسـه ـ سيذهب بطبيعة الحال الى امـاكنـه التي اعتـاد ان يرتـادها لان تلك هي غريزة ذوي العقـول المعتلة، اذا ما تشـردوا اونبـذوا، وكـذلك ذوي العقول السليمة. فاين تقع تلك الاماكن التي يكثر التردد عليها؟

اسماله اخذها الوغد الوضيع الذي يبدو انه كان يعرفه والذي ادعى انه ابوه، واشار الى ان بيته كان في احد الاحياء الفقيرة الحقيرة في لندن. هل سيكون البحث عنه صعبا ويستغرق مدة طويلة؟

لا، من المحتمل ان يكون سهلا وقصيرا. لن يبحث عن الصبي، بل عن الجماعة، لابد ان يجد صديقه المسكين في وسط جمهور كبير او صغير، عاجلا او آجلا. وسيتدخل الرعاع لتسلية انفسهم ويزعجوا الولد ويثيروه. وعند ذلك سيدعي انه الملك، كالمعتاد. وسيضرب مايلز هندن بعض اولئك الناس، ويأخذ صاحبه الصغير، ويطمئنه ويشجعه بكلمات المودة والمحبة، ولن يفترق الاثنان بعد هذا ابدا.

وهكذا بدأ مايلز استفساراته. وظل يتجول ساعة بعد ساعة في الازقة الخلفية والشوارع القذرة باحثا بين جماعات وجماهير لانهاية ولا حصر لهم، ولكنه لم يجد اثراً للصبي. وادهشه ذلك كثيرا ولكنه لم يحبطه وبهذا الخصوص لم يكن نقص في خطته، ولكن الشيء الوحيد الذي لم يحسب له حساباً ان امر البحث سيطول كثيرا في الوقت الذي كان يتوقع ان يكون قصيرا.

وعندما اطل نور الصباح اخيرا، كان مايلز قد مشى كثيرا وسأل كثيرا من الناس، وكانت النتيجة الوحيدة هو

التعب الشديد، والجوع والنعاس. اراد شيئا من افطار، ولكن لا سبيل الى ذلك، ولم يخطر بباله ان يستجدي من اجله، اما بخصوص رهن سيفه، فقد يعد ذلك فراقا لشرفه. يمكن ان يتخلى عن بعض ملابسه ـ اجل ولكن الانسان يمكن ان يجد مشتريا لمرض من الامراض بكل يسر ولكن ليس لمثل هذه الملابس.

وجاء الظهر وكان مايزال يتجول باحثا بين الغوغاء الذين كانوا يتبعون الموكب الملكي، لانه اعتقد ان هذا العرض الملكي سيجذب عقله المعلول بكل قوة، فتبع الموكب في كل انعطافاته وتعرجاته في لندن، وطوال الطريق الى ويستمنسر. وتنقل هنا وهناك بين الحشود المزدحمة في المنطقة المجاورة مدة طويلة مرهقة من الزمن، وكان حائرا مضطربا، ثم راح اخيرا يفكر في نفسه محاولا ان يستنبط طريقة افضل للبحث. وعندما عاد الى نفسه من تأملاته اكتشف انه خلف المدينة وراءه بعيدا وان النهار اوشك ان ينقضي. كان قريبا من النهر، في الريف، منطقة راقية لا تتقبل ثيابا مثل ثيابه.

لم يكن الجو باردا، فتمدد على الارض في مأوى قرب سياج من نباتات كثيفة ليرتاح ويفكر. وبدأ النعاس يداعب حواسه، وكان دوي المدافع البعيد والضعيف يصل اذنيه وقال في نفسه: «توج الملك الجديد» ثم

استغرق في نومه فورا . لم يكن قد نام او ارتاح قبل هذا لمدة تزيد على ثلاثين ساعة ولم يستيقظ ثانية حتى ضحى اليوم التالي نهض ، متخشبا ، يعرج ، يكاد يموت من الجوع ، وغسل في النهر واسكت معدته بشيء من الماء ، ثم مشى مجهدا نحو ويستمنسر يدمدم في نفسه ويلومها بسبب ضياعه كثيرا من الوقت . وساعده الجوع في رؤية خطة جديدة سيحاول ان يكلم سير همفري مارلو ويقترض منه بعض المال ـ تلك خطة لابأس بها حاليا وسوف يوسعها اذا مانجح في تحقيق المرحلة الاولى منها .

وصل مايقرب من الساعة الحادية عشرة الى القصر ، وبالرغم من وجود حشد من الناس المبهرجين المزوقين حوله يسيرون في الاتجاه نفسه ، فانه كان متميزا بسبب زيه . راقب وجوه هؤلاء الناس مليا ، آملا ان يجد احداً من ذوي الاحسان من يستطيع ايصاله الى ذلك الرجل الكبير . أما محاولة دخول القصر بنفسه فقد كانت خارج الموضوع .

ومر في الحال امامه الصبي كبش الفداء ، الذي دار حوله وتفحصه جيدا قائلا في نفسه : ان لم يكن هو المتشرد نفسه الذي يسأل جلالة الملك عنه كثيرا ، فإنني حمار ـ ولو انني لا اعدو ذلك فانه تنطبق عليه الاوصاف

تماما ، واذا خلق الله اثنين متشابهين ، فانه بفعل ذلك ليضعف المعجزة ويجعلها رخيصة بتكرارها . ساختلق عذرا للكلام معه .

وجنبه مايلز مشقة الامر اذ التفت اليه كمن وقع تحت سحر احد حدق فيه بقوة من الخلف ، ولاحظ اهتماما قويا في عيني الصبي فتقدم نحوه وسأله :

ـ انت خرجت من القصر توا ، هل لك علاقة به؟

ـ نعم يا صاحب السمو.

ـ هل تعرف سيرهمفري مارلو؟

وجفل الولد وقال في نفسه : رباه! يا ويل ابي المرحوم! . . ثم اجابه بصوت مسموع : نعم ، اعرفه ، يا صاحب السعادة .

ـ جيد ـ وهل هوفي الداخل؟

ـ نعم

ثم قال الولد في نفسه مرة اخرى : في قبره .

ـ هل لي ان التمس اليك فضلا تؤديه لي وتنقل اليه اسمي وتقول له اني اطلب ان اسركلمة اليه؟

ـ سانقل اليه طلبك ، سيدي في الحال ، بكل سرور.

ـ اذن قل له مايلز هندن ابن سير ريجارد ، موجود في الخارج ـ سأكون مدينا لك ، ايها الغلام الطيب .

بدا الصبي يائسا وقال في نفسه : لم يسمه الملك بهذا

الاسم ، ولكن ذلك لا يهم ، فهذا اخوه التوأم، ويستطيع ان يقدم لجلالته اخبار السيد فلان بن فلان ـ استطيع ان أوكد ذلك .

ثم قال لمايلز:

ـ ادخل هنا وانتظر لحظة حتى اعود اليك بالخبر. ياسيدي .

ودخل هندن في المكان الذي اشار اليه ـ فجوة في جدار القصر، فيه دكة حجرية يلتجيء اليها الحرس عندما تسوء الاحوال الجوية . وما كاد يجلس حتى مرّ بعض الحرس من حملة الرماح، ورآه الضابط المسؤول عنهم، فاوقف رجاله، وامر هندن ان يخرج . اطاع هندن امره وسرعان ما القي القبض عليه بوصفه شخصا مريبا يجوس خلسة في ابهاء القصر . وبدأت الامور تبدو قبيحة . واراد هندن ان يوضح المسألة فاسكته الضابط بفظاظة ـ وامر رجاله ان يجردوه من السلاح ويفتشوه .

وقال هندن :

ـ ارجو رحمة من الله وفضلا ان يمن علي فيجدوا شيئا لقد بحثت توا ولم اجد شيئا . وان حاجتي اعظم من حاجتهم لم يجدوا شيئا سوى ورقة . فتحها الضابط وابتسم هندن عندما شاهد «الخرابيش» التي دونها صديقه الصغير الضائع في ذلك النهار الاسود في قصر

هندن . اكفهر وجه الضابط وعبّس وهو يقرأ الفقرة الانكليزية، اما هندن فقد شحب وجهه وهو يستمع اليه .

وهاج الضابط قائلا :

ـ مطالب جديد بالتاج : انهم اليوم يتكاثرون كالارانب تماما . القوا القبض على هذا الوغد الوضيع ، يارجال، وقيدوه جيدا ، حتى انقل هذه الورقة الثمينة الى الداخل وارسلها الى الملك .

واسرع تاركا الاسير في قبضة الجنود المسلحين وتمتم هندن :

ـ ها ان سوء طالعي ينتهي اخيرا لانني سوف اتدلى من طرف حبل بكل تأكيد، بسبب تلك الورقة المكتوبة . وماذا سيحل بالولد المسكين لا يعلم ذلك الا الله .

ثم رأى الضابط يعود مسرعا ، فاستعاد رباطة جأشه ناويا ان يلاقي مصيره كما يليق بالرجال . وامر الضابط ان يفكوا قيد الاسير ويعيدوا سيفه له ، انحنى له محترما وقال :

ـ تفضل ياسيدي اتبعني .

وتبعه هندن وهو يقول في نفسه :

ـ اذا نجوت من المحاكمة والموت فانني سأخنق هذا الوضيع لمجاملته الساخرة .

وعبر الاثنان ساحة عامرة بالناس، ووصلا الى

المدخل الكبير للقصر حيث سلم الضابط ، بانحناءة اخرى، هندن الى يدي ضابط انيق ، استقبله باحترام عميق وقاده الى بهو عظيم، اصطف على كلا جانبيه صفان من الخدم الرائعين الذين ادوا له فروض الاحترام بانحناءة كلما مر الاثنان امامهم، ولكنهم كانوا يغصون بالضحك الصامت كأنه حشرجات الاحتضار على فزاعة الحقول هذا ما ان يوليهم ظهره، وصعدا سلما عريضا، بين مجموعة رائعة من الناس، وقاده اخيرا بين جمع من النبلاء الانكليز، وانحنى وذكره أن يخلع قبعته، وتركه واقفا في وسط الغرفة، فصار محط انظار الجميع، وأستياء كثير منهم واحتقارهم، وموضع ابتسام ساخر.

ارتبك مايلز هندن تماما. كان الملك الصغير جالسا تحت مظلة ملكية على بعد خمس خطوات منه، وقد انحنى راسه ومال جانبا، وهويتحدث مع نوع من طيور الجنة البشرية ـ لعله دوق. وادرك هندن في قرارة نفسه ان من الصعب ان يحكم عليه بالموت من دون اذلال من هؤلاء الواقفين ايضا. وتمنى لو ان الملك يعجل بالامر- وقد اصبح بعض الناس المبهرجين المزوقين قريبا منه عدائيين جدا.

في هذه اللحظة، رفع الملك راسه بلطف ورأى هندن وجهه جيدا وكاد المنظر يقطع انفاسه. فوقف محملقا في

الوجه الشاب اللطيف كمن اصيب بطعنة، ثم هتف قائلا:

ـ عاهل مملكة الاحلام والظلال على عرشه!

وتمتم ببعض الجمل المكسرة وهو مايزال محملقا مسحورا ثم ادار عينيه حوله متفحصاً الحشد البديع والبهو الرائع وهو يدمدم:

ولكن هذه حقيقة ـ حقيقة فعلا، لا ريب انها ليست حلما.

وحدق في الملك مرة اخرى وفكر: هل هذا حلم؟ . . . ام انه عاهل انكلترة الحقيقي، وليس المسكين توم بيدلام الذي ظننه اول الامر ـ من سيحل اللغز لي؟

وومضت في خاطرة فكرة مفاجئة، وتقدم نحو الجدار واخذ كرسيا ونقله الى حيث كان واقفا ووضعه على الارض وجلس عليه!

واندلعت موجة من الاستنكار، وامتدت يد صلبة قوية اليه وقال له صوت:

ـ أنهض ايها المهرج القليل الادب؟ كيف تجلس في حضرة الملك؟

واثار الاضطراب انتباه الملك الذي مد يده وصاح قائلا:

ـ لا تمسوه، هذا حقه!

وتراجع الحشد، مصعوقين. وواصل الملك قوله:

- اعلموا جميعا ايها السيدات والسادة والنبلاء، ان هذا هو خادمي المخلص الحبيب، مايلز هندن الذي مد سيف الخير وانقذ اميره من اذى بدني وموت محتمل - ولهذا فقد منحه الملك لقب فارس. واعلموا ايضا، انه من أجل خدمة اسمى، بافتدائه الملك من الجلد والعار، قد اصبح نبيلا ومنحناه لقب ايرل كينت، وسينال الذهب والارض بما يناسب المنصب النبيل. وفضلا عن ذلك فاننا نمنحه الامتياز الذي اتخذه لنفسه، لاننا رسمنا ان يكون لكبار نسله الحق في الجلوس في حضرة ملك انكلترة من الآن فصاعدا، جيلا بعد جيل، مادام التاج في الوجود. ولا يحجب عنه هذا الحق.

ووصل شخصان من الريف هذا الصباح ومثلا في غرفته قبل خمس دقائق، ووقفا يستمعان الى هذه الكلمات وينظران الى الملك ثم الى الفزاعة، ثم الملك كرة اخرى، في ذهول بليد.

هذان الاثنان هما سير هيو وليدي ايدث. ولكن الايرل الجديد لم يرهما اذ كان مايزال محملقا في الملك بطريقة مذهلة وهو يتمتم:

- اي وربي! هذا هو صاحبي الفقير! صاحبي المخبول الذي اردت ان اريه العظمة التي كنت نتمتع بها في

بيتنا الذي فيه سبعون غرفة وسبعة وعشرون خادما! هذا الذي لم يعرف شيئا سوى الاسمال ثيابا، والنفايات طعاما والرفسات راحة!

هذا الذي تبنيته واردت ان اجعل منه محترما! الا ليت لي كيسا اخفي فيه رأسي!

ثم عاد اليه ادبه فجأة وجثا على ركبتيه ووضع يديه بين يدي الملك، واقسم يمين الولاء والاجلال لالقابه واراضيه. ثم نهض ووقف جانبا بمنتهى الاحترام، ومازال موضع انظار جميع العيون - وكثير من الحسد ايضا.

وانتبه الملك الآن الى سير هيو فتكلم بصوت غاضب وعين تقدح شررا:

- جردوا هذا السارق من مظاهره الكاذبة وممتلكاته المسروقة والقوا به في غيابة السجن حتى اطلبه.

واقتيد هيو خارجا.

وحدثت حركة في الطرف الاخر من البهو، وانفرج حشد المجتمعين وسار توم كانتي، في ابهى الثياب وانفسها، بين هذين الجدارين من الاحياء يتقدمه دليل وجثا بين يدي الملك الذي قال:

- عرفت قصة الاسابيع القليلة الماضية وسررت بك. لقد حكمت المملكة. بالعدل والرحمة والرفق. أوجدت

امك واختيك؟ جيد، سوف يلقين العناية ، وسوف يشتق ابوك، اذا كنت ترغب في ذلك ووافق القانون. اعلموا جميعا يامن تسمعون صوتي . انه من يومنا هذا سوف يقمن في مأوى مستشفى المسيح ويتلقين هبة الملك السخية. وسوف يتلقين غذاء العقول والقلوب والاعضاء الاخرى. وسوف يسكن هذا الولد هناك ويتولى المقام الرئيس بكامل هيئة موظفيه المبجلة طوال حياته. وبما أنه صار ملكا، فلابد ان يتلقى التكريم والاحترام اكثر من المعتاد، بما يتميز به من لباس رسمي سيعرف به ولن يضاهيه او يقلده احد فيه. واينما سار فيجب ان يتذكر الناس انه كان ملكا في وقت من الاوقات، ولن ينكر احد عليه ما يستحق من تبجيل وابداء التحية. فهو في حماية العرش وعون التاج وسوف يعرف بلقب حارس الملك.

ونهض توم كانتي وهو يشعر بالسعادة والكبرياء وقبل يد الملك ثم خرج من حضرته، ولم يضيع وقته بل انطلق الى امه واخبرها واخبر اختيه نان وبيت بكل شيء عن امره وطلب اليهن الابتهاج معه بهذا النبأ العظيم.

الخاتمة

ثواب وعقاب

انجلى كل شيء غامض، واعترف هيو هندن ان زوجته انكرت مايلز بامر منه ذلك اليوم في قصر هندن ـ امر يعززه وعيد اكيد انها ان لم تنكر مايلز فانه سيقتلها، فقالت له اقتل، اذ لا قيمة لحياتها، وانها لن تنكر مايلز، فقال انه سيبقي على حياتها ولكنه سيغتال مايلز! صارت المسألةمختلفة، فاعطت وعدا وحافظت على وعدها.

ولم يحاكم هيو من أجل وعيده وتهديده او سلبه املاك اخيه ولقبه، لأن الزوجة والاخ لم يشهدا بذلك ـ وان الزوجة لم يسمح لها ان تفعل ذلك، حتى عندما ارادت. هجر هيو زوجته وهاجر الى القارة الاوربية، حيث مات في الحال. ثم تزوج مايلز ارملته. وعمت الافراح قرية هندن عندما زار الزوجان قصر هندن اول مرة.

ولم يسمع احد بأب توم كانتي مطلقا.

ويحث الملك عن الفلاح الذي وسم وبيع عبدا، وخلصه من حياة الشقاء مع عصابة رفلر، ووضعه في حياة الخير، والراحة .

واسكن بنتي المرأتين اللتين احرقتا في مساكن جيدة، وعاقب الموظف الذي جلد مايلز بغير حق .

وانقذ من الشنق الصبي الذي صاد الصقر الضال، وانقذ كذلك المرأة التي سرقت بقية من قماش من الحائك ولكنه تأخر عن انقاذ الرجل الذي اتهم بصيد غزالة في الغابة الملكية .

واثاب الحاكم الذي اشفق عليه عندما اتهم بسرقة خنزير وسره ان يجد التقدير والاحترام الذي حظي به لدى الناس ويصبح رجلا عظيما رفيع القدر.

وكان الملك مغرما ، طوال حياته ، برواية قصة مغامراته كلها منذ الساعة التي صفعه فيها الحارس والقاه خارج ابواب القصر حتى الليلة الاخيرة عندما زج نفسه ببراعة مع زمرة من العمال المسرعين وبذلك تسلل الى الكنيسة، وصعد واخفى نفسه في مقصورة الاعتراف، ونام فيها طويلا في اليوم التالي ، وخرج عند مراسيم التتويج . وقال ان اعادة هذا الدرس الثمين وتكراره يجعله اقوى في مقاصده من أجل اسداء الخير الى شعبه . وهكذا ظل يردد هذه القصة مادام حيا لكي تبقى

مشاهدها حية في ذاكرته وتعمر قلبه ينابيع الرحمة .

وكان مايلز هندن وتوم كانتي اثيرين لدى الملك ، طوال حكمه القصير، وحزينين مفجوعين بموته . ولم يسيء مايلز استعمال امتيازه الخاص . فمارسه مرتين بعدما رأيناه . حتى غادر هذه الدنيا . مرة عند اعتلاء الملكة ميري العرش ومرة اخرى عند اعتلاء الملكة اليزابث العرش . ومارسه احد احفاده عند اعتلاء جيمز الاول وبعد انقضاء ربع قرن على ذلك . خبا ذلك الحق في ذاكرة اغلب الناس . وعندما جاء احد احفاده امام جارلز الاول وجلس في حضرته امام اعضاء بلاطه تأكيداً لحق بيته ، حدثت حركة استنكار . ولكن شرح الامر وثبت الحق . وسقط آخر نبيل في سلسلة نسبه في حروب الامبراطورية فانتهى بذلك هذا الامتياز معه .

وعاش توم كانتي حتى بلغ من العمر عتيا . واصبح شيخا وسيما ابيض الشعر، وقورا رؤوفا . وكان يحظى بالتكريم ما دام حيا ، ويبجل ايضا . لأن بدلته الفريدة اللافتة للنظر ظلت تذكر الناس انه اصبح ملكا في مقتبل ايامه ، لذلك كان الناس يفسحون له في المجال اينما مر ويهمس بعضهم لبعض ، اخلع قبعتك . هذا حارس الملك ! هكذا كانوا يحيونه ويتلقون ابتسامته المرتقبة مقابل ذلك ، وكانوا يقدرونها حق قدرها لتاريخه

المشرف .

عاش الملك ادورد السادس سنوات قليلة جداً، ولكنه قضاها بجدارة. وعندما كان يناقشه بعض اصحاب المقامات الرفيعة، وبعض التابعين للتاج من اللامعين، بشأن لينه وتساهله، ويلحون بالاشارة الى بعض القوانين التي كان يعكف على اصلاحها انها كانت هينة في نتائجها لا تجعل مقترف الاثم يكابد ألما او غما لابد منه، فكان الملك الشاب يلقي عليهم نظرة ملؤها العتاب الذي يفصح عن رحمته ويجيبهم قائلا:

ـ ماذا تعرف عن مكابدة الالم والغم ؟ انا وشعبي نعرف ذلك، اما انت فلا .

كان حكم ادورد السادس يتميز بالرأفة في ذلك الزمن القاسي واذ نحن نستأذنه بالانصراف دعنا نحفظ ذلك في ذاكرتنا فضلا له وفخرا .

ملاحظات

١ ـ الفصل الرابع
زي مستشفى المسيح

اخذ هذا النمط من الثياب من زي مواطني مدينة لندن في تلك الفترة حيث كانت السائدة ان يلبس الصناع وذوو المهن معاطف زرقاً طويلة، وجوارب صفراً. وكان المعطف ضيقا على الجسم ولكن اردانه فضفاضة ـ، ويلبس تحته سترة بلا اكمام صفراء اللون. ونطاقاً حول الخصر من جلد احمر، وعصبة اوياقة اكليركية حول الرقبة، وقبعة صغيرة سوداء مسطحة، بحجم صحن الطعام اكمالا للزي . (غرائب لندن، تأليف تمز) .

٢ ـ الفصل الرابع

يبدو ان الملجأ في مستشفى المسيح لم يكن قد اسس اصلا كمدرسة فقد كان غرضه انقاذ الاطفال من الشوارع، واطعامهم واكساءهم الخ . . (غرائب لندن، ، تمز.)

٣ ـ الفصل الخامس
قرار الحكم بموت نورفوك :

كان الملك يقترب الآن سريعا من نهايته وخشية ان ينجو منه نورفوك، ارسل رسالة الى مجلس العموم رغب فيها اليهم التعجيل باصدار اللائحة القانونية بحجة ان نورفوك يتمتع بلقب الايرل مارشال الذي يرافق الملك عند افتتاح البرلمان واختتام دوراته ويشرف على حفلات الدولة الرئيسة كلها، فمن الضروري تعيين احد غيره، الذي تقتضي الضرورة وجوده في احتفالات تتويج ولده امير ويلز. (تاريخ انكلترة الجزء ٣، ص٣٠٧ ، تأليف هيوم)

٤ ـ الفصل السابع

لم يكن يتم انتاج اي شيء في انكلترة من زلاطة او جزر اولفت او اي جذور صالحة للاكل، الا بعد نهاية حكم ادورد الثامن، وكان الشيء القليل الذي يستعمل قبل هذا يستورد من هولندة والفلاندرز. وكانت الملكة كاترين عندما ترغب في الزلاطة تضطر الى بعث رسول الى هناك لهذا الغرض. (تاريخ انكلترة ، الجزء ٣، ص٣١٤، هيوم)

٥ ـ الفصل الثامن
تجريد نورفوك من حقوقه المدنية

نتيجة الحكم عليه بالاعدام اصدر مجلس النبلاء، من دون ان يستجوب السجين او محاكمته او جلب الشهود، لائحة بتجريده من حقوقه المدنية وارسلت الى مجلس العموم. . واطاع مجلس العموم الخانع اوامره (الملك). وصادق الملك على اللائحة، اصدر اوامره بتنفيذ حكم الاعدام بنورفوك في صباح يوم ٢٩ كانون الثاني (اي اليوم التالي) (تاريخ انكلترة جزء ٣، ص٣٠٦، تأليف هيوم)

٦ ـ الفصل العاشر
كأس المحبة

كأس المحبة والطقوس الغريبة التي تصاحبها في الشرب منها هي اقدم من التاريخ الانكليزي نفسه، ويظن انها من المستوردات الدانماركية.

وبقدر ما توصلت اليه المعرفة عن ذلك فان كأس المحبة كان يشرب منها في المآدب الانكليزية. ويوضح التراث الطقوس الخاصة بها كما يلي: كان يعد من الحكمة في الايام القديمة، حذرا وحيطة، ان يستعمل الشاربان كلتا

يديهمـا لئلا ينتهز الشخص الـذي يشـرب النخب من اجله، الفـرصـة ويطعن الشـارب الآخر في اثناء تقديمه حبه واخلاصه اليه!

٧ ـ الفصل الحادي عشر:
نجاة دوق نورفوك:

لو بقي هنـري الثـامن ساعات قلائل اخرى. لنفذت اوامـر بشأن اعـدام دوق نورفـوك. ولكن الخبر انتقل الى سجن البـرج بمـوت الملك نفسه في تلك الليلة، فارجأ الضـابط تنفيذ الامر، ولم يجد المجلس من الحكمة ان يبـدأ العهـد الجـديـد باعدام اعظم نبلاء المملكة الذي صدر الحكم بمـوتـه ظلمـا وطغيـانـا. (تـاريـخ انكلترة ، هيوم، جزء ٣، ص٣٠٧)

٨ ـ الفصل الرابع عشر:
كبش الفداء:

كان لدى جيمز الاول وجارلز الثاني يستعملون صبيانا «كبش فداء» لمـا كانـا صغيـرين، ليتلقيـا العقـوبة بدلا عنهمـا، عندما يقصران في دروسهما. لذلك غامرت ان ازود اميري الصغير بكبش فداء، لاغراض روايتي.

٩ ـ الفصل الخامس عشر:
السلق حتى الموت:

في ايـام حكم هنـري الثـامن كان السجنـاء يحكمـون بالسلق حتى المـوت، بمـوجب مرسوم برلماني. والغي هذا القانون في الحكم الذي تلاه.

حادثة جوارب شهيرة:

شنقت امـرأة وابنتهـا البـالغة من العمر تسع سنوات، في هنتنكـدن لانهما باعتا نفسيهما للشيطان، واثارتا عاصفة عندما خلعتا جواربهما! (دكتورج هاموند ترمبل: قوانين زرق: صادقة وكاذبة، ص٢٠)

١٠ ـ الفصل السابع عشر
قانون العبودية:

لا يمـكن ان يقـدم ملك صغـير، عرف بشخصيتـه الانسانية، اقتراحا بسن مثل هذا القانون البشع في اثناء حكمه.

١١ ـ الفصل الثالث والعشرون
الحكم بالموت عن سرقات تافهة:

عنـدمـا كانت كونيكتيكـوت ونيـو هيفن تقومان بوضع مسودة قانونهما الاول، كانت السرقة التي تتجاوز قيمتها

اثني عشر بنساً تعد جريمة كبرى في انكلترة، منذ ايام هنري الاول. (همونـد ترمبل: قوانين زرق، صادقة وكاذبة. ص ١٧)

ويجعل الكتاب القديم الموسوم بـ«المتشرد الانكليزي» الحد الادنى بثلاثة عشر بنسا ويكون الموت نصيب كل من يسرق شيئاً تزيد قيمته على ثلاثة عشر بنساً بنصف بنس. (الپني اربعة فلوس

١٢ ـ الفصل السابع والعشرون:

سرقة حصان او صقر اوقطعة قماش من حائك، كانت عقوبتها الشنق. وكذلك قتل غزالة في غابة الملك، او تصدير خروف من المملكة. (المصدر السابق ص١٣)

الفصل الثالث والثلاثون
مستشفى المسيح او مدرسة المعاطف الزرق

«اعظم مؤسسة في العالم» وهب الملك هنري الثامن الارض التي يقع عليها دير الرهبان الفرنسيسكانيين اي مجلس بلدية لندن (الذي جعل المعهد فيه دارا للاولاد والبنات الفقراء). وامر ادورد السادس بعده بترميمه جيدا واوجد فيه تلك المؤسسة النبيلة التي تدعى مدرسة

المعاطف الزرق، اومستشفى المسيح، من اجل تعليم وادامة الايتام وابناء الفقراء..

ولم يسمح ادورد للقس ريدلي ان يغادر المكان حتى كتب رسالة الى العمدة وحمله تسليم الرسالة اليه بنفسه، ويشير الى رغبته الخاصة واوامره ان لا يضيع وقتا في اقتراح ماهومناسب، واعلامه بالاجراءات المتخذة. وسار العمل بشكل حماسي، اذ تعهد ريدلي بالقيام به. وكانت النتيجة تأسيس مستشفى المسيح لتعليم اطفال الفقراء. (وقدم الملك عددا آخر من الهبات في الوقت نفسه). وقال: احمد الله كثيرا من صميم قلبي على ما وهبني من حياة في سبيل اكمال هذا العمل تمجيدا لاسمه العزيز!» وكانت تلك الحياة البريئة المثلى تقترب من نهايتها سريعا، واسلم روحه بعد ايام قلائل الى بارئها، مبتهلا الى الله ان يحفظ المملكة.

(لندن : اشهر شخصياتها واماكنها، تأليف هينيج جيسر).

سلسلة اروع المغامرات

صدر منها:

خطر في منجم الذهب
المغامر السري
العودة الى كهف الزمن
صائد الاشباح
سحر الفرس وحيد القرن

يصدر قريباً:

الرعب الكبير
ساكن النجوم

سلسلة روايات عالمية للفتيان

صدر منها :

بينوكيو «الصبي الخشبي»
رغد والسحابة
البيضة الهائلة
مغامرات الكابتن رنجل
الحديقة السرية
بيتر بان
عائلة روبنسن السويسرية
اطفال القطار
المدينة من ذهب ورصاص
نساء صغيرات «الجزء الاول»
نساء صغيرات «الجزء الثاني»
الخنفساء الذهبية
مذكرات حمار
مغامرات فوق الجزيرة
القرعة السحرية

سلسلة الكتاب العلمي

صدر منها:

المكتشفون الاوائل

الديناصورات العجيبة

الغاز مسلية

الكهرباء

الليزر

الاسعافات الاولية

الطاقة وانواعها

الانهار سر الحياة

سلسلة نصوص عالمية

صدر منها:

١ ـ جاك وحبة الفاصوليا

٢ ـ مغامرات لاثاريلبيو دي تورمس

٣ ـ الجزيرة الصغيرة وحكايات اخرى

٤ ـ من خرافات ايسوب

٥ ـ الوريث الشرعي

٦ ـ الارنب والقط الوحشي

٧ ـ اساطير من الكاريبي

٨ ـ منهاوزن

٩ ـ اميرة ضوء القمر

١٠ ـ الرجل الحديدي

١١ ـ كيف صار الحوت

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ٩٨٨ بغداد لسنة ١٩٨٨

دار الحرية للطباعة

دار الحرية للطباعة

السعر ٦٥٠ فلس